الأخلاق المسيحية

بقلم

المطران مخائيل عساف

رئيس أساقفة بترا وفيلدلفيا وسائر شرق الأردن

المطبعة المخلصية

دير المخلص– صيدا(لبنان)

١٩٤٨

توطئة

متى تكلم الفم من فيض ما في القلب دخل الكلام الى قرارة النفس وجعل فيها ذلك الارتياح والهنا والاقتناع. واذا كان القلم ترجماناً صادقاً ابقى للنفس اثراً حيا يحي فيها عاطفة اللذة الفائقة، واولاها من الحزم ما تقدم به عظائم الأمور.

كذلك هذه الصفحات التي يقدمها لنا سيادة الحبر الجليل المطران ميخائيل عساف رئيس اساقفة بترا وفيلدلفيا وسائر شرقي الأردن، وقد كتبها اذ كان كاهناً يتنقل في خدمة النفوس ويتعرف على أحوالها وحاجاتها، فوضع لها اولاً كتابه الثمين في سير القديسين الذين تكرمهم كنيستنا الشرقية. ثم عمد إلى درس الاعمال والفضائل التي قادتهم إلى القداسة فوضع هذا الكتاب في الفضائل المسيحية الأدبية والإلهية، بقالب متين جذاب، وأيد نصه بآيات الكتاب المقدس، وبشهادات الآباء القديسين، والمعلمين الروحيين، ومبادئ اللاهوتيين؛ وزاد فافاض بعد كل موضوع، حوداث تاريخية مما يستهوي القارئ ويرغبه في السعي الى تهذيب اخلاقه وتقويم حياته، توصلاً إلى تلك الحاة المثلى، من أي طبقة كان من المجتمع حياته، توصلاً الى تلك الحياة المثلى، من أي طبقة كان من المجتمع البشري، وعلى أي درجة وجد من حالة الكمال.

فإلى النفوس التواقة الى التهذيب الخلقي او الادبي والديني نقدم هذا الكتاب لتلجأ اليه في فترات الأيام، فتجدد، بقراءة نبذة منه، نشاط الروح، وتجد التعزية النفسية، التي هي فوق كل تعزية بشرية، وتسلك في أنوار النعمة التي هي فوق كل الأنوار العقلية.

"المطبعة المخلصية"

مقدمة

"ليكن فيكم من الأفكار والأخلاق ما هو في المسيح يسوع"

(فيليبي ٢:٥)

لقد أفاض الكتبة اللاهوتيون والمعلمون الروحيون في الكلام عن الكمال المسيحي، وسمو مراميه، وجزيل منافعه؛ ووضعوا في ذلك المؤلفات العديدة؛ وبينوا بفصاحتهم وعلمهم، وعلى الأخص بجمال سيرتهم وقداسة حياتهم، ماهية ومعانيه ورسومه وطريقه؛ فخلّفوا بذلك لنا كنوزاً عظيمة نغترف منها بملء قلوبنا، ومناهل فائضة نردها فنستقي منها "ماء الحياة الدائمة"[١] التي وعد بها المعلم الإلهي كل من طلبها وسعى الى نيلها.

وقد قسم اللاهوتيون الروحيون حالات الكمال المسيحي الى درجات ثلاث: فخصّوا الدرجة الأولى بالمبتدئين، والثانية بالمتقدمين المنورين، والثالة بالخشّع الكاملين. وجعلوا لكل فئة من هؤلاء رسوماً وأحكاماً؛ ووصفوهم بميزات تعرف بهم. وبذلك اناروا الطريق للمؤمنين، وبالاكثر للكهنة المرشدين، ليكون الاولون على بينة من أمرهم، والآخرون على ثقة من تعليمهم وارشادهم.

وإن أول من تفرد بهذه الطريقة المثلى المنظمة هو القديس توما الأكويني ملاك المدارس؛ وتبعه فيها جمهور من الكتبة والمعلمين، ابرزهم اساتذه "الكلية الفرنسية" في الجيل السابع عشر، والمنسنيور غي[٢](Mgr Gay) والأب اليسوعي دي شميد[٣](Ch. De Smedt)، وسودرو[٤](Saudreau)، واشيل دي مورمون[٥](A. Desurmont)، وتنكري[٦] (Ad. Tanqueray)، وغيرهم.

فالدرجة الأولى تشمل طغمة المؤمنيني الذين يجاهدون لكي يتحرروا من قيود الخطايا الثقيلة بواسطة التكفير المؤسس على الصلاة العقلية والشفهية، وعلى الصبر في الشدائد، ومقاومة الشهوات الرديئة، وردع الأميال الخبيثة.
فإذا نجحوا فيما هم ذاهبون فيه دخلوا في الرحلة الثانية، أو الدرجة الثانية من الكمال المسيحي؛ فاقبلوا على درس حياة المسيح واقواله وأعماله، بعاطفة صادقة، وعزم ثابت المحبة، لكي يعملوا على التشبه به واتباع تعاليمه؛ فاندفعوا يمارسون الفضائل المسيحية تمثلاً به وتقرباً الى ابيه واليه. " أنا نور العالم: من يتبعني لا يمشي في الظلام بل يكون له نور الحياة"[١].

---

[١] يوحنا ١٤:٤
[٢] De la vie et des verlus chretiennes
[٣] degrés de la vie spirituelle
[٤] Le degrés de la vie spirituelle
[٥] Charité sacerdotale
[٦] Précis de théologie ascétique et mystique
[١] يوحنا٨:١٢

اما الدرجة الثالثة فهي درجة الكاملين من المسيحين الذين اضحت حياتهم كلها لله، حياة تجرد كامل عن الأرضيات، حياة هذيذ دائم في السماويات، حياة اتحاد تام مع الله بفضيلة المحبة الإلهية السامية، حياة صمت داخلي، وهدوء قلبي، وسكون عميق روحي، رغم ما يتعرضهم من ضوضاء الحياة، ومصاعبها، وشدائدها، بحيث يمكنهم ان يهتفوا مع الرسول بولس: "انا حيٌّ، لا أنا، بل انما المسيح حيٌّ فيّ"[٢] .

الا أن بحثنا الآن لايتناول سو ى الكلام عن الفضائل المسيحية الإلهية والأدبية، اعني ما يدخل تحت لواء الدرجة الثانية من الكمال المسيحي[٣] تاركين ما سواه لغيرنا، أو لبحث غير هذا البحث. لان كمال الحياة الروحية يعود اكثره إلى القيام بافعال الفضائل المسيحية، وهذا ما طلبناه الآن في الكتاب خدمة للنفوس المؤمنة التقية. والخطة هذه هي الخطة العملية التي اعتمدها الكثيرون من كبار الكتبة الروحيين، نظير كاسينوس، والقديسيوحنا كاتب سلم الفضائل، في الأجيال الغابرة؛ ورودريكوس[٤] (Rodríguez) واوليه [٥] (J.J. Olier) والمنسنيور لولونج [٦] (Mgr. Le Long) وغيرهم في القرون الأدني الينا؛ فهي أقرب منالاً، وأسهل على عامة المؤمنين سبيلاً.

اما الخطة الني سار عليها الاكثرون من الآباء القديسين ومن كبار اللاهوتيين، نظير القديسين باسيليوس والذهبي الفم وامبروسيوس واغسطينوس وانسلموس وبرنردوس وتوما الاكويني وبنوفنتورا وفرنسيس السالسي ومنصور دي بول، والقديسة تريزيا، وجرسون والكردينال دي بيرول وسواهم من قريبيين من عصرنا ومن بعيدين عنا[٧]، فهي التي وإن كانت أكثر منطقا واكمل بياناً، الا انها اطول مسافة، واكثر مشقة على الأكثرين من جمهور المؤمنين. وذلك لأنها تبدأ فتستعرض المبادئ اللاهوتية اولاً، ثم بعدها وعلى نورها تتطرق الى بحث الحالات تاروحية ومظاهرها وسبلها، وتدرس أنواع الفضائل المتممة لها. وهذا يلزمه، كما لا يخفى، ثقافة عالية لاهوتية، لا شأن لنا بها في كتابنا هذا.

فنحن نعتمد اذن الطريقة الأولى، ونبحث في الفضائل المسيحية وكيفية القيام بها، لنصل الى ما نبغيه من الكمال المسيحي بممارستها.

ꕥꕥꕥ

وقد دعونا كتابنا هذا كتاب "**الأخلاق المسيحية**" لانه لا يحوي خلاصة الآداب المسيحية. فهو موجز للتعاليم الانجيلية والوصايا الكنسية. فمن رغب في ما دعا اليه الفادي الالهي من جميل الاخلاق، وما تعلمه الكنيسة من روائع الآداب، فليتصفح هذا الكتاب، فإنه يجد فيه صورة مصغرة، ولكنها صادقة كاملة، للآداب المسيحية بما فيها من معانٍ سامية، واغراض نبيلة، ومرامٍ شريفة. ويرى أن في اتباعها عظمة وسعادة الدنيا الآخرة. فإن كل ما فيها هو فلسفة حقة عميقة، وعلم رائع للألوهة كما هي بفخامتها وجلالها وحنانها ورحمتها، وبيان صادق للبشرية بطبائعها ونزعتها، وضعفها

[٢] غلاطية ٢:٢٠
[٣] Ad. Tanqueray: Précis…,pp. 397- 407
[٤] Pratique de la perfection chrétienne.
[٥] Introdution à la vie e aux verlus chretiennes.
[٦] Le Saint prêtre.
[٧] Ad. Tanqueray: Précis…,pp.22-30.

وقوتها، ونقائصها وكمالاتها، وما يُطلب منها لتصل إلى الغاية القصوى السماوية التي وضعها الله لها، ورفعها بجوده وفضله إلى سموها وبهائها. فيقف بذلك على ما يترتب عليه من واجبات، وعلى ما له من حقوق في علاقاته مع خالقه ومخلصه، وفي معاملته مع قريبه وفي سلوكه مع نفسه، ويعلم أن الطريق السوي هو المسيح الذي "هو الطريق والحق والحياة".[1]

فالمسيحي يجد في هذا الكتاب التعليم الصحيح للفضائل المسيحية. فيبدو له بوضوح أن هذه الفضائل هي زينة حياتها وبهجتها، وأنه لا معنى للحياة البشرية إلا بها، وأنها هي لو ولذويه وللمحيط الذي يعيش فيه مجلبة الغبطة في دنياه، وستضحي له سبب السعادة السماوية الدائمة في الآخرة.

والكاهن يستعيد إلى ذاكرته وقلبه، لدى مطالعته لهذا الكتاب ما سبق له أ، تعلمه وحفظه ومارسه من الثقافة اللاهوتية الأدبية والعلوم الروحية؛ فينعش به الشيء الكثير من معافه الكهنوتية ومن عواطفه التقوية. ويكون له هذا المؤلف الصغير المعين الكبير، في خصوصياته، وفي موعظه، وفي ارشاد النفوس الموكولة إلى عنايته.

ولا بأس لغير المسيحي أن يتصفحه. فإنه يستعرض في طياتهِ اجمل مجموعة من المبادئ الانجيلية، والفرائض المسيحية. فيتحقق من سمو تعاليمنا ومما احدثته فلسفتنا الروحية والأدبية من التأثير العظيم، على ممر العصور، في حياة وتاريخ البشرية.

وقبل أن نبدأ، لا بد لنا من أن نصدر الكلام ببعض ابحاث تمهيدية تسهّل فهم الموضوع وحسن الالمام به، والله الموفق إلى الصواب.

في ٨ أيلول ١٩٤٣ **الاشمندريت ميخائيل عساف**

[1] يوحنا ١٤:٦

بحوث تمهيدية

البحث الأول

نظرة عامة في أصحاب الفضائل المسيحية

إن القديسة تريزيا الأفيلية، من حملة الإعلام العليا في التعاليم الروحية، تصف حالة المؤمنين المتقدمين في الفضيلة فتقول: "أنهم يحرصون الحرص كله على أن يمتنعوا عن كل ما من شأنه أن يهين العزة الإلهية، لا بل يحاذرون أن يستسلموا حتى للخطايا الخفيفة؛ ويرغبون في أنواع التكفير وطرقه؛ ولهم أوقات معيَّنة يحافظون فيها على الصمت، ويتفرغون للتأمل؛ وهم لا يضعون شيئاً من أوقاتهم، ويعكفون على ممارسة أعمال الرحمة نحو الناس، ويسيرون بانتظام دقيق في حياتهم بكل ما هو من حديثهم ولبوسهم وإدارة بيوتهم، إذا كانوا من أرباب البيوت". [1]

فما تقدم يظهر بأجلى بيان أن الذين يرغبون في اقتفاء أثر السيد المسيح، والاسترشاد بتعاليمه ومثله، عليهم أن يمارسوا الفضائل التي أوصى بها، ودعا إليها، وكان هو المثل الأعلى لها. لذلك كان لا بد لهم:

أولاً: من الحصول على شيء من نقاوة القلب ليستسهلوا بها عادة اتحادهم مع السيد المسيح. وهذا لا يمكنهم الوصول إليه إلا بأفعال الفضائل التي يدعو إليها هذا المعلم الإلهي. فالنفس التي ما زالت عرضة للسقوط من حين إلى حين، بل ربما تستسلم للخطايا الثقيلة أيضاً، عليه بادئ بدء أن تبذل الجهود الكافية لتتحرر من هذه الخطايا، وأن تبتعد عن أسبابها، وأن تقاوم ميول الطبيعة الخبيثة الساقطة، وأن تصمد للتجارب المتنوعة. وعندما تكون قد فرغت من هذا كله واستتبت لها أداة الأمان والاطمئنان، يسوغ لها أن تتفرغ إذ ذاك للجهة الإيجابية في الحياة الروحية، أعني لأفعال الفضائل المسيحية. ثم لا بد لها فوق ذلك من مقاومة عادة الخطايا العريضة التي تستسلم إليها برضاها واختيارها. لأن ذلك مما يعوق سيرها وتقدمها.

ثانياً: لا بد لهم أيضاً من أن يكونوا قد تشبعوا من التعاليم الإنجيلية، وملأوا أذهانهم من حقائق العقائد المسيحية، فيستهلون عادة التأمل العقلي المحلى بالعواطف الروحية، ويتعاطون بارتياح الصلاة القبيلة، فيكون لهم ذلك من أنجع الوسائل لممارسة أعمال الفضائل المسيحية.

ولكن ماذا نبغي، يا ترى، من وراء ممارسة هذه الفضائل؟ وأن رغبتنا الكبرى في حياتنا يجب أن تكون السعي الحثيث للتشبه بالسيد المسيح، لنطبع حياتنا بطابع حياته الإلهية، فيصبح هو محور أفكارنا وأعمالنا وعواطفنا.

ولذلك نقبل على قراءة الإنجيل بتؤدة وشغف، ونستوعب معانيه الإلهية، ونملأ أذهاننا من رسومه وتعاليمه وفلسفته، فنجد فيه الطريق والحق والحياة، أعني السيد المسيح كاملاً بعظمته وتواضعه، وجماله وسخائه، وعذوبته وحنانه؛ فنتخذ معلماً ومثالاً وقائداً وصديقاً ومدبراً ومحسناً؛ ونحيا بحياته، ونتحلى بكمالاته، على قدر ما تمكننا طبيعتنا الناقصة الساقطة من اللحاق به؛ وعلى قدر ما يجود هو به علينا من نعم لنزداد اندفاعاً في سبيل مرضاته.

[1] Chateau de l'ame: troisième dem., ch. I, p. 82.

وبقدر ما تتوفر فينا معرفة هذا المعلم الإلهي والصديق الوفي، تضطرم فينا عواطف الشغف به وبشخصه وبتعاليمه وبفضائله، فنهتف إليه مع الرسل على الجبل: "حسن يا رب أن نكون ههنا"[1]. فعندما تمتلئ عقولنا وقلوبنا من حقيقة محبته لنا وشغفه بنا، ونعلم علم اليقين النيّر أنه هو الذي بادأنا بالمحبة فبذل ذاته الإلهية حباً لنا، تضطرم فينا عواطف الحب نحوه، ولا نلبث أن نذوب في محبته، وأن نكون على تمام الهبة لبذل دمائنا بفرح وشكر محبةً له. لأن الحب ينادي الحب، والحبيب يتوق إلى التمثل بحبيبة.

أما طريقة الوصول إلى هذه النهاية السامية والأعمال الشريفة أولاً بالصلاة والتضرع؛ ثم بالتأمل الروحي، ولا سيما بالتأمل المشَبع بالعاطفة القلبية؛ وأخيراً بممارسة أفعال الفضائل المسيحية الإلهية والأدبية. ألا ‘ن بحثنا الآن لا يتناول سولا الكلام عن الفضائل، بصرف النظر عمّا سواها من الوسائل. لكننا سوف نذيّله بكلمة موجزة عن الصلاة وعن مفاعيلها العجيبة.

ꕥꕥꕥ

وقبل أن نبدأ بالكلام عن كلٍّ من هذه الفضائل الإلهية والأدبية بمفردها، لا بدّ لنا من بعض البيان المجمل عنها. فنقول:

أن الفضائل الإلهية والفضائل الأدبية تسير دائماً معاً جنباً إلى جنب. مثال ذلك أنه لا يمكننا أن نمارس الفطنة المسيحية من غير أن نجعل لها فضيلة الإيمان أساساً ونبراساً. كما أن فضيلتي الإيمان والرجاء يعسر عليهما أن تلمعا في نفوسنا إذا ما كانت الفطنة مشايعة لهما، تسير في ركابهما.

ولا بد للمبتدئين في الحياة الروحية من أن يروضوا نفوسهم أولاً على أفعل الفضائل الأدبية، نظير القناعة والشجاعة اللتين من شأنهما أن تهاجما ألدَّ أعدائنا فتكاُ بنا ومضرةً لنا، أعني العُجب والصلف والشهوة وما إليها. فإذا ما أتيح لهم الطفر على هذه الرذائل، وقمع جماحها وإخضاعها للفضائل الأدبية المقابلة لها، تسنى حينئذٍ لهم أن يلتفتوا إلى الفضائل الإلهية ويتخذوها قاعدة لحياتهم وأعمالهم.

ولكي ندرك بجلاءٍ معنى ما تقدم، ينبغي أن نبين بماذا تفترق الفضائل الإلهية عن الفضائل الأدبية، بعد أن سبق لنا وقلنا كيف تتصل هذه بتلك وتسير كلها معاً صفواً متحدة.

إن موضوع الفضائل الإلهية هو الله ذاته، وأن الغاية التي تنشدها هي إحدى صفاته تعالى الإلهية. مثال ذلك أني أومن بالله لأنه هو الحق الأزلي الكامل، وأحبه لأنه كامل الجمال والحنان. فبهذه الأفعال أرفع عقلي وقلبي مباشرة إلى الله عزَّ وجلَّ، وأكرّم بالإيمان صدقة، وبالمحبة جماله وحنانه ورحمته.

أما موضوع الفضائل الأدبية فهو بنفسه خير زمني، وغايتها هو الشيء الصالح الحسن. خذ لك مثالاً فضيلة العدل: فغن موضوعها هو المساواة بين البشر، فنعطي كل ذي حقٍ حقه. وغايتها هي ما في هذه المساواة من حُسن وصلاح. إلا أننا إذا ما مارسنا العدل إطاعة لأوامر الله، تصبح لنا فضيلة العدل درجة من سلم الفضائل الأدبية، نرتقي بها

[1] لوقا، ٩: ٣٣.

إلى الله. وهكذا نسعى وراء العدل لأن الله يأمر به، ولأنه هو تعالى العادل الأول الأكبر الذي ليس عنده محاباة للوجوه.– وهكذا أيضاً نبغي الفطنة لأنه هو تعالى مصدر كل غبطة، وينبوع كل خير ولذة.

فلما كانت الفضائل الأدبية هي طريق الفضائل الإلهية فإنا نبدأ كلامنا بها؛ وبعدها نبحث في الفضائل الإلهية، وأن تكن هذه أفضل من تلك، وأسمى وأكمل.

ﮔﮔﮔ

وختاماً لهذا البحث الأول نقول كلمة فيما نرى من الفرق ما بين النفوس التقية العادية والنفوس التقية الحارة.

فالنفوس التقية العادية هي التي لا تنقصها الاستعدادات الحسنة، ولا الجهود الصادقة في محاربة الهواء، وفي الهرب من الخطايا المفعولة بانتباه ورضى، إلا أنها لا تزال تستسلم لكثير من النقائض عن ضعف عزم وقلة نشاط. فهي لا تبرح تعتمد على قوتها ومضاء عزيمتها؛ ولا تأنف من العجب بنفسها ومن التمسك بشيء من التيه والخيلاء؛ وتنفر من التوكل الكامل الشامل على الله، ومن تسليم مقاليد أمورها بين يديه. وتتأفف من مصاعب الحياة، وتتراخى أمام الشدائد، وتتردَّد ما بين الصبر والتذمر. وهي وإن عزمت عزماً صادقاً على خوص معارك الحياة الروحية بنشاط وثبات، إلا أنها لا تلبث أن تتقاعس، وتنسى مقاصدها، وتترك ما وعدت به، أو لا تقوم إلا بإتمام بعضه. فمثل هذه النفوس لا يكون سيرها في طريق الكمال المسيحي إلا بطيئاً. ولكي تتحرر من هذا التواني، وتبعث في صميمها روح الإيمان والنشاط، عليها بالإقبال على الفضائل التي من شأنها أن تثير قواها وتثبتها، نظير الشجاعة والتواضع.

أما النفوس الحارة التي تمتاز بتواضع أكثر وسخاء أكرم. لا تعتمد على مؤهلاتها بل على الله الذي منه كل نعمة وكل قوة وكل خير وبركة. وهي قد تعودت أن تفكر بذاتها، وأن تصبر على المكاره، وأن تصمد أمام الشدائد، وأن تثبت وقت التجربة. إلا أنها لم تصل بعد إلى درجة الكمال في التجرد والتصبر والاحتمال. تصبر بلهف إلى الكمال؛ إلا أن همتها ضعيفة بسبب ما ينقصها بعد من عادة حمل الصليب. وهي تستسيغ العذوبات الروحية بإفراط وتؤثرها على الصبر وقمع النفس والتلذذ بالبلوى. تبدأ يومها بالصلاة ةالتأمل، وتعاهد الله بأن تكون له بكليتها نهارها كله، مهما تقلبت عليها ظروف الزمان وصروفه؛ لكنها لا تلبث أن تستسلم للوهن، لأن جهودها لا تزال قليلة ناقصة؛ تحب الله محبة صادقة، ولأجل حبها له تعالى تحاذر أن تتعرض للمواقف الخطرة؛ لكنها تتساءل في التلذذ بكل ما تسمح به الوصايا الإلهية والكنسية، وبما لا يقودها إلى الخطيئة. فتحب الأهل مثلاً حباً مفرطاً، وتأبى أن تضحي بشيء من مظاهر حبها لهم؛ أو تتعلق بأصدقائها وتغالي في تعلقها بهم؛ أو تسارع وراء العذوبات الروحية ولا تريد عنها بديلاً. فهذا وما شابهه، وإن كان لا يخرج عن حدود الناموس والشريعة، فهو دليل على ضعف التجرد، ويعيق كثيراً تلك النفوس في اتحادها الكامل مع الله.

وفي بحثنا الآتي عن الفضائل سوف لا نفرق بين هذه الطغمة وتلك من النفوس التقية الحارة والنفوس التقية العادية. فعلى المرشد الفطن أن يتنبه إلى أحوال النفوس الموكلة إلى عنايته، ويهديها إلى ما ينفعها من الفضائل المسيحية في مختلف حالاتها النفسية.

البحث الثاني

في الفضائل المسيحية الموهوبة[1]

لما كان الله بفضله وعطفه قد رفعنا إلى حالة روحية تسمو على حالتنا الطبيعية، وأرادنا للسماويات يدل أن نبقى للأرضيات، ودعانا إلى متعة وغبطة في ملكوته لا تقاس سمواً وكمالاً وعُلى لما تستطيع طبيعتنا ورغائبنا البشرية أن تصبو إليه، كان لا بد له من أن يهيئ لنا قوى تتناسب مع هذه الحالة الفائقة الطبيعية التي أرادها لنا ودعانا إليها. وكما أن دعوته لنا إلى الحالة السماوية الفائقة الطبيعية هي مجانية وصادرة عن محض إرادته وجوده وحنانه، من غير أن يكون لنا حق طبيعي في مطالبته بها، كانت القوى الفائقة الطبيعية التي ترفعنا إليه هي أيضاً صادرة منه ومن فضلهِ وتنازله. لذلك يدعوها اللاهوتيون "موهوبة" (VERTUS INFUSEE).

والمجتمع التريدنتيني يعلم أنه من المؤكد أن الله جلت حكمته عندما يفيض النعمة المبررة في نفوسنا يهبنا معها الفضائل الإلهية الثلاث: الإيمان والرجاء والمحبة. أما فيما يختص بالفضائل الأدبية "الموهوبة"، أعني الفطنة والعدل والشجاعة والقناعة وما إليها، فإن الاعتقاد العام المقبول في الكنيسة هو ان الله يجود بها علينا أيضاً ويفيضها في نفوسنا مع النعمة المبررة نظير الفضائل الإلهية.

وأما عن كيفية فعل هذه الفضائل في نفوسنا فإن علم اللاهوت يقول[1]: إن الفضائل الثلاث الأولى تدعى "الهية" لأن الله تعالى هو موضوعاها، ولأن إحدى صفاتهِ عزّ وجلّ هي غاية كل واحدة منها. فبالإيمان نتحد بالله بصفته هو الحق السامي الذي لا يغلط ولا يمكه أن يضللنا، وبكونه ينحدر إلينا فينير أذهاننا لننظر إلى الأمور ونحكم فيها على ضوء أنواره الإلهية. — وبالرجاء نتحد أيضاً بالله بصفته ينبوع كل خير ومصدر كل صلاح، ولأنه على استعداد دائم ليمنحنا كل نعمة وكل موهبة، ولكونه فوق ذلك يحملنا بعذوبة على الاتكال عليه اتكال الطفل على حنان أبيه. — أما بالمحبة فإننا نصعد إلى الله ونتحد به بصفته كامل الوصاف المحبوبة، وفائقاً في ذاته كل كمال وكل جمال. وهو الذي يحملنا على الاغتباط لكمالاته كما لو كانت ملكاً لنا، وعلى الرغبة في أن تكون معروفة ومكرمة في الدنيا كلها. فنتحد به برباط الحب النبوي، ونتشبه به كل يوم أكثر فأكثر بفعل هذا الشوق القلبي. — فالفضائل الإلهية هي لنا حقّاً واسطة الاتحاد المباشر بالله عز وجلّ.

أما الفضائل الأدبية فإن موضوعها هو الشيء الحسن المليح. وغايتها هي الخير والصلاح. وهي تساعدنا على توجيه حياتنا إلى الله والاتحاد به تعالى، لأنه هو الغاية الأخيرة لكل عمل من أعمالنا رغم ما يتعرضنا من مصاعب لبلوغ هذه الغاية.

— فالفطنة تحملنا على اتخاذ أنجع الوسائل التي توصلنا إلى غايتنا القصوى السماوية.

— والعدل يدفعنا إلى تقديس حقوق الناس إكراماً لله المشترع العادل الأول.

---

[1] Verus infuses: St. Thomas, Iª IIa q. 55-67, IIª IIa, q. 48-170.

[1] Tanqueray: Prècis…, p 83, nº 121 – 122.

– والشجاعة تجعل في قلوبنا ما يلزمنا من القوة لمجابهة المصاعب والأخطار، وتسلحنا بالصبر وقت البلوى، وتدفعنا إلى القيام بواجباتنا مهما صعبت، وبسائر الأفعال الحسنة مهما تنوعت، رغبة منا في تمجيد الله وإكرامه والانقياد لأوامره وإلهاماته.

– والقناعة تلجم أميالنا المتطرفة عن الاسترسال في طلب الملذات، وتحفظنا في دائرة الواجب المقرر لها.

فالفضائل الأدبية تزيل المصاعب من طريقتنا وتسهل لنا سبيل الوصول إلى الله خالقنا وموضوع أمانينا. فما هي هذه الفضائل الأدبية، وما علاقة الفضائل المسيحية ببعضها؟

١ – الفضائل الأدبية الطبيعية والفضائل الأدبية الفائقة الطبيعية أو الموهوبة.

الفضائل الأدبية هي على نوعين: طبيعية وموهوبة. فالأولى مصدرها الطبيعة، وغايتها الفعل الحسن بقطع النظر عن التطلع على السماء وابتغاء وجه الله. مثال ذلك من يحسن إلى البائس لأنه أخوه بالبشرية؛ ومن يصبر على المكاره لأنه عار عليه أن يكون جباناً، ومن يقتنع بالكفاف من الأكل والشرب لأن في ذلك صحة البدن. فمثل هذه الأفعال هي أفعال فضائل طبيعية لا شأن لها مع الخير الأدبي السماوي. وإذا تكررت هذه الأفعال فإنها تنشئ في المرء عادات حسنة وملكات راسخة طيبة، يسهل بواسطتها السير في طريق الخير.

أما الفضائل الموهوبة فهي التي يفيضها الله بنعمته في قلوبنا فتحملنا على طلب وجهه الكريم في أعمالنا وعواطفنا، فتصبح غايتنا أسمى بما لا حد له من الغاية التي ترمي إليها الفضائل الطبيعية، فالبون شاسع ما بين القناعة التي يدعو إليها أرسطو مثلاً، مستنداً في ذلك إلى أنوار العقل والمنطق الفلسفي، سعياً وراء خير بشري زمني، وبين القناعة المسيحية التي تستمد نورها من الإيمان المسيحي، وتستوحي في نظامها وطرقها ومرادها التعليم الإنجيلي، وتسعى وراء خير سماوي إلهي أبدي.

ولا يتنافى مع طبيعة الفضائل "الموهوبة"، إن تشأ فينا بتكرار أفعالها عادات تصبح مكتسبة وملكات راسخة، يصير العلم بسببها سهلاً، لا بل مستحباً ولذيذاً. ولا جل ذلك فهي لا تضمحل مع اضمحلال النعمة معها وتروح معها. أما الفضائل المكتسبة فإنها تبقى ملازمة لنا حتى في حال الخطيئة المميتة، ولا يبيدها إلا أغضاؤنا عنها وإهمالنا ممارسة الأفعال المناسبة لها.

ولكي تدرك بوضوح كيفية ذلك نورد لكلامنا مثلاً قريب المأخذ: اعتماد القاضي يوحنا أن يقدس العدل وأن يعطي لكل ذي حق حقه، حتى صارت له فضيلة العدل طبيعة ثانية لا يحيد عنها. فإذا كانت نفسه في حالة البرارة كانت فضيلة العدل فيه موهوبة ومكتسبة معاً. فهي موهوبة لأنها ثمرة النعمة المبررة التي تزين نفسه، ولأنها تسهل له سبيله إلى الله بواسطة أفعالها التي يمارسها حبّاً له تعالى، ولأنها تصبح له ذات أجور سماوية. وهي مكتسبة لأن أفعال تصدر عنه بسهولة وارتياح العادة وبدافع العادة أو الملكة الراسخة فيه. "ونحن نعلم أن الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير"[١].

أما إذا سقط من النعمة بسبب الخطيئة المميتة فقد سقط من المحبة، وأيضاً من فضيلة العدل الموهوبة. أما فضيلة العدل المكتسبة فإنها تبقى ثابتة فيه ولو إلى حين. إلا أنه لا يبقى لأفعالها حق في الأجور السماوية، لأن النعمة المبررة هي التي تكيف أفعال الفضائل الأدبية وتكسبها ميزتها الفائقة الطبيعة، وتمكنها من كسب الأجور العلوية.

[١] رومية، ٨: ٢٨

٢- علاقة الفضائل المسيحية ببعضها.

إن الفضائل المسيحية، إلهية وأدبية، تواكب النعمة المبررة في حلها وترحالها وتعمل معها، ولا يمكن أن تستقلّ الواحدة عن الأخرى في كيانها ولا في عملها. والقول المأثور هو أن الفضائل في خدمتها ومساعدتها. ولما كانت فضيلة المحبة هي ملكة الفضائل كلها، فإن هذه تتبعها بانتظام كجورٍ لها. فهي كالشمس مع سياراتها أينما سارت أسرعن من حولها. ولزيادة الإيضاح نقول:

أولاً: لا ينكر أحد أن الفضيلة المحبة تشمل الفضائل كلها، إلهية وأدبية معاً. وكم أبدع القديس بولس في بيان ذلك إذ يقول في رسالته إلى أهل كورنثس: "لو كنت أنطق بالسنة الناس والملائكة ولم تكن فيَّ المحبة فإنما أنا نحاس يطن أو صنج يرن. ولو كان لي الإيمان كله حتى فلا أتنفع شيئاً. المحبة تتأنى وترفق. المحبة لا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ ولا تأتي قباحة ولا تلتمس ما هو لها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء. المحبة لا تسقط أبداً"[١].

فهذا معناه أن من طلب الله قبل كل شيء، وأحبّ الناس لأجله تعالى، فقد هيأ نفسه للقيام بأفعال كل فضيلة من الفضائل محبة لله. لأن من خاصة فضيلة المحبة أن توجه أعمالنا كلها إليه تعالى لكونه غايتنا القصوى السنية. وما هذه العمال سوى ممارسة الفضائل التابعة لها. ولقد حاء في كتاب حياة القديسة تريزيا الأفيلية في هذا المعنى ما نصه: "بقي علينا أن ننظر إلى فضائلها الأخرى، فإنها كانت شهباً مباركة متقدة بلهب نار واحدة، يؤججها سعير واحد، وهذا السعير هو حبها لله. فهذا الحب هو الذي بدأ فجردها من ذاتها، وأذلها بالتواضع، وذبحها بأفعال التكفير، وصبّ الغبطة في قلبها بالصبر عند أشد الشدائد، وحملها على تضحية حياتها وكيانها في سبيل القريب، وجعلها حقّا "ذبيحة فضيلة المحبة"، كما تترنم الكنيسة المقدسة في إكرامها لها"[٢].

إلا أن فضيلة المحبة هذه، ولو كانت ملكة الفضائل كلها، ولو أنها دفعت إرادتنا إلى ممارسة الأفعال المختصة بكل منها وسهلت لها طريقها، إلا أنها لا تكسبنا كمال وتأصل هذه الفضائل من غير جهودنا؛ فلا تتملكنا هذه الفضائل الأدبية ولا تصبح عادات متأصلة فينا إلا إذا عدنا مراراً وتكراراً إلى ممارسة الأفعال المختصة بكل واحدة منها. لأن فضيلة الفطنة مثلاً، أو التواضع، أو الوداعة، أو العفاف، أو الطاعة، الموهوبة لنا من الله مع النعمة المبررة لا تصبح فضائل مكتسبة وعادات سهلة لذيذة مستحبة إلا إذا اندفعنا كل يوم وكل آن في ممارسة أفعالها.

ثانياً: لما كانت فضيلة المحبة أساساً لسائر الفضائل الإلهية الأدبية فإنه لا يبقى لهذه ميزة ولا قوام غلا بها، فإذا ما فقدنا المحبة فقدنا معها فعل الفضائل كلها، ومعنى ذلك أنه لا يبقى ولا لواحدة منها حق في الأجور السماوية، حتى ولا لفضيلتي الإيمان والرجاء. بل تصبح أعمالها أعمالاً طبيعية بشرية أرضية. لأن من أرتد عن محبة الله بالخطيئة لا يعيده شيء إلى الله إلا المحبة. فإذا

---

[١] ١ كور، ١٣: ١-٨.

[٢] Histoire de Ste. Thèrèse, t, II, p.369.

ما هذه عادت، عادت معها سائر الفضائل، وتكيّفت بها، واستمدت منها صفتها الفائقة الطبيعة، واستحقت أجورها.

ثالثاً: إن الفضائل الأدبية المكتسبة المحلاة بطابع المحبة الإلهية، لا يمكننا أن نمتاز بأفعال واحدة منها إلا أن نعتمد على أخواتها مستعينين بها، مثال ذلك أن فضيلة الفطنة لا يمكنها أن تلمع في نفسنا وتشرق في حياتنا، من غير مواكبة الشجاعة والعدل والقناعة لها. وهكذا فضيلة العدل أيضاً فإنها لا تبرز وتجيد عملها إلا أن تكون الشجاعة والقناعة رفيقات لها.

أما إذا كانت الفضائل الأدبية فينا عاديّة، لا إشراق لها، ولا قوة لظهورها ولا دوام لعملها، فيمكنها إذ ذاك أن تتفرق عن بعضها، وأن تتفرد كل منها بعملها. فإن من الناس من يكون كريماً ولا يكون عادلاً، وذلك إذا كانت هذه الفضيلة فيه عادية، وكانت حالته الروحية ضئيلة فاترة.

البحث الثالث

عمل المسيح في حياتنا الروحية

نظر يسوع بعينه العطفى إلى الدنيا المتألمة الباكية، نظر إلى القلوب الكثيرة الكسيرة المتفجرة بالدموع، فرق لها ورقّ لحالها. وكما نحنن يوماً على الجموع التي كانت تتبعه في القفار المطلة على بحيرة طبريا وأشبعها خبزاً، تحنن أيضاً على النفوس العطشى إلى مياه الحقيقة والقوة والتعزية فأرواها من معين قلبه ودعاها إليه وقال:

"تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني أني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة أنفسكم. فإن نيري لين وحملي خفيف"[١].

تعليم سام، كلام إلهي سماوي، دواء شافٍ. هل جسر أحد قبل يسوع أو بعده أن يقول هذا القول، أو يعلم هذا التعليم!

المسيح وحده استطاع أن يدعو البشرية بشعوبها وعصورها إلى هذه الدعوة الرائعة، لأنه الكلمة، ابن الله، المعلم السماوي، الذي كلمته ليست قولاً يطنّ الآذان فحسب وضمحل، بل هي أيضاً فعل إلهي يحقق ما يقول. فهو المعلم الأكبر، وهو العامل الأكبر في حياتنا الروحية، وفي ممارستنا للفضائل المسيحية والكمالات الإنجيلية.

هذا وأن ما أردنا نبيّنه بوجيز الكلام قبل أن نشرع بدرس هذه الفضائل وهذه الكمالات هو[٢]:

المسيح يوّحد جهودنا الروحية وينظمها.

المسيح يجذبنا إليه بسحر تعاليمه وجمال مثله.

المسيه هو لنا مثل أعلى نصبو إليه ونلحق به صُعُداً.

أولاً: المسيح يوّحد جهودنا وينظمها.

كثيراً ما يخامر الأنفي التقية المتعبدة شيء من الخوف والقلق، ينتهي بها أحياناً إلى حد القنوط، عندما تستعرض مجموعة الفضائل المسيحية والعمال التقوية المفروضة عليها ممارستها. فتخور قواها وتتلاشى عزيمتها أمام تلك الواجبات العديدة المتنوعة.

ولكنها إذا ما تأملت في حياة يسوع، وتشعبت من تعاليم يسوع، وشُغفت بشخصيته الفريدة الفذة الحبيبة، هان عليها كل ما. فيصبح يسوع لها محور الحياة، وهدف الجهاد. وهو المبدأ والمرجع. فيوحد لها في شخصِه وفي حبه، كل عمل روحي، وكل جهاد سماوي.

حب يسوع هو خلاصة الفضائل المسيحية والأعمال التقوية والخلاق الإنجيلية. هو روح الحياة الروحية:

فما الفضيلة سوى التشبه بيسوع.

وما الإنجيل سوى تعاليم يسوع وحياة يسوع.

وما عبادة قلب يسوع سوى إكرامنا لمحبة يسوع ممثلة في قلبه الإنساني الحبيب.

وما القداس الإلهي سوى ذبيحة يسوع مكررة ذبيحة الصليب.

---

[١] متى، ١١: ٢٨-٢٩.

[٢] Ct. G. Hoornaert, S. J.: a Propos de l'Evangile, pp. 187 – 203.

وما التناول سوى تغذية نفوسنا بجسد ودم يسوع.

وما السماء سوى التمتع الأبدي بيسوع.

فيسوع هو كل شيء. هو الكل في الكل. الحياة الروحية كلها ليست سوى يسوع: "مهما أخذتم فيه من قول أو فعل فليكن باسم الرب يسوع المسيح"[1].

وما أحلى ما قال أحد الكتبة الروحيين من الآباء اليسوعيين: "ما الحياة الدنيا إلا طلبنا ليسوع. وما الحياة الأخرى إلا حظوتنا بيسوع".

فالديانة والتقوى والعبادة ليست قطعاً مفككة مبعثرة، يُضاف بعضها إلى بعض لتكوّن مجموعة عديدة أجزاؤها، مستقلة عن بعضها، بل هي حلقة واحدة تدور حول محور واحد وهو يسوع المسيح.

ومن عادة العلماء، بعد أن يتناولوا موضوعاً بالدرس والتنقيب، أن يضعوا له قاعدة موجزة تلخصه وتعبّر عنه. فلتكن قاعدتنا، نحن المسيحيين، التي تجمع لنا المعاني الروحية كلها، سيدنا يسوع المسيح.

ثانياً: المسيح يجذبنا إليه بسحر تعاليمه وجمال مثله.

فالتقوى لا تتوحد بالمسيح يسوع فحسب، بل تصبح به جذابة خلابة "وأنا إذا ارتفعت عن الأرض جذبت إليّ الجميع"[1].

في عرف المعلمين الروحيين طريقتان تسعيان إلى التقوى والعبادة: الأولى تدعو إلى الصبر والتواضع والرحمة والمحبة. وهي طريقة عقلية قلما تثير حماستنا وتضرم شواعرنا.- أما الثانية فإنها ترينا يسوع صبوراً، متواضعاً رحيماً، وديعاً، وتقول لنا: هكذا كان يسوع فاعملوا على مثاله. "تعلموا مني أني وديع ومتواضع القلب". فتصبح الفضيلة شيئاً محسوساً ملموساً بعد أن كانت فكراً عقلياً مجرداً. وقلما أثار الفكر المجرد عاطفة. أنا شخصية يسوع فتثير كامن العواطف.

قال بسكال المفكر الفرنسي الكبير: "لا عمل كبيراً إلا من رغبة كبرى". وقال أيضاً موريس باريس الشهير: "القوة الصحيحة في الرغبة المنظمة".

فإذا ما نظرنا إلى يسوع، إلى يسوع الإنسان، يحيا ويصلي ويأكل ويشرب ويتعب ويصبر، ويضحي بكل ما لديه في سبيل غيره، ويسوع فوق المطامع، ويتنزه عن الصغائر، ويرأف بالضعفاء، ويشبع الفقراء، ويشفي أصحاب العلل الروحية والزمانية، يضطرم قلبنا شغفاً به، ونؤخذ بسحره فنقدم على عظائم الأمور حباً له.

- "إن حبك أطيب من الخمر.

ادهانك طيبة العرف.

واسمك دهن مهراق.

فلذلك أحبتك العذارى"[2].

- "اجذبني وراءك فنجري.

---

[1] كولسي ٣: ١٧.
[1] يوحنا ١٢:٣٢
[2] نشيد ١:١و٢

فنبتهج بك ونفرح.
ذاكرين حبك الذي هو أطيب من الخمرة".
– "اجعلني كخاتم ... على قلبك.
فإن المحبة قوية كالموت"[٣].

وهكذا لا تبدو الديانة المسيحية باردة عبوساً، دأبها أن تأمر وتنهى بل تتراءى لنا طيبة خلابة جذابة، في شخص كله سحر ولطف ووداعة وإيناس.

لذا قال بولس الرسول: "ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم حتى إذا تأصلتم في المحبة تستطيعون أن تدركوا مع جميع القديسين ما العرض والطول والعلو والعمق وأن تعرفوا محبة المسيح التي تفوق المعرفة. إلى أن ننتهي جميعاً إلى وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل إلى مقدرة قامة ملء المسيح"[١].

وهذا ما حمل بولس الرسول على أن يضطرم حبّاً ليسوع، لشخصية يسوع الفريدة الخلابة حتى قال عنه فم الذهب: "قلب بولس قلب يسوع. أليس هو القائل: "أعد كل شيء خسراناً لأجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي لأجله خسرت الأشياء كلها وأَعدّها أقداراً لأربح المسيح. الذي جُعلت أنا خادمه على حسب موهبة نعمة الله المعطاة لي بعمل قوته. لي أنا أصغر القديسن جميعاً أعطيت هذه النعمة أن أبشر في الأمم بغنى المسيح الذي لا يستقصى"[٢].

وهكذا أُخِذ القديسون بحب يسوع واستسهلوا في سبيله كل صعب. قال القديس برنزدوس: "إني وجدت قلب ملكي وأخي وصديقي"[٣]. وقال أيضاً: "مهما كتبتم فلا لذة لي في قراءته إلا أن اقرأ فيه اسم يسوع. يسوع هو العسل في الفم، هو النغم العذب في الأذن، هو الغبطة في القلب"[٤].

وأن هذا التعلق بشخصية يسوع ليس وقفاً على أولياء الله من الرسل والقديسين، بل هو نصيب الألوف من النفوس والقلوب المسيحية نساء ورجالاً. فهذا أحد الباريسيين يترنم باسم يسوع ويشمل بذكر يسوع ويقول وقد أخذته النشوة: "أنتم، يا فلاسفة الدنيا، لا يمكنكم أن تفقهوا مقدار حُبنا له، ولا أن تعرفوا من هو بالنسبة لنا. إننا نراه دائماً حاضراً أمامنا، كأنّ يده على كتفنا. هو رفيقنا وقت العمل وسميرنا وقت الراحة. يصعد معنا على المنابر، ويقيم معنا في المخازن، ويجلس معنا على المائدة، ويحرسنا في أسرتنا. لأن كل من آمن بالمسيح يحيا مع المسيح ويعيش بحضرة المسيح. بدون أين هي وما هي شياطين الشعراء، والهامات الأدباء والخطباء، ونفائس ولذائذ الحياة! سيري سيري واذهبي! وأنتِ أنتِ أيضاً، يا لواعج الغرام البريء المقدس، توارَي. فلا الشعر ولا الحب ولا الجمال يقدر أن يثير فينا ما تثيره عواطف الحب الحقيقي القلبي لشخص يسوع المسيح"[٥].

وهذا بول فيغال، الأديب الفرنسي الكبير، يكتب هذه السطور الرائعة بعد أن تاب ورجع إلى الله: "يا يسوع المخلص، أيها الرسول الدائم العمل، غني أشكرك. أضم يديّ وأشكرك. بل ها أنا أمسك عن الكتابة وارتمي أمام صورة

---

[٣] نشيد١:٣و٨:٦
[١] افسس، ٣: ٧-١٩ و ٤: ١٣.
[٢] فيلي، ٣: ٨. وأفسس، ٣: ٧.
[٣] ق. برنردوس، العظة ٣ في الآلام
[٤] ق. برنردوس، العظة ١٥ على سفر النشيد.
[٥] Cochin: Espérance chrétiennne, p. 339

قلبك، والعيون ملأى بدموع ثمينة، لأسجد لك يا مخلصي، يا مخلصي الإلهي. يا يسوع المصلوب، يا يسوع الناهض من الأموات، يا يسوع ابن مريم، يا ملكي، يا سيدي، يا أبي، يا إلهي، يا كل شيء لي، إني احبك".

وكتب الخطيب الشعير لاكوردير يقول: "يسوع هو إله وإنسان معاً. فهو كإله لا حد لسلطانه، وكإنسان لا مثيل للطفه. فالإله يؤله الإنسان، والإنسان يؤنّس الإله. والاتحاد بينهما وثيق لا ينفصل. فلذلك نعبده عبادة لم ينلها سواه، عبادة عذابة، عبادة نقية، عبادة عميقة، لا يستطيع أحد أن يسبر غورها. فهو الذي قرن العظمة بالوداعة، والقوة باللين، فأخرج منها رحيقاً كنا نصبو إليه ونحن نجهله. وكل من ذاق هذه الكأس ولو مرة في الحياة، أيام الرجولة، يعلم أني أقول الحق، وأن هذه الكأس نشوة ليس بعدها نشوة"[١].

ويختم الكاتب المعروف لويس فويو كتابه "من هنا ومن هناك"[٢]. بعد أن استعرض جميع الفضائل والكمالات بقوله: "'ن هذه الكمالات كلها ليست جسداً وصارت قريبة منا، وظهرت رائعة البهاء، ودُعيت: يسوع المسيح".

– والإنسان في كل حقبة من سني حياته يجد في شخص المسيح يسوع، جمالاً خاصاً يأسر لبه وينعش قلبه"

فالطفل يفرح، وهو على ذراعي والدته بأن يبدأ فيتلفظ باسم يسوع. ويعمل على إرضاء يسوع. وغبطته الكبرى، على أيام عيد الميلاد، في أن ينصب المغارة احتفاء بولادة يسوع.

والشباب ينظر إلى يسوع شاباً وينضم إليه. ويعمل أن يسوع يحب الشباب. فإنه لقي يوماً شاباً كريماً فأحبه.

أما الرجل فيعجبه في يسوع قدرته وسلطانه، وقوة أخلاقه، وتأثيره على الجموع، وعطفه على الضعفاء، وعظمته المتواضعة القريبة من القلوب والعقول.

والشيخ الهرم يجد هو أيضاً في يسوع عكازه وآماله والركن الثابت الذي يلجأ إليه بعد أن خانته الأركان وتلاشت الدنيا، أو كادت، من أما عينيه.

"يا إله سريري، كن إله قبري ومصيري"[٣].

فالمسيح هو صديق الكل، ورفيق الكل، وفرح الكل، وإليه يجذب الكل. وهو مثال الكل. لا بل هو المثل الأعلى للكل.

ثالثاً: المسيح المثل الأعلى للكل.

المثل العلى هو أسمى ما نراه أو نتخيله فنصبو إليه في الحياة.

إلا أنه غالباً ما يكون خيالاً بعيداً لا ندري ما هي حقيقته وشأنه وكمالاته.

أما يسوع فهو المثل الأعلى، الحق المكمل الكامل، القريب من الناس، الظاهر للعيان بلحمه ودمه وكلامه وعمله. فما الفضيلة إلا التشبه به. وما الكمال الإنساني والكمال الروحاني إلا العمل على الصعود إليه في قمته.

---

[١] Lacordaire: Letters á un jeune home.

[٢] Louis Veuillot: Cá el lá.

[٣] O Dieu de mon berceau sois celui de ma tombe. (Lamartine)

إن أبدع كتاب خرج من قلم إنسان يُسمى: "كتاب الاقتداء بالمسيح". فما القداسة إلا تعليم يسوع وأعمال يسوع، وما القديسون والأولياء إلا من تتلمذ ليسوع. وما أبدع ما جاهز به يوماً الكتاب الكبير رينه بازان (Rene Bazin) في الندوة الأدبية الفرنسية لما خطب في الجائزة المخصصة للفضيلة، وتكلم عن الذين شرفوا البشرية بحياتهم إذ قال: "في أعماق كل واحد من هؤلاء أرى صورة تارة واضحة باهته، ألا إنها دائماً معروفة ألا وهي صورة الرب المعلم، هذا المعلم الذي أدعوه، وقلبي يطفح بهجة وحبوراً، ويدعوه معي الملايين من الأحياء والربوات من الموات: سيدنا يسوع المسيح".

المسيح هو أروع صورة للجمال الأدبي الكامل. فالقرب منه بهاء وكمال وعاوّ في المكارم، وعظمة نفس، وسمو دائم. والابتعاد عنه الخطاط وتقهقر وأنانية ومطامع ومفاسد.

فالحياة الأثيمة هي التي تخلو من يسوع.

والحياة العادّية هي التي فيها القليل من يسوع.

والحياة السامية هي الملأى من يسوع. "ومن امتلائه أخذنا نعمة"[١].

أنه لا بد لا من مثل أعلى. لأن الحياة إنما هي جهاد واستشهاد. وما مثلنا الأعلى إلا يسوع المسيح. فهذا بولس الرسول الذي امتلأ من يسوع المسيح لا يقول فقط تشبهوا بيسوع المسيح، بل "البسوا الرب يسوع المسيح"[٢]، ولاهل فيلي يقول: "ليكن فيكم من الأفكار والأخلاق ما هو في المسيح يسوع"[٣].

فإذا ما لبس الإنسان المسيح وتحلّى بأخلاق المسيح تسنّى له أن يقول على مثال بولس الرسول: "أنا حيّ، لا أنا، بل إنما المسيح حيّ فيّ"[٤].

ولماذا كل هذا؟ لأن الرب يسوع هو، كإنسان، أسمى رجل ظهر على وجه البسيطة. هو فريد بين الأنام كلهم ولا مثيل له في تاريخ البشرية[٥].

قال هارناك: "لقد أضحى المسيح الأساس الوحيد لكل مدينة أدبية. وبقدر ما تتجلّى في دنيانا صورة المسيح أو تختفي، تتقدم المدينة الأدبية في الشعوب أو تتأخر".[١]

وقال جوته الفيلسوف الألماني الشهير: "أن المسيح هو المثال للناس كلهم"[٢].

ولكن هل يوسعنا أن نحقق في حياتنا هذا المثل الأعلى؟

نعم، بل لا بد لنا من أن نسعى إلى تحقيقه.

"إني أعطيتكم قدوة حتى أنكم كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً"[٣].

"أعطيكم وصية جديدة أن يحب بعضكم بعضاً وأن يكون حبكم بعضكم لبعض كما أحببتكم أنا"[٤].

فالمسيح هو مثالنا ويرد منا أن نسير في أثره:

---

[١] يوحنا، ١: ١٦.
[٢] رومية، ١٣: ١٤.
[٣] فيلي، ٢: ٥.
[٤] غلاطية، ٢: ٢٠.
[٥] Strauss: Vie de Jèsus. t. II, p. 729.
[١] Haranch: Das Wesen des Christentums, edit. 1908, pp. 1, 11, 78.
[٢] Goeth: Entertiens avec Eecherman, III[e] V., p. 371.
[٣] يوحنا، ١٣: ١٥.
[٤] يوحنا، ١٣: ٣٤.

هو مثالنا في الصلاة.
هو مثالنا في الطاعة.
هو مثالنا في احتمال الآلام وفي استقبال الموت.
هو مثال العمال، كان عاملاً.
هو مثال الرسل، كان رسولاً.
هو مثال الكهنة، فهو الكاهن الأعظم.
هو مثال التعبين والثقلين الحمل: حمل صليب الحياة الشاقة وصليب الجلجلة.
هو مثال المنتصرين الناجحين، فهو الناهض مظفراً من القبر.
ولكن ما هي الكمالات التي يجب ان يتحلى بها المثل الأعلى ليكون حقّاً مثلاً أعلى؟
لا بد للمثل الأعلى من كمالات أربعة:
كمال العقل،
وكمال القلب،
وكمال الإرادة،
وكمال القداسة.

ولقد جمع يسوع في شخصه هذه الكمالات الأربعة كلها إلى حدٍّ يفوق كل بغية بل كل تصور.

١. أما عقله فهو النور النقي الساطع الضياء. لا طل فيه ولا ظلام، ولا تردد ولا تناقص، ولا تخمين ولا تراجع. بل ضياء كامل شامل وثقة تامة بنفسه وبمعارفه وبتعليمه: "وكان يعلمهم كمن له سلطان وليس ككتبتهم"[١].

تسمعه فيسحرك تعليمه ولكنه لا يبهرك، بل يملأك نوراً ونسوة وارتياحاً ببساطته الطبيعية رغم سموه. إن الدنيا لم تشاهد ولم تسمع معلماً، ولا فيلسوفاً، ولا رسولاً واثقاً من نفسه كالمسيح، سامياً في تعليمه كالمسيح، بسيطاً في كلامه كالمسيح بتلك البساطة الصافية التي تحمل طابع الألوهة. يعرف القلب البشري كما هو لأنه هو صنعه. وينظر بعين هادئة سماوية عالية إلى مقدرات البشرية وإلى حياة الأمم والدول فيتحدث عنها كما يتحدث العامل عن عمله، والقائم على قمة جبل عما يراه من حوله. ويرى أورشليم وقد أحاطت بها الأعداء، فيبكي عليها كأن الجيوش الرومانية قد أحاطت بها وبدأت تهاجمها. يرى الشعوب تثور على بعضها، والدنيا تتلاشى، والبشرية تجتمع عند قدميه في مشهد رائع عظيم مخيف لتسمع حكمه النهائي عليها بالسعادة أو بالشقاء إلى الأبد. فيصف ذلك بكلام جمع الروعة العميقة إلى البساطة النادرة.

٢. أما القلب، قلب يسوع، فهو الطيّب الذي يعطر الدنيا ويملأها حناناً ورحمة. ولا يأنف من القلوب القذرة وهو النقاوة السماوية، ولا يشمئز من النفوس العاديّة وهو ينبوع النبل والسخاء والشرف، ولا يستحقر الهمم الضعيفة وهو رفيع القوي. عاش مع الخطأ ولم يستطع ألدّ أعدائه أن يدلوا عليه بهفوة. لقد هاجموه في كل شيء إلا في نقاوة قلبه وطهارة حياته.

[١] مرقس، ١: ٢٢.

وهذا القلب المثالي كم صنع قلوباً شبيهةً به. هو الذي أبدع قلوب العذارى النقية، وقلوب الرهبان والراهبات الملائكية، وقلوب الملايين من المسيحيين الذين بنقاوة سيرتهم وبهاء حياتهم، كانوا وبقوا شرفاً ومجداً للبشرية.

٣. وإذا ذكرنا الإرادة في يسوع تراءت لنا تلك القوى الجبارة التي لا يعتريها وهن ولا ضعف ولا تقلقل ولا تلون. فهي القوية الوديعة. تبقى هادئة أمام الانتصار، أمام حماسة وهتاف الجماهير يوم الشعانين، ويوم أرادوا أن ينادوا به ملكاً عليهم. وهي الصبور على النقائض والمطامع في تلاميذه، وعلى الشراسة والأحقاد في أعدائه. وهي الصامتة الكريمة الجليدة أمام الوثاق والبصاق واللطم والسياط، وأكليل الشوك والقصبة، والسخرية والشتيمة، والمسامير الوصليب، والتهكم وهزّ الرؤوس، وتهقهة التشفي وكبرياء الانتصار.

فالبشرية لم تشجل في تاريخها غرادة جبارة وديعة، قوية هادئة، صافية رائعة مثل إرادة يسوع.

فيسوع هو حقّاً الإنسان المثالي، الأوحد البهي الجمال، الفائق النقاء، الكامل الكمالات، أجمل زهرة واشتهى ثمرة خرجت من جذع البشرية. بل هو الريحانة الوحيدة والزنبقة الفريدة الكاملة الحسن والبهاء.

٤. وإذا ما تأملنا قداسته، قداسة حياته، وقداسة تعليمه، وقداسة أعماله، نراه القدوس الذي عنده تنتهي كل نقاوة وكل طهارة وكل كمال للنفس، وكل إشراق الفضيلة، إلهية وأدبية.

من يستطيع أن يضاهيه أو أن يقاربه في قداسته. إنك لا تجد قديساً و نبياً ولا رسولاً ولا عذراء – ما عدا مريم البتول – إلا وقد أخطأ أما العلي. أليس أن بولس الرسول ذاته يقول عن نفسه أنه أول الخطأة، وهو النار المتقدة غيرة رسولية. أما يسوع المسيح فإنه يتحدى أعداءه ويقول: "من منكم يقدر أن يثبت عليّ خطيئة"[١].

سنين عديدة قضاها يسوع في الناصرة، وحضر العرس في قانا الجليل، وطاف في كل المدن والقرى حتى تخوم صور وصيدا، وجالس الخطأة وأكل معهم، وترك المجدلية تقبل قدميه ودموع الندامة والحب تفيض من عينيها ومن شعرها، وجلي على البئر يحادث السامرية، ودافع عن الزانية، ودعا الأولاد إليه وقام يعانقهم ويقبلهم، ورغم ذلك كله استطاع أن يتحدى أعداءه ويقول لهم: "من منكم يقدر أن يثبت عليّ خطيئة". وما ذلك إلا أنه القدوس، ينبوع كل طهر، بل القداسة المستجدة ذاتها.

وهذه القداسة أعطاها مثالاً للدنيا لتنسج على منوالها. هل ذكر التاريخ يوماً رجلاً جعل قداسته أساساً للديانة التي يبشر بها؟ يسوع المسيح هو وحده هذا الرجل.

وقداسة المسيح ليست سابية، بل هي القداسة الإيجابية العملية الكبرى. هي مجموعة الفضائل والأخلاق الكاملة السماوية والأرضية. فهو سماء فسيحة كل فضيلة نجمة متألقة فيها. فلا تزاحم فضيلة فضيلة، ولا تتنافى معها، ولو كانت

[١] يوحنا، ٨: ٤٦.

من أضدادها. كان يسوع رصيناً وكان حنوناً. كان متقشفاً صوماً وكان يحضر الولائم والأعراس. كان العفاف المشرق وكان يجالس الخطأة بل يسعى وراءهم ليشفي نفوسهم وأجسادهم.

هذا هو يسوع. هذا هو الإله. هذا هو الإنسان، مثال البشرية، ومجد البشرية، ومخلص البشرية.

وهذا هو عمله في النفوس: عمل توحيد الجهود، عمل جذب القلوب، عمل أعطاء المثل الأعلى في الكمالات والفضائل والأخلاق.

الباب الاول

في الفضائل المسيحية الادبية

الفصل الاول
في فضيلة الفطنة

سيتناول بحثنا:

أولا– ماهية فضيلة الفطنة وقوامها.

ثانيا– ضرورة ممارسة افعالها.

ثالثا– الرسائل التي من شأنها أن تزيدها نموّا وكمالاً.

البحث الاول
ماهية فضيلة الفطنة وقوامها

١. بيانها: الفطنة هي فضيلة أدبية مسيحية، فائقة الطبيعة، تحمل قوانا العقلية في مختلف ظروف الحياة على اختيار أفضل الوسائل للوصول الى ما نرغب فيه من المطالب الحسنة، جاعلين هدفنا الاكبر تمجيد الله لكونه غايتنا القصوى السامية.

فالفطنة المسيحية هي غير فطنة الجسد الدنيوية الدنيئة، فطنة الخبث والمطامع الارضية؛ كما أن الفطنة المسيحية ايضا هي غير الفطنة المحضة البشرية، فطنة الانانية والمصلحة الذاتية.

فان فطنة الجسد تبحث بكل قواها عن الوسائل التي توصلها الى مطامعها وكبريائها وملذاتها واهوائها لكي تشبعها. فهي عدوة الله والناس معا. "فان فطنة الجسد موت وفطنة الروح حياة وسلام. لان فطنة الجسد عداوة لله"[1].

والفطنة المحضة البشرية هي أيضا غير الفطنة المسيحية، لان هدفها خير أرضي مجرد عن الغاية السماوية. فالصانع الفطن مثلا يتبصر في أمور صناعته كيف يحذقها؛ والتاجر ينظر في طرق تجارته كيف يستغلّها؛ والفنّان الشاعر أو الرسام أو الموسيقي يسعى في أعمال فكرته كيف يصل بفنه وعبقريته الى الشهرة ومكاسبها وأمجادها. فكل واحد من هؤلاء ينشد غاية زمنية بشرية، ويسعى اليها بكل ما أوتيه من ذكاء وقوة، ولا يفطن الى الغاية الصحيحة الكبرى السماوية. ففطنة هؤلاء هي فطنة بشرية أرضية حقيرة، وهي غير الفطنة المسيحية. والسواد الاعظم من الناس يرمي اليها متناسين أو غير مدركين قول الرب أن "ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه"[2].

أما الفطنة المسيحية فهي التي تستنير بأنوار الايمان، وتعتمد على تعاليم الانجيل في البحث عن الوسائل التي توصلها الى ما تريده من الرغائب، وتجعل الله غايتها الاخيرة في كل ما تصبو اليه وتستخدمه من المطالب والوسائط، ان في أمور الدين أو في أمور الدنيا. فتدير نحو الله دفة أفكارنا وعواطفنا ورغباتنا وأعمالنا وتجارتنا وصناعتنا، ومعاملتنا مع الناس، وحياتنا في بيتنا. وتبحث في الانجيل عما رسمه السيد المسيح من منهاج الحياة فتتبعه، وتجعل خطاب المعلم الالهي على الجبل دستور الحياة العملي لكل يوم ولكل حالة، فتسير على ضوئه. ثم تنظر في حياة القديسين والانام الصالحين كيف استعملوا الدنيا، فتنسج على منوالهم؛ وتصغي الى تعاليم الكنيسة وارشاداتها، فتعمل بها. وهكذا لا يمكن أن تعثر ولا أن تضلّ. وفوق ذلك فهي تدفعنا الى استعمال الصلاة وقبول الاسرار فيكون الفلاح حليفنا في دنيانا وفي آخرتنا.

٢. قوامها: تقوم الفطنة المسيحية بأمور ثلاثة: بتفكير رصين، وتقرير قويم، وتنفيذ حازم.

فالانسان المسيحي الفطن يفكر برصانة تفكيرا جديًّا في أموره وطرقه وكيفية تطبيق تعاليم المسيح في حياته. فيستفيد أولا من خبرة الاجيال السالفة، ثم من خبرته الذاتية. فيحذر السقوط في أخطاء وأغلاط من سبقوه، ويتنبّه الى ما استسلم هو أيضا اليه من الشطط والزلل باندفاعه وتهوره. ثم ينظر بعين ثاقبة الى المستقبل فيزن قوّته ومؤهلاته بميزان التواضع والثقة بالله، ويأخذ الحيطة لنفسه من أهوائه الذاتية وأمياله المنحرفة؛ واذا تمّ له ذلك يقرر خطته في أعماله وأشغاله ومختلف أطوار حياته.

فإذا ما أردت أن تستعمل الفطنة في ممارسة فضيلة الطهارة مثلا، فاذكر ما استخدمه القديسون والانام الصالحون من شتى الوسائل لحفظ نضارة زنبقتها؛ واعد الى فكرك ذكر الاخطار التي استهدفوا لها، والتجارب التي هاجمتهم وكيف صمدوا لها أو لماذا لم يصمدوا لها؛ وانظر فيما يحيط بك من ظروف الزمان والمكان والانسان، فتأخذ الحيطة لنفسك لكي تحافظ على جوهرة طهارتك وتحميها من العدوان، فتبقى نقية بهية في كل حين.

[1] رومية٨:٣-٧
[2] متى١٦:٢٦

ويساعدنا على التفكير الرصين استشاراتنا رؤساءنا ومعلمينا واصدقاءنا وأهلنا اذا كانوا من رجال الخير والصلاح. وربما وجدنا نصيحة حسنة أحيانا لدى من هم دوننا سنًّا وثقافة وقدرا ومكانة اجتماعية، فلا نأنف من أن نقتبسها من أفواههم وقلوبهم بوداعة وتواضع، فإنها كثيرا ما تفيدنا ي مواقف الحياة، وتخدمنا في حل العقد المستعصية، والمشاكل الخطيرة. ولا يسهو عن بالنا أن المشورة من الروح القدس.

أما خير الوسائط الفعالة التي تعيننا في حسن تفكيرنا، قبل أن نُقْدِم على عمل من أعمالنا فهي الصلاة والابتهال الى الروح القدس، روح المعرفة والفهم، روح الحكمة والتعزية؛ ثم النظر الى يسوع والى أمه الطاهرة، والتوسل اليها لكي يلهمانا الى ما به خيرنا وصلاحنا وتمجيد الله في حياتنا وأعمالنا. اليس هو الكلمة الازلية؟ اليست أمه هي "خزانة حكمة الله؟[1] فان الصلاة مرارا كثيرة تبعث للحال في عقولنا ضياء يعسر علينا أن نصل اليه ولو بعد ساعات طويلة من التفكير.

وبعد التفكير الرصين المؤسس على التأمل والمشورة والصلاة، يأتي دور الاعتماد على رأي صائب، أي تقرير ما ينبغي عمله. ولكي ننجو من الغلط علينا أن نحذر الاستسلام الى أهوائنا وعواطفنا ومطامعنا، بل نرفع أنظارنا وقلوبنا الى السيد المسيح ونذكر عواقبنا الاخيرة؛ وعلى ضوء هذه الشموس النيرة نقرر منهاج عملنا بلا تردد ولا وجل، لاسيما في الامور الكبيرة والمواقف الخطيرة. هكذا كان يفعل رجال الله القديسون ويقولون:"Quid hoc ad aeternitatem" "ما نفع هذا للابدية"؟ ولا ريب أنهم كانوا من أئمّة الناس عقلا وثقافة ومنطقا وفطنة. وعلى مثالهم نسائل ذواتنا: الى أين يقودنا هذا العمل أو ذاك، أإلى الله أم الى خدمة ذواتنا وشهواتنا.

فاذا فعلنا هذا لا نضل، وان ضللنا لا نؤاخذ، لاننا نكون قد اعتمدنا في تفكيرنا وفي تقريرنا على أفضل الوسائط الالهية والبشرية معا؛ فلا لوم علينا أمام الله ولا أمام الناس، ولا أمام أنفسنا.

علينا أخيرا بالتنفيذ لانه هو المطلوب، وهو ثمرة التفكير والتقرير، فبعد التفكير الرصين المشبع بروح الايمان، وبعد الاعتماد علة خطة للعمل، يلزم أن لا نتردد في التنفيذ، ولكن بتوءدة ورزانة وحكمة، بلا تهور ولا عنف ولا تصلّب ولا عناد. لانه لا بد من المرونة في تسيير الامور البشرية التي غالبا ما تكون عرضة للمفاجآت الغير المنتظرة، وللمصاعب الغير المعهودة. ولكن حتى في مثل هذه الظروف الاستثنائية الحرجة يبقى طريق النجاة من التهور مفتوحا أمامنا، وذلك بواسطة الصلاة والاستشارة والصبر والثبات.

٣. أنواعها: الفطنة أنواع منوعة حسب الغاية التي ترمي اليها. فهي شخصية حينما تنظر في أمور الناس كل بمفرده، وهي اجتماعية عندما يكون هدفها مقدرات الجماعات الكبيرة أو الصغيرة، نظير العائلة والمدينة والمقاطعة والدولة، أو الجماعات الدينية والادبية والخيرية والثقافية والتجارية وما يشابهها. فعلى كل انسان مسيحي في خصوصياته، وكل رب عائلة في عائلته، وكل رئيس في رئاسته ان يستعمل الفطنة المسيحية في حياته وفي قيادته، فهي المصباح الذي يقي من المعاثر، ويقود بأمان في الطريق القويم. أما الطيش والتهور والخفة فهي طريق الدمار المنحدرة الى الجحيم.

[1] اكاثسطون، بيت ١٧

البحث الثاني

ضرورة فضيلة الفطنة

ان افتقارنا إلى فضيلة الفطنة لهو حقاً من الأمور الضرورية، إن في حياتنا الفردية، وإن في حياتنا الاجتماعية.

أما في حياتنا الفردية فان الفطنة المسيحية تنير أذهاننا فترينا مخاطر المعاصي لنبتعد عنها وفوائد الفضائل لنقدم على ممارسها.

أما المعاصي فان اجتنابها والانتصار على التجارب الداعية إليها لا يتم لنا إلا إذا عرفنا أسبابها ومواقعها وأضرارها وأدواءَها. فليس كالفطنة ترشدنا إلى مثل ذلك، فتنير عقولنا وترينا شرها، فنسارع إلى إتقائها.

وأما الفضائل فالفطنة هي بمثابة القائد للجيش المحارب. فهي العين الساهرة، والرقيبة المتطلعة إلى آفاق حياتنا، فترى وترينا خير السبيل؛ وهكذا تسهّل المصاعب فندراً عنا وطأتها؛ وترفع أمامنا الستار عن جمال الفضائل ومنافعها فتقدم على ممارستها. فلا قوام لفضيلة من الفضائل الإلهية والأدبية إلا بها. فهي التي تنظر فيما يهدد فضيلة الإيمان من الأخطار فتحملنا على درئها والهرب منها؛ وهي التي تسهر على حفظ التوازن ما بين ما يحق لنا من الثقة بالله وما يتوجب علينا من الخوف من أحكامهِ الرهيبة؛ وهي التي تقودنا في الطريق الوسط ما بين الطمع برحمتهِ تعالى واليأس من خلاصنا؛ وهي التي بنوع أخص تنظم فينا أعمال فضيلة المحبة وأفعال الرحمة فتقف حائلاً دون الإفراط والتفريط في كل مناسبة من منسبات حياتنا.

ونشعر بالأكثر بضرورتها في القيام بأعمال بعض الفضائل التي تتراءى لنا كأنها في خلاف مع بعضها: نظير العدل مع الرحمة، والقوة مع الوداعة، ومباشرة التقشف مع واجب حفظ الصحة، والمروءة في خدمتنا للقريب مع صون عفاف قلوبنا وأجسامنا، وتعاطي أعمال الحياة الداخلية الروحية مع الانهماك بشتى الأشغال الخارجية. فالفطنة هي التي تنظم التوفيق بين أعمال هذه الفضائل فلا تعارض بعضها بعضاً، ولا تراحم بعضها بعضاً.

وأما في حياتنا الاجتماعية فالفطنة يجب أن يكون لها المقام الرفيع الأول. فهي رئيسة الفضائل وفضيلة الرؤساء: "ان كثرة الحكماء خلاص العالم، والملك الفطن ثبات الشعب" [1].

ولما تجلى الرب للملك سليمان في جبعون في الحلم[2]، وخيره في ان يطلب من المواهب ما يريد، أجابه سليمان وقال: "أيها الرب الهي أنت ملكتَ عبدك مكان داود أبي، وأنا غلام صغير السن لا أعرف ان أخُرج وأدخل. وعبُدك فيما بين شعبك الذي اخترته شعبٍ عظيم لا يحصى ولا يُعد لكثرتهِ. فهَبْ عبدك قلباً فَهِماً ليحكم بين شعبك ويميز بين الخير والشر.. فحسن الكلام في عيني الرب... فقال له الله بما: أنك سألت هذا الأمر ولم تسأل أياماً كثيرة، ولا سألت لنفسك الغني، ولم تطلب نفوس أعدائك، بل سألت لنفسك تميزاً لتفقه الحكم، فهاءنذا قد فعلت بحسب كلامك. هاءَنذا قد أعطيتُك قلباً حكيماً فَهِماً... وأيضاً ما لم تسله قد أعيتُك إياه، الغنى والمجد، حتى لا يكون رجل مثلك في الملوكِ كل

[1] حكمة ٦: ٢٦.
[2] ٣ ملوك ٣: ٥- ١٥.

أيامك". فالحكمة هي مجلبة الخيرات كلها. هي للرئيس مصباحُه وضياؤه ومجلس ورئيسه فضائلهِ. "الحكمة خير من القوة والحكيم أفضل من الجبار"[٣].

وقد قيل: الرأيُ قبل شجاعة الشجعانِ.

وفضيلة الفطنة هي على الأخص رفيقة الكاهن في خدماته الروحية والزمنية. فهي التي توحي إليه في مواقفه الخطابية الكنيسة ما تقضي المجاهرة به، وما لا يحسن ذكره، وما لا ينبغي إلا التلميح إليه. وهي ميزانه في تعاليمه وإرشاداته للكبار وللصغار، وللنساء وللرجال، ولكل فئةٍ من الناس. وهي التي يجب ان تتحكم في كل حركاته، وفي كل كلمة من كلماتهِ لدى زيارته للرعية، لكي لا يتسرب إلى الأذهان ولا ظلُّ الشك في سيرتهِ وسريرتهِ وهي التي تجلس معه في منبر الاعتراف فترشده إلى أفضل ما يكون من حسن القيام بواجباته كأب عطوف، ومعلم عالم، وطبيب حاذق. وهي التي تكون عوناً له في توزيعه الأسرار على المؤمنين، والقيام بحفلات العمادات، والمناولات الأولى، والأكاليل، فترشده إلى حسن التوفيق ما بين القوانين الكنيسة المفروضة وبين مطالب بعض الناس، وتطرفهم أحياناً في رغبائبهم من حب الظهور، والعجرفة الباطلة، والمطامع المتستّرة الظاهرة.

وهكذا أُل في إدارة الأوقاف، وفرض الرسوم الكنسية، وجباية الأموال لتغذية الأعمال الخيرية. كل ذلك يلزمه فطنة ودراية وتفكير مرونة ورصانة، لكي لا تتسرب الشكوك إلى أذهان الناس؛ فيبقى الكاهن بعيداً عن الشبهات، وبذلك يمجد الله.

[٣] حكمة ٦: ١.

البحث الثالث

الوسائل التي من شأنها ان تزيد بفضيلة الفطنة نمواً وكمالاً

الوسائل الأولى والكبرى التي من شأنها ان تزيد فضيلة الفطنة نمواً وكمالاً هي الصلاة. وبها تتغذى الفضائل كلها وتزهو وتزهر. لن كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة تنحدر من لدن أبي الأنوار.

والوسيلة الثانية التي بها تتقدم الفطنة وترتقي هي حرصنا على ان لا نقصد إلا وجه الله في كل عمل من أعمالنا، وان يكون حكمنا في هذه الأعمال، في حسنها وسوئها، وخيرها وشرها، على ضوء هذا النور الكبير، نور طلبنا وجهَ الله في مختلف أمور حياتنا. وهذا ما يوصي به بولس الرسول إذ يقول: "ومهما أخذتم فيه من قولٍ أو فعلٍ فليكن الكل باسم الرب يسوع المسيح شاكرين به لله الآب"[1]. وهو ما يرشد إليه أيضاً القديس اغناطيوس في رأس العمليات الروحية التي تفرَّد في طريقة وضعها.

ولكي يسهل علينا أيضاً وضع هذا التعليم موضع العمل يمكننا ان نعتمد على آية من آيات الحكمة التي جعلها بعض القديسين نبراساً لهم يسترشدون بها في بدء كل عملٍ من أعمالهم فتنير سبيلهم. نظير هذه الآيات:

ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه[2]

ما نفع هذا للأبدية. Quid hoc ad aeternitatem

كل ما هو ليس أبديا ليس شيئاً.

فإذا ما تشبعنا من هذه المبادئ الأساسية الكبرى سهل علينا الحكم في أمور الحياة مهما تقلبت وتعددت وتنوعت، ويكون حكمنا فيها بفطنة وحسن دراية.

فلنظر الآن في كل فئةٍ من المؤمنين كيف يغذون فضيلة الفطنة، وكيف يصعدون بها سلّم الكمال.

فمن كان منهم في الدرجة الأولى من الحياة الروحية عليه ان يجاهد لكي يتحرر من النقائص التي تعيبُ فضيلة الفطنة، وتعيقه في سلامة الرأي وصوابية الحكم في أمور الحياة.

فعلية ان يقاوم "فطنة الجسد" التي إنما تسعى وراء شهوة الجسد، وشهوة العين، وفخر الحياة"[1]. ولا يتم له ذلك إلا باستعمال أنواع الأماتة والتقشف، متسلحاً بالمبادئ المسيحية الأساسية التي ذكرناها، ومرراً في ذهنه قول الرسول: "ان فطنة الجسد هي موت وفطنة الروح هي حياة وسلام"[2].

وعليه ان يحاذر الطرق الملتوية، والحيل الخداعة، والسياسة الكاذبة التي يظن الكثيرون في طيشهم أنها خير ما يعتمدون عليه للنجاح في مقاصدهم. فينسون ان الكذب ممقوت عند الله والناس، وان عاقبته الدمار، وان الغاية لا يُمكن

[1] كولسي٣:١٧.
[2] متى ١٦: ٢٦.
[1] يوحنا ٢: ١٦.
[2] رومية٨: ٦.

ان اشفع بالواسطة وتبررها، وان مَن يُحسن سريرته يحسن الله علانيته. ألا يقول لنا الإنجيل: "كونوا حكماء كالحيات وودعاء كالحمام"[٣].

فعلى المسيحي الحقيقي ان يكون شهماً شريفاً في أقواله وأفعاله؛ وان يكون سليم الطوية في معاملاته مع قريبهِ.

والفطنة تقضي بان لا نستسلم لأوهامنا وأميالنا وأهوائنا. فالأوهام هي أعداء الفطنة ومن الموانع الكبرى التي تحول دون تقدمنا في الكمال المسيحي. لأنها تتساقط على عقولنا، وتضيّق الخناق على إرادتنا، فنفقد حرية التفكّر ومعها حرية العمل.

وكذلك الأهواء، فهي أمراض نفسية تُظلِم العقل، وتبعث فينا روح الكبرياء والعجب، فتبعدها عن محجة الصواب، وتجعلنا نيته في الضلال، ونندفع وراء الملذات الأرضية والمطامع البشرية، فننسى غايتنا السامية وننبذ وراء ظهرنا وصية الرب: "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره"[٤].

وعلى المسيحي الذي بدأ يسير في طريق الكمال ان يتحاشى الخفة والتسرع والتهور في أقواله وأفعاله؛ وان يتعوَّد التأمل والتفكير قبل العمل؛ وان يزن أسباب عمله ونتائجه بميزان الإيمان، فلا يقدم على أمر خطير إلا بعد ان يتثبت من صلاحيتهِ، ومن موافقته لمبادئ الإنجيل وللغاية القصوى السامية التي لأجلها خلقهُ الله تعالى. وإذا ما أشكل عليه الأمر فليسترشد برأي مرشد حكيم فطن. وهكذا يعتاد ان يسلك دائماً بحسب المبادئ المسيحية السماوية.

ومن الناس من يتخذون جميع الوسائط اللازمة لإنارة طريقهم في أعمالهم. فيستعملون الصلاة والتفكير والمشورة، وتظهر لهم صوابية عملهم. ولكنهم عند التنفيذ يحجمون عن العمل بداعي الخوف أو التردد أو الوسواس. فالفطنة المسيحية تقضي إذ ذاك بان يلتجئ مثل هؤلاء إلى مرشد عاقل يدفعهم إلى العمل، فيسيرون حسب نصائحه وإرشاداته.

أما المؤمنون المتقدمون في الكمال المسيحي والذين وصلوا إلى الدرجة الثانية منه فاضحت الفضائل لهم عادات مستحبة، فأنهم يمارسون أعمال فضيلة الفطنة على أنواع ثلاثة.

يبحثون أولاً كل يوم في الإنجيل عمَّا قاله وعمَّا فعله الرب يسوع في حياته الخفية والعلنية فيتخذونه قاعدة لهم في أعمالهم ودستوراً في حياتهم. لأن هذا المعلم الإلهي والمشترع السماوي يتراءَى لهم بكل ما في حياته من جما وكمال وفضيلة وعاطفة، وعلى الأخص من فطنة سامية سماوية. وتتجلى لهم فضائله بكل بهائها وإشراقها: تواضعه العجيب، وطاعته الكاملة، وفقره المدهش، في أيام حداثتهِ؛ ثم في أيام ظهوره: حنانه مع الصغار، ورحمته مع المرضى والخطأة، وصبره مع قليلي الفهم ومنكري الجميل، وشجاعته أمام نفاق وكبرياء بعض الرؤساء من الفرنسيين ومعلمي الناموس، وتنازله في معاشرته لرسله البسطاء، الغير المثقفين الذين رغم قربهم منه، ونظرهم إلى عواطفهِ وتجره، ونبل مقاصده، ورفعة أميالهِ، بقوا صغيري النفوس ماديين مستسلمين لمطامعهم الزمنية الحقيرة. فهل أجمل من هذه الدروس، وهل أوقع منها في النفوس.

ثم يروضون ذواتهم على الرصابة وعادة التأمل والتفكير، وعلى الاسترشاد بآراء المعلمين الروحيين، وبأمثال رجال الله القديسين. ويعملون على إكساب روح الحزم؛ ويحتاطون للطوارئ. المفاجئة؛ ويتبصرون في أمورهم بتوءدة وروية؛ ويلجأون على الأكثر إلى الصلاة في بدء كل تفكير، وعند كل تنفيذ. فتتم لهم هذه الفضيلة الرئيسية الأولى.

---

[٣] متى ١٠: ١٦.
[٤] لوقا١٢: ٣١.

وأخيراً يتخذون ما قاله القديس يعقوب في فضيلة الفطنة دستوراً لهم في ممارستهم أعمال هذه الفضيلة السامية الرئيسية. قال القديس يعقوب في رسالتهِ[1]: "هل فيكم ذو حكمة ودراية فليبدِ أعماله من حسن تصرفهِ بوداعة الحكمة".

ثم يتكلم عن الفطنة الكاذبة فيقول:

"فأما ان كنتم ذوي غيرة مرة ومنازعة في قلوبكم فلا تفتخروا ولا تكذبوا على الحق. ليست هذه الحكمة نازلة من فوق بل هي أرضية حيوانية شيطانية".

أما الفطنة الحقيقية فيقول عنها:

"أما الحكمة التي من فوق فأنها أولاً عفيفة. "لأن العفاف يجرد الإنسان عن الأهواء والشهوات فتضيء له أنوار السماء: "طوبى للانقياء القلوب فأنهم يعاينون الله"[1].

وهي "مسالمة": فالسلام هو خير الوسائل لحسن التأمل والتفكير الداخلي، والله هو اله سلام وليس تشويش واضطراب. وهي "حليمة سهلة الانقياد مملوءَة رحمة وأعمالاً صالحة لا تدين ولا تراءي".

أما الكاملون من المسيحيين الذين وصلوا إلى درجة الترفع التام عن المآثم والمطامع، وصارت الفضائل فيهم ملكات مستقرة ثابتة، فأنهم يمارسون فضيلة الفطنة بنوعٍ كامل سامٍ، بفعل "موهبة المشورة الصالحة" التي يمنحها الروح القدس للنفوس المكتملة في الفضيلة.

فموهبة المشورة الصالحة هي التي تجعلنا نحكم فيما ينبغي لنا عمله أو تركه من الأمور، لاسيما الصعبة والخطيرة، وذلك بنوع سريع وبصيرة نيّرة صادقة كانَّ الإلهام الإلهي يوحي إلينا طريقة عملنا ويقودنا بيدنا.

ان الروح القدس كثيراً ما يتكلم في داخل المؤمنين الذين تعودوا ان ينصتوا إلى كلامهِ وإلهاماتهِ، ويهديهم إلى ما يجب ان يقولوه أو يفعلوه أو يحكموا فيه في مختلف مواقف حياتهم ووظائفه، لاسيما إذا ما تعقدت الأمور واستعصى على الناس حلها. وما أبدع ما جاء في سفر الحكمة في هذا المعنى[2]:

"حينئذ تمنيت فأوتيت الفطنة، ودعوت فحلَّ عليَّ روح الحكمة. ففضلتها على الصوالجة والعروض، ولم أحسب الغنى شيئاً بالقياس إليها، ولم اعدل بها الحجر الكريم. لان جميع الذهب بإزائها قليل من الرمل، والفضة عندها تحسب طيناً. وأحببتها فوق العافية والجمال واتخذتها لي نوراً لأن ضوءَها لا يغرب. فأوتيت معها كل صنفٍ من الخير ونلت من يديها غنى لا يُحصى.. لأنها ضياء النور الأزلي ومرآة عمل الله النقية وصورة جلاله... وفي كل جيل تحلّ في النفوس القديسة فتنشئ أحباء لله وأنبياء".

ألم يقل الرب يسوع لرسلهِ واصِفيائهِ: "فإذا أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بماذا تتكلمون، فأنكم ستُعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به. لأنكم لستم أنتم المتكلمين لكن روح أبيكم هو المتكلم فيكم"[3].

ولقد رأينا هذا الوعد قد صدق بالفعل في حياة الرسل والكثيرين من القديسين. أو لهم القديس بطرس. لأن هذا الصياد المسكين، بد ان حلَّ عليه الروح القدس وملأه من مواهبه، وقف خطيباً بلا وَجَل أما محفل اليهود العظيم. ولما

[1] يعقوب ٣: ١٣- ١٧.
[1] متى٥: ٨.
[2] حكمة ٧: ٧- ١١ و٢٦ و٢٧.
[3] متى١٠: ١٩و ٢٠.

سمعهم يتهددونه ان هو عاد إلى التبشير باسم يسوع، أجابهم لفوره بثبات وصدق عزيمة: "ان الله أحق من الناس بان يطاع"[1].

وان سيَرَ القديسين لهي ملأى بأمثال كهذه. وهي تعد من الخوارق، لأن مصدرها هو الروح القدس، يكافئ بها أصفياءَه ويمكّنهم من حسن تسيير أمورهم، ومن خدمة الناس ومنفعتهم حباً وإكراماً لله عزوجل.

فالقديس انطونيوس الكبير كان ملهماً من الله في إدارة وإرشاد ألوف الرهبان الذين كانوا يأتونه طالبين إرشاده، وراغبين في حياة النسك تحت يده. فكان يسهّل لهم مصاعبهم، ويزيل أحزانهم، ويقرأ في قلوبهم مخاوفهم وأفكارهم ويحلل لهم مشاكلهم. والقديسة كاترينا السيانية كانت رغم حداثة سنها وجهلها للعلوم البشرية، بصيرة في الأمور الخطيرة، إلى حد ان الباباوات والكرادلة والأمراء والعظماء والاساقفة ورؤساء الأديار كانوا يطلبون رأيها في معضلات الأمور ويسترشدون بقولها في شدائد تلك الأيام العصيبة التي عاشت فيها، أيام الحروب والفتن والاضطرابات الدينية والسياسية في القرن الرابع عشر.

ومن ينكر على جادارك نظرها السماوي في عملها الأرضي. حتى ان هذه الابنة القروية البسيطة التي قضت حداثتها في رعاية الأغنام صارت تضع رسم المواقع الحربية كأمهر القواد المخرجين في المدارس العليا العسكرية. ولما كانوا أحياناً ينكرون عليها خططها كانت تجيبهم بجزم وثبات: لكم مشورتكم ولي مشورتي.

ولقد بقيت حياة الكاهن القديس يوحنا فياني خوري أرس بفرنسا، معجزة من المعجزات الإلهية. فان هذا الكاهن البار، بعد ان كاد يُطرد من المدرسة الاكليريكية لما كان يجده من المشقة والصعوبة في حفظ العلوم اللاهوتية، أضحى بقداسته نوراً ساطعاً في آفاق فرنسا، ومرشداً مصيباً للألوف من كل طبقات العشب المثقف في زمانه. فلم يبقَ أسقف ولا أمير ولا كاهن ولا رئيس ولا غني ولا فقير إلا ذهب إليه وطلب إرشاده، وعاد مبهوتاً من فهمهِ وسداد رأيه، وصوابية نصائحهِ.

فموهبة المشورة الصالحة التي يفيضها الروح القدس في أذهان مختاريهِ وأصفيائهِ وبها يتمم فضيلة الفطنة، تبعث النور في أهانهم، وترسل الضياء في بصائرهم، فيرون الرأي السديد في أمورهم وأمور غيرهم.

أما ضرورة المشورة الصالحة فهي لجميع المؤمنين على مختلف حالاتهم، وظروف وظائفهم، وعلى الأخص لما يأتي عليهم في حياتهم من مواقف صعبة وساعات خطيرة. نظير توجيه الحياة مثلاً يميناً أو شمالاً: هل نسلك طريق البتولية أم الزواج؛ هل نختار السلك العسكري أم السلك المدني في التجارة أم في الصناعة، في المهن الحرة أم في الوظائف الحكومة ؟ .. وقس على ذلك من الحالات التي لا تقع تحت حصر. فهذا كله لا بد له من فطنة كبرى، وفوق الفطنة، لا بد له من موهبة المشورة الصالحة لكي لا نضل في اختيارنا، ولا نعرّض آخرتنا وابديتنا. لأن مداركنا ضعيفة، وحكمتنا قليلة، وهمتنا بطيئة، ولا تزال عرضة لفقدان طريق الرشاد.[1]

[1] اعمال٥: ٢٩.

[1] "sed quid humana ratio non polest comprehenders singularia contingentia quae occurrcre possunt, fit, cuod'cogitations mortalium sint timidae et incerlae providentiae' (sap.1x,14)Et ideo indigent homo in inqisitione consilii dirigi a Deo qui omnia.

ولقد قال أحد الكتبة الروحين: ان العقل المستنير بموهبة المشورة الصالحة تكون لديه قوة التمييز الصحيح فيما يجب عليه ان يعتمده من الأمور، ويرى طريقه بوضوح وجلاء، ويسير فيه بثبات وطمأنينة، ولا يخاف ما يعترضه من المصاعب والمتاعب، ويعرف متى يحين الوقت المناسب للعمل وللنجاح[٢].

أما إذا حُرمنا هذه الموهبة السامية "فتظلم أفكارنا، وتعمى بصائرنا، ونضل السبيل في سعينا وراء رغائبنا، ونتهور في مقاصدنا، ونستسلم للخفة في أقوالنا، ونجازف في أفعالنا"[٣].

والحاجة الكبرى إلى موهبة المشورة الصالحة تظهر على الأكثر في حياة الرؤساء والكهنة. لأن واجباتهم كبيرة، ومسؤولياتهم كثيرة ودقيقة، ان في إدارة نفوسهم وتقدسها، وان في إدارة وتقديس نفوس مرؤوسهم والمؤمنين الموكولين إلى عنايتهم.

فما أشد ما يعترض الكاهن من المصاعب في التوفيق ما بين الحياة الروحية الداخلية والحياة الجهادية الخارجية، وما بين التفاني في خدمة النفوس والمحافظة على العفاف والنقاوة، وما بين حكمة الحيَّات ووداعة الحمام. نعم ان أنوار الروح القدس لهي من أجلّ الوسائل ضرورة في حياة الكهنة.

وهي لا تقل أهمية وضرورة أيضاً في حياة الرؤساء، وفيما يُطلب منهم من السهر على مرؤوسيهم، ومن استعمال الشدة واللين في إدارتهم لهم، ومن حملهم على حسن إتمام فرائضهم وواجباتهم ووظائفهم، ومن الحرص على ان يكون إتمامهم لتلك الواجبات بدقة ونشاط وفرح وارتياح، ولكن من غير ان يفقدهم ثقتهم بهم وحبهم لهم.

أما المرشدون فهم أحوج الناس إلى أنوار المشورة الصالحة. لأن مهمتهم صعبة دقيقة، وتتطلب منهم فطنة فائقة، وحكمة نيرة، وسداد رأي، وعذوبة مقال، وحزماً في التوجيه، وثباتاً في الحكم. فان اختلاف الأحوال النفسية، والطباع البشرية، والأوضاع المسلكية، والدعوات الخصوصية الروحية، لهي أكثر تنوعاً وأقوى أثراً بما لا حد له من اختلاف الوجوه والأجسام بين الأنام.

ꕥꕥꕥ

فننظر الآن **في** كيفية الحصول على موهبة المشورة الصالحة وفي تغذيتها وانمائها.

لا يسهو عن بالنا ان موهبة المشورة الصالحة هي مجانية، يفضيها الروح القدس كيف يشاء، وأين يشاء. إلا أنه يمكننا ان نعلل النفس بالحصول عليها، أولاً بالصلاة المتواضعة والابتهال إلى هذا الروح المعزي الصالح. وهذا ما عودتنا إياه كنيستنا الشرقية إذ تفرض علينا ان نبدأ دائماً صلواتنا الطقسية بهذا الابتهال البديع:

"أيها الملك السماوي المعزي، روح الحق، الحاضر في كل مكان، والمالئ الكل، كنز الصالحات ورزاق الحياة، هلّم واسكن فينا وطهرنا من كل دنس، وخلّص أيها الصالح نفوسنا".

أما الطريقة الثانية التي تنيلنا نعمة هذه الموهبة السامية فهي التواضع والتذلل. فنقرّ أمام الله بضعفنا وبقلة إدراكنا وبقصر بصيرتنا، ونتقدم إليه بثقة راغبين في خدمتهِ وطلب مرضاته، معتمدين على أنواره وإلهاماته، ونهتف نحوه من أعماق

[٢] comprehendit, quod fit per donum consilii, per quod homo dirgitur quasi consilio a Deo accepto.'(A.Thomasm II^{a} II^{ae}, q.52.1. ad 1).

[٣] S^{t} Jure: Le liver des Elus, 1ere P,. ch. IV.

قلوبنا: "يا رب عرفني طرقك، وسبلك علمني"[١]، فيسمع لصراخنا ولا يخيبنا؛ ونشعر بضيائه القدوس يغمر أذهاننا؛ وتنفرج الأزمات أمامنا.

أخيراً ينبغي للنفوس المتقدمة في الكمال ان تكون دائمة السهر، مستمرة الانتباه لصوت الروح القدس المتكلم في دواخلها، فتسمع صوته العذب يرنّ دائماً في أعماقها ويرشدها إلى ما به مرضاته وخيرها وفلاحها. ولقد قال الكاتب الشهير دونوزو كورتيس: ان أفضل المرشدين هم أصحاب الحياة الروحية العقلية (Les contemplatifs). وقال في موضع آخر: "ان الناس الذين عرفتهم عن كثب، وهم كثيرون، لم أصادف بينهم من كانوا أصحاب رأي سديد كامل، ولباقة صادقة في حسن تسيير الأمور، وأهلية تفوق حد التصوّر في حل المعضلات الصعبة، إلا أولئك الذين كانوا قد تفرغوا للحياة العقلية، بعيدين عن ضوضاء العالم"[٢].

وهذا القول مبني ليس على الاختبار الشخصي فحسب، بل على المنطق الصحيح أيضاً. لأن مثل هؤلاء الناس الروحين العقليين، تغمر أشعة الروح القدس بصائرهم بضيائها، وتكون نفوسهم مجردة عن حطام الدنيا ومطامعها، فيرون ما لا يراه غيرهم من حكمة سامية ومشورة صالحة. ومن يقرأ سيرة القديسة تريزيا الكبرى الافيلية التي كتبتها إحدى بناتها[٣]، بمناسبة التذكار المئوي الثالث لوفاتها، يتحقق بجوار هذه القديسة، ذات الحياة العقلية السامية، كانوا يفلحون كلما ساروا حسب نصائحها، وكانوا يعثرون كلما حادوا عن إرشاداتها.

حادث تاريخي

الملك سليمان

كان الملك داود قد طعن في السن، وكان قد فاق بمجده وعظمته كل من عاصره، من ملوك مصر وفارس. وكانت أطراف مملكته تترامى إلى حدود وادي النيل والفرات. وكان قد ملك على إسرائيل أربعين سنة. فلما رأى ان أجله قد دنا أجلس ابنه سليمان على عرشهِ ومسحه ملكاً بدلاً عنه، ووكل إليه متابعة ما بدأ بهِ من الأعمال العظيمة، وأوصاه هيكل الرب.

فلما ملك سليمان كان ابن سبع عشرة سنة. فكان العبء ثقيلاً على كاهله. وما لبث أن أخذ ببناء هيكل الرب. فجاء هيكلاً بديعاً فاق بهندستهِ وجمالهِ وزخرفهِ كل ما سبق من أمثاله في الممالك الأخرى قاطبة. وأقيمت الأعياد الكبرى، وذبحت الوف الذبائح، وبهر اسم سليمان الدنيا. "وكان الرب ألهه معه وعظمه جداً"[١]

---

[١] مزمور ٢٤: ٤.
[٢] Essai sur le Catholicisme,p.200
[٣] Histoire de ste,Therese.
[١] ٢ أخبار ١: ٧.

"وفي جبعون تجلى الرب لسليمان في الحلم ليلاً وقال الله: اطلب ما أعطيك. فقال سليمان قد صنعت إلى عبدك داود أبي رحمة عظيمة بحسب سلوكه بين يديك بحق وبرّ واستقامة قلب معك، وحفظت له تلك الرحمة العظيمة ورزقته ابناً يجلس على عرشهِ كما هو اليوم. والآن أيها الرب الهي إنك ملكت عبدك مكان داود أبي وأنا غلام صغير السن لا أعرف ان أخرج وأدخل. وعبدك فيما بين شعبك الذي اخترته شعب عظيم لا يُحصى ولا يُعد لكثرتهِ. فهب عبدك قلباً فهِماً ليحكم بين شعبك ويميز بين الخير والشر. لأنه من يقدر ان يحكم بين شعبك هذا الكثير.

"فحسن الكلام في عيني الرب لأن سليمان سأل هذا الأمر. فقال له الله: بما أنك سألت هذا الأمر ولم تسل لك أياماً كثيرة ولا سألت لنفسك الغني ولم تطلب نفوس أعدائك بل سألت لنفسك تميزاً لتفقه الحكم، فهاءَنذا قد فعلت بحسب كلامك. هاءنذا قد أعطيتك قلباً حكيماً فهِماً أنه لم يكن قبلك مثلك ولا يقوم بعدك نظيرك. وأيضاً ما لم تسله قد أعطيتك اياه الغني والمجد حتى أنه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيامك".

وحق الرب وعده لسليمان. فان هذا الملك الشاب ما عتم ان حكم بنباهة فائقة وفطنة نادرة جعلته احكم وافطن ملك قام في إسرائيل. وهذه الحكمة ظهرت في قضية معقدة رواها لنا الكتاب المقدس. قال:

"حينئذ جاءَت امرأتان بغيَّان ووقفتا بين يديه. وقالت إحداهما: إلي يا سيدي. أني وهذه المرأة مقيمتان في بيت واحد. فولدت أنا في البيت، وفي ثالث يوم من ولادتي ولدت هذه المرأة أيضاً وكنا معاً وليس معنا غريب في البيت غيرنا نحن كلتينا في البيت. فمات ابن هذه المرأة في الليل لأنها اضطجعت عليه. فقامت عند نصف الليل فأخذت ابني من جانبي، وكانت أمتك راقدة، وجعلت ابني في حضنها وابنها الميت جلته في حضني. فلما قمت بالغداة لأرضع ابني إذا هو ميت. فتفرست فيه في الصباح فإذا هو ليس بابني الذي ولدته. " فقالت المرأة الأخرى: كَّلا، الحي هو ابني والميت ابنكِ. فقالت تلك: لا بل ابنك الميت وابني الحي. وكانتا تتكلمان بين يدي الملك. "فقال الملك: علي بسيف. فأتوا بسيف إلى أمام الملك. فقال الملك: اشطروا الصبي الحي شطرين وادفعوا شطراً إلى الواحدة وشطراً إلى الأخرى فكلمت المرأة التي ابنها الحي لأن أحشاءها اضطرمت على ابنها وقالت: إليَّ يا سيدي، أعطوها الصبي حياً ولا تقتلوه. فقالت الأخرى: بل لا يكون لي ولا لك. اشطروه. فأجاب الملك وقال: ادفعوا الصبي الحي إلى هذه ولا تقتلوه لأنها أمه. " فسمع جميع إسرائيل بالقضاء الذي قضاه الملك، فهابوا وجه الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه في إجراء الحكم"[1].

صلاة سليمان الملك
في طلب الحكمة[2]

"يا اله الآباء، يا رب الرحمة، يا صانع الجميع بكلمتك وفاطر الإنسان بحكمتك لكي يسود على الخلائق التي كونتها ويسوس العالم بالقداسة والبر ويجري الحكم باستقامة النفس، هب لي الحكمة الجالسة إلى عرشك ولا ترذلني من بين بنيك. فاني عبدك وابن أمتك، إنسان ضعيف قليل البقاء وناقص الفهم في القضاء والشرائع. على أنه، ان كان في بني البشر احد كامل، فما لم تكن معه الحكمة التي منك لا يحسب شيئاً. أنك قد أخذتني لشعبك ملكاً ولبنيك وبناتك

[1] ٣ ملوك ٣: ٥- ٢٨.
[2] سفر الحكمة ٩: ١- ١٢.

قاضياً ... ان معك الحكمة العليمة بأعمالك والتي كانت حاضرة إذ صنعت العالم، وهي عارفة ما المرضي في عينيك والمستقيم في وصايك. فأرسلها من السماوات. المقدسة وابعثها من عرش مجدك حتى إذا حضرت تجدّ معي وأعلم ما المرضي لديك. فأنها تعلم وتفهم كل شيء فتكون لي في أفعالي مرشداً فطيناً وبعزها تحفظني. فتغدو أعمالي مقبولة وأحكم لشعبك بالعدل وأكون أهلاً لعرش أبي".

ا

لفصل الثاني
في فضيلة العدل

ಬಬಬಬ

البحث الأول
في طبيعة فضيلة العدل وأحوالها

١. **بيانها**: العدل هو فضيلة أدبية مسيحية فائقة الطبيعة تدفع أرادتنا إلى ان نعطي كل ذي حق حقه. فالمركز الرئيسي لهذه الفضيلة هي الإرادة، كما ان العقل هو المركز الرئيسي لفضيلة الفطنة. وتمتاز هذه الفضيلة عن الرحمة، أو محبة القريب، بان هذه تحسن إليه إحساناً، وأما تلك فتفرض القيام بأداء حقوقه فرضاً.

وتتفرغ من هذه الفضيلة الرئيسية فضيلتان ساميتان، الأولى فضيلة العبادة، والثانية فضيلة الطاعة. لأن فضيلة العبادة تحملنا على القيام بواجباتنا نحو الله لمِا له من الحقوق السامية علينا. وفضيلة الطاعة تفرض علينا ان نقدم للرؤساء. ما لهم علينا من حقوق في مختلف نواحي الروحية والاجتماعية.

٢. **منافعها**: لا أحد يجهل ما لفضيلة العدل الطبيعية أولاً من المنافع العديدة الجليل. فالعدل هو قوام الممالك، وسعادة الأفراد والشعوب والمجتمع البشري بأسره، ولو ساد العدل في الدنيا بين الأفراد وبين الأمم لبطلت المنازعات، وعطلت دوائر المحاكم، وأغلقت أبواب السجون، وتقلص ظل الحروب، وعاش الناس بسلام وفرح وطمأنينة. لأن به يعرف كل إنسان ما له من الحقوق وما يترتب عليه من الواجبات؛ فكل حق ينادي واجباً يخدمه ويصونه. فتزول الضغائن وتبطل السرقات، ويتلاشى الاحتيال، ولا يسطو القوي على الضعيف، ولا يأكل الكبير الصغير، يعيش الكل بهناء ورخاء.

ولقد قال بوسّويه(Bossuet) كبير خطباء فرنسا في هذا المعنى: " عندما أنادي بالعدل، أنادي بالرابطة المقدسة التي تربط الجامعة البشرية ببعضها؛ أنادي باللجام الذي يعقل الشهوات... عندما يسود العدل يسود معه الصدق في العقود، والنور في الأعمال، والنظام في الأحكام؛ وتخلد الأرض إلى الراحة والطمأنينة. حتى السماء نفسها ترسل أشعتها على الأرض ببهجة، وتملأ الدنيا سروراً وحبوراً[١].

أما إذا انتُهك العدل واختل نظامه، فهناك الفوضى والخصام والحروب والدماء، وموت الضعيف والصغير والعاجز والمسكين.

فإذا كانت فضيلة العدل الطبيعية هي هكذا جزيلة الفائدة فماذا تكون منافع فضيلة العدل المسيحية الفائقة الطبيعة التي إنما هي شطر من العدالة الإلهية. فان الروح القدس يزرعها في أعماق قلوبنا ويدفعنا إلى ممارسة أفعالها بثبات

[١] Sermon sur la justice

واستمرار وكمال، ليس احتراماً فقط لحقوق القريب، بل لأن الله يأمر بها، ويرتاح إليها، ويكافئ عليها. وهكذا تصان ليس حقوق القريب فحسب، بل اقل مطلب من مطالبه، وأقل رغبة حسنة من رغائبه.

٣. أنواعها: العدل على نوعين **اجتماعي وفردي**. فالعدل الاجتماعي هو ما يشمل حقوق المجتمع على الأفراد الذين يؤلفون ذلك المجتمع. لا ينكر أحد أن المجتمع يؤدي للأفراد وللجماعات، في كل بلد وفي كل دولة، خدماً جلّى لا تقع تحت حصر ولا يستطيع ان يتناولها وصف. لأجل ذلك يتمتع بحقوقٍ يأمر كل فرد من أفراد ذلك المجتمع بان يؤديها له ويحترمها ويقدسها. ولما كان الخير العام يسمو على الخير الخاص المناسب له، وجب على هذا ان يخضع لذاك، وان يتأخر عنه. هكذا وجب على المرء ان يضحي في سبيل المجتمع جزءاً من أمواله، ومن راحته، ومن حريته، بل ان يجود عند الاقتضاء بدمهِ وحياتهِ في سبيل الدفاع عنه وصيانتهِ.

ويقابل واجبات الأفراد نحو المجتمع ما لها أيضاً عليه من حقوق كثيرة مقدسة. فعلى المجتمع ان يساوي بين الأفراد في توزيع الوظائف والضرائب، وفي المحافظة على الأرواح والأموال والحريات الدينية والثقافية والعائلية والشخصية؛ وعليه ان يتحاشى المحسوبية والحزبية والمصلحة الذاتية الفردية. وهذا ما يدعوه الشرع بالعدل الاجتماعي. فتتم بذلك سعادة المجتمع وراحته وكفايته.

أما العدل الفردي فهو الذي ينظر في حقوق الأفراد بعضهم نحو بعض. فعلى كل فرد ان يحترم حقوق الآخر الأساسية. فان لكل فرد الحق على التمتع بحياتهِ، وبحرية معتقدة، وبكيان عائلته، وبصيانة ملكهِ، وبضمان راحتهِ، وبالمحافظة على صيتهِ، وباحترام شرفهِ وسمعتهِ. ويطول بنا الشرح إلى ما لا نهاية له لو أردنا أن ننظر مآل هذه الحقوق حقاً حقاً، وفي كيفية صونها وخدمتها فهذا من اختصاص المؤلفات الكبرى الفلسفية والأدبية. إنما نكتفي باستعراض المبادئ الأساسية التي هي قوام هذه الفضيلة الرئيسية.

البحث الثاني

فيما تأمر به وتنهى عنه فضيلة العدل

ان للناس على بعضهم في دنياهم حقوقاً شتى، منها مادية ومنها أدبية.

فالحقوق المادية تشمل كما قدمنا حق الإنسان على الحياة وعلى ما له من ملك أو مال.

لذلك يترتب على الإنسان ان يترفع عن كل ما هو سرقة، إن كبيرة وان صغيرة. وان يطبع في قلب بينهِ ومرؤوسيه وذويه احترام مال القريب. وعلى التجار والصناع ان يصونوا تجارتهم وصناعتهم وبضاعتهم وحساباتهم من أنواع الغش والخداع في الكمية والنوع والصنف وجوهر الشيء، ولاسيما فيما كان منه مغلَّفاً أو مستوراً لا يبدو للعيان، أو لا يقدر ان يصل إلى معرفتهِ وتمييزه كل إنسان. ويجب ان تكون الأسعار معتدلة، والأرباح مقبولة، متناسبة مع السوق ومع الشراء. فلا نستفيدنّ من سذاجة البائع فغبنه حقه في الثمن ونشتري منه سِلَعَه بابخس الأسعار لنعود فنبيعها بأرفع الأثمان. وينبغي ان لا نجازف بأموالنا، وعلى الأخص بأموال غيرنا، فنضرب ضرباً كبيراً، طمعاً بمرابح فاحشة، ونعرض ذواتنا وغيرنا لخسائر فادحة. فلكم كسَّرت مثل هذه العمليات الجنونية من محلات تجارية، وألقت بالألوف من الناس على الحضيض، وخرَّبت بيوتاً كثيرة لعمالٍ وأرامل وأيتام وسقماء أصبحوا عرضة للفقر والفاقة بسبب طيش بعض أصحاب المتاجر والمصارف.

وعلينا أيضاً ان نحاذر استدانة الأموال عندما نكون عارفين أو مقدّرين ان لا طاقة لنا على وفائها. فإذا ما اقترضنا مالاً "قرضة حسنة لوجه الله" أو أخذناه كدين بفائدة مشروعة، وجب علينا ان لا نماطل بوفائهِ في وقتهِ، وبإعادتهِ لأصحابهِ في الميعاد المتفق عليه. لأن التسويف والمماطلة نوع من السرقة.

وعلينا ان نصون ما نكون قد أخذناه من القريب على سبيل الإعارة، وان نُعنى به عنايتنا بشيئنا، وان نرده في حينه. وإلا نكون قد ساهمنا في نوع السرقة بسبب إهمالنا وتوانينا.

وإذا سببنا عمداً بعض الضرر للقريب، فالعدل يقضي بان نعوّض عليه خسارته؛ وإلا فلا مغفرة لنا في دنيانا ولا في آخرتنا. ان لم نكن قد ندمنا وتعذر علينا التعويض لقلة ما بيدنا. وأما لو صدر ذلك منا عفواً وبغير قصد ولا إهمال، فلا حق لقريبنا علينا بشيء. من العوض. إلا ان الكاملين من المسيحيين لا يتوانون في تعويض بعض الشيء في ظروف كهذه، على قدر وسعهم وطاقتهم.

ومن العدل والحكمة معاً ان ننظم شؤوننا ونرتب أمورنا، حتى إذا ما فاجأتنا المنية بغتة لا يلحق أحداً ضرر ما بسبب ما يكون لدينا من ودائع، أو أمانات، أو ديون أو دراهم، أو أي شيء من أمثال هذه للناس، أو للجمعيات الخيرية، أو للمؤسسات التقوية.

وعلى الكهنة ان يكون لديهم سجلات منظمة يدونون فيها بكل ضبط ودقة جميع ما يقدم لهم من القداديس مع بيان حسناتها، وكل ما يعطى لهم من المساعدات في سبيل المشاريع الخيرية أو التقوية مع بيان كميتها ونوعها؛ وان يعينوا، وهم في قيد الحياة، من ينوب عنهم بد وفاتهم في تأدية الحقوق المؤتمنين عليها لأربابها. والأفضل لكل أسقف ولكل كاهن ان ينظم وصيته في حياته، على حسب الأصول المشروعة في بلاده، فيأمن التلاعب في مخلفاته من بعده. فيكون قد أمنَ بذلك تأدية ما عليه من الواجبات، وصان سمعته وأرضى ربه في الحياة وبعد الممات.

أما حقوق الإنسان الأدبية التي يجب من باب العدل احترامها وتأديتها، فهي صون شرف اسمه وحسن صيته وسمعته.

(أ) لذلك وجب علينا أولاً ان نطرح جانباً عنا الدينونة الباطلة التي نحكم بها على قريبنا، مستندين إلى ما نراه، أو ما قد يتراءى لنا أحياناً أننا نراه، من ظواهر أفعالهِ وظروف حياتهِ. فلا يسوغ لنا ان نحكم بمجرد ذلك عليه. لأننا لا نعلم نياته، ولا مقاصده، ولا الباعث الذي حمله على ذلك العمل، ولا الأحوال النفسية والبواعث الخارجية التي دفعته إلى ذلك. فان الله وحده هو علام الغيوب وفحَّاص القلوب. ويا ما كانت الظواهر خداعة، ان في الخير وان في الشر. فلنترك الحكم فيها لله. وكثيراً ما يأتي الإنسان عملاً يظنه خيراً فيكون وبالاً، أو يصبح شراً. فلا تقع تبعة ذلك الشر أذاً عليه. فكيف يسوغ لنا، ونحن ننظر فقط إلى الظواهر، ان نحكم بالسوء عليه. ولذلك قال الرب كلمة عميقة في معناها، سامية في مغزاها: "لا تدينوا لئلا تدانوا"[1]. وقال بولس الرسول: "مَن أنت حتى تدين عبد غيرك أنه لمولاه يثبت أو يسقط"[2].

ثم أليس ان حكما كثيراً ما نبنيه ليس على الظواهر الخداعة فحسب، بل أيضاً على أهوائنا وأميالنا وأنانيتنا وبغضنا وحسدنا وتحزُّبنا. وهكذا يكون ناقصاً، بل يكون مراراً كاذباً وجائراً ومجرماً. فالعدل يقضي، والمحبة أيضاً، والطاعة لوصية الله أيضاً، بان نترك الحكم لله، وان نعذر القريب في سلوكه وفي عملهِ.

(ب) وفضيلة العدل توجب علينا ثانياً، ان نتحاشى الغيبة والنميمة. فلا يجوز لنا ان نكشف عيوب الناس أمام الناس، ولا ان نشهرَ ذنوبهم، ولا ان نبين من أحوالهم ما يحط من قدرهم ولا نظهر ما من شأنهِ ان يعود إفشاؤه ضرراً عليهم، أو يسبب غماً لهم، أو يمسُّ كرامتهم، أو يضعف ثقة أقرانهم بهم، فيصبحون مراراً كثيرة من جراء ذلك عرضة للخسارة ولأضرار ربما لا تعوَّض. فكم من نظرة، أو إشارة، أو كلمة أوقدت ناراً عظيمة ذهبت ضحيتها أنفس عديدة بريئة كريمة.

ولكي نروّض نفوسنا على الامتناع عن النميمة فلتكن عيوننا دائماً وذنوبنا نصب أعيننا. ولنتذكر قول الرب: "ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك"[1]. وقوله أيضاً للشيوخ الفجار الذين جاؤوه يشكون المرأة الزانية: "من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويرمها بحجر"[2].

وإذا تصفحنا سيَر القديسين نجد لهم هذه الميزة الكبرى أنهم كانوا يصونون طَرفهم عن نقائض القريب، ولسانهم عن عيوبهِ، ويعذرون ضعفه، ويخشون ان يحكموا عليه بالسوء، لئلا يجربوا هم أيضاً ويسقطوا.

أما إذا اضطرتنا الأحوال إلى إظهار عيوب القريب أو ذنوبه، امام من له الحق على معرفتها، وبيده السلطان لردعهِ وتهذيبه وإصلاحها، فلا يكون ذلك من باب الظلم، بل من باب العدل، والمحبة الأخوية، والشفقة المسيحية.

(ج) أخيراً إذا كانت واجبات العدل ومعها المحبة الأخوية تقضيان بان لا نَشهَر ما نعرفه من نقائض القريب، فبالأحرى كثيراً وجب علينا ان نمسك لساننا عن الافتراء عليه زوراً وبهتاناً بما ليس فيه، مما يمسّ حقوقه الزمنية والأدبية. ان الافتراء هو اختلاق الأكاذيب بحق القريب. وهو أثم فظيع لا يبرره مبرر، ولا يقره شرع من الشرائع، وتعاقب عليه قوانين الشعوب المتمدنة كلها، كما يعاقب عليه الله في الدنيا وفي الآخرة.

---

[1] متى ٧: ١.
[2] رومية١٣: ٤.
[1] متى٧: ٣.
[2] يوحنا ٨: ٧.

وفوق ذلك يلتزم من سبب أضراراً للقريب في مالهِ، أو في شرفِه أو في صيتهِ، بدافع الكذب والافتراء ان يسرع إلى تعويض الضرر الذي سببه، وإلا فلا مغفرة له عند ربهِ. ولما كان التعويض في مثل هذه الأحوال عسراً شاقاً، ولاسيما فيما يعود إلى الحقوق الأدبية من حيث الصيت والسمعة والمكانة، كان الأجدر بنا ان نتحاشى مثل هذه الفظائع، وان لا نفتري على قريبنا بالأكاذيب ظلماً وبهتاناً.

هذا موجز ما تأمر به وتنهى عنه فضيلة العدل الأدبية المسيحية الفائقة الطبيعية، اعني التي لا ترغب في إقامة العدل وتقديسه لأنه خير عظيم اجتماعي فحسب، بل أيضاً لأن الله يأمر به ويرضى عنه ويكافئ فاعله.

إلا ان المسيحي الذي يرغب في الكمال، ويريد ان يصل حقاً إليه، عليه ان يتجاوز فضيلة العدل إلى فضيلة المحبة، فيكون قد ضمن لنفسه حق القيام بأفعال فضيلة العدل. لأن المحبة الأخوية تحرص على التنازل حتى عن الحقوق المشروعة في سبيل القريب فتكون قد أدت له بذلك أكثر من حقوقه. وعندما نفعل هذا محبة لله ولأجل تمجيده تعالى، يتحقق الكمال الذي ينشده الرب يسوع في أنجيله وفي تعليمه، ويأمر به اخصاءَه وتلاميذه والمؤمنين به.

وفضيلة العدل هي، على الأخص، من أكبر فضائل الكهنة والرهبان والناس الأتقياء. لأنهم بمقتضى حالهم طلاب كمال، وقادة الشعب في طرق الفضائل، ومثال صالح في كل الأحوال؛ ولما كان العدل من الفضائل الاجتماعية البارزة، كان خيرَ ما يتحلى به رجال الله في حياتهم ومعاملاتهم ومعاطاتهم مع الناس من كل الطبقات ومن الملل. لأن التعاليم المسيحية تعني بكلمة" قريب" كل إنسان مهما كان منشأة ووطنه ومعتقده.

حوادث تاريخية

الرسولان بطرس ويوحنا أمام محفل اليهود[1]

"وصعد بطرس ويوحنا معاً إلى الهيكل لصلاة الساعة التاسعة. وكان رجل أعرج من بن أمخ يحمل، وكان يوضع كل يوم عند باب الهيكل الذي يقال له الحسن، ليسال صدقة من الداخلين إلى الهيكل. فلما رأى بطرس ويوحنا مزمعين ان يدخلا الهيكل سألهما صدقة. فتفرس فيه بطرس مع يوحنا وقال: انظر إلينا. فأصغى إليهما مؤملاً ان يأخذ منهما شيئاً. فقال بطرس: ليس لي فضة ولا ذهب. ولكني أعطيك ما عندي. باسم يسوع المسيح الناصري قم وأمشِ. وأمسكه بيده اليمنى وأنهضه. ففي الحال تشددت ساقاه ورجلاه فوثب وقام وطفق يمشي ويسبح الله. فرآه جميع الشعب يمشي ويسبح الله. وكانوا يعرفونه انه هو الذي كان جالساً لأجل الصدقة عند باب الهيكل الحسن. فامتلأوا انذهالاً ودهشاً مما وقع له.

"وفيما هو متعلق ببطرس ويوحنا تبادر إليهم الشعب كله إلى الرواق المسمى رواق سليمان وهم منذهلون. فلما رأى بطرس ذلك أجاب الشعب: يا رجال إسرائيل، ما بالكم متعجبين من هذا ولماذا تتفرسون فينا كائنا بقوتنا جعلنا هذا

[1] أعمال ٣و ٤.

يمشي. ان اله إبراهيم واسحق ويعقوب اله آبائنا قد مجد فتاه يسوع الذي أسلمتموه انتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاصس وقد حكم هو بإطلاقه. فأنكرتم انتم القدوس الصديق وسألتم ان يوهب لكم رجل قاتل قتلتم مبدئ الحياة الذي أقامه الله من بين الأموات ونحن شهود بذلك. وهذا الذي تنظرونه وتعرفونه بالإيمان باسمه شدده اسمه، والإيمان بواسطته هو الذي منحه هذه الصحة التامة أمامكم أجمعين".

"وفيما هما يخاطبان الشعب اقبل عليهما الكهنة ووالي الهيكل والصدوقيون مشئزين لتعليمهما الشعب وتدائهما في يسوع بالقيامة من بين الأموات. فالقوا عليهما الأيدي ووضعوهما في الحبس إلى الغد إذ كان قد أقبل المساء.

"وان كثيرين من الذين سمعوا الكلمة آمنوا فصار عدد الرجال خمسة آلاف". وفي الغد اجتمع في أورشليم رؤساؤهم والشيوخ والكتبة وحنان رئيس الكهنة وقيافا ويوحنا ولاسكندر وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء. الكهنة. ولما أقاموهما في الوسط سألوهما: بأي قوة أو بأي اسم صنعتما هذا.

"حينئذ قال لهم بطرس وهو ممتلئ من الروح القدس: يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل، ان كنا نفحص اليوم عن إحساننا إلى رجل سقيم بماذا يرى. فليطن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه انتم، الذي أقامه الله من بين الأموات، بذاك وقف هذا أمامكم متعافياً. هذا الحجر الذي ازدريتموه أيها البناؤون الذي صار رأساً للزاوية. وليس بأحد غيره الخلاص. لأنه ليس اسم آخر تحت السماء ممنوحاً للناس به ينبغي ان نخلص.

"فلما رأوا جرأة بطرس ويوحنا وعلموا أنهما امّيان وعامّيان تعجبوا وكانوا يعرفونهما أنهما كانا مع يسوع. وإذ نظروا الرجل الذي شُفِيَ واقفاً معهما لم يكن لهم شيء يقولونه في ذلك. فأمروهما بالخروج من المحفل وأتمروا فيما بينهم قائلين: ماذا نصنع بهذين الرجلين فقد جرى على أيديهما آية مشهورة ظاهرة لجميع سكان أورشليم ولا نستطيع إنكارها. ولكن لئلا تزداد شيوعاً بين الشعب فلنتهددهما ألّا يكلما أحداً من الناس فيما بعد بهذا الاسم.

" ثم استدعوهما وأمروهما أَلّا ينطقا البتة باسم يسوع ولا يعلما به".

فهل اغرب من هذه النتيجة لما رأينا من المقدمات. هل تكون نتيجة الأعجوبة الباهرة، والإحسان العميم، التهديد والوعيد.

"فأجاب بطرس ويوحنا وقالا لهم: احكموا انتم. ما العدل أمام الله؟ ان نسمع لكم أم نسمع لله؟ فانا لا نقدر ان لا نتكلم بما ءايناً وسمعنا.

" فتهددوهما وصرفهما إذ لم يجدوا سبيلاً لمعاقبتهما خوفاً من الشعب. فان الجميع كانوا يمجدون الله على ما جرى. لأن الرجل الذي تمت فيه آية الشفاء. هذه كان له أكثر من أربعين سنة".

أونيا الكاهن الأعظم

وهليودورس[1]

كان أونيًا المكابي كاهناً أعظم، وكانت أورشليم على أيامه آمنة والشرائع محفوظة. وكان الله راضياً عن شعبه.

فطمع سلوقس ملك آسيا بالأموال المودعة في هيكل أورشليم، وحدثته نفسه بالاستيلاء عليها ظلماً واستبداداً. فاختار لذلك هليودورس قيم مصالحه وأرسله إلى أورشليم لتنفيذ أوامره ورغباته. وكانت هذه الأموال لأرامل وأيتام ولبعض أفراد الشعب الإسرائيلي. وكانوا أودعوها في الهيكل لثقتهم بحرمة بيت الله، صوناً لها من الضياع.

فجاء هليودورس مع نفر كثير من رجاله وطلب ان تُسلم إليه تلك الأموال. فدهش أونيا الكاهن لهذه الجسارة وهذه اللصوصة الوقحة، وأجاب بصراحة وشهامة: لا يجوز بوجه عن الوجوه هضم حقوق الذين ائتمنوا قداسة الموضع ومهابة الهيكل. لكن هليودورس أصر على حمل الأموال إلى خزانة الملك. وضرب موعداً لدخول الهيكل والاستيلاء على تلك الودائع.

فانطرح الكهنة أمام المذبح بحالهم الكهنوتية وأخذوا يبتهلون إلى الله بنفوس منكسرة لكي يصون قداسة بيته من ظلم الفجار المعتدين. واخذ الناس يتبادرون أفواجاً إلى الهيكل ويشاركون الكهنة في الصلاة والتضرع. وازدحمت النساء في الشوارع متحزمات بالمسوح، ورفعت العذارى، ربَّات الخدور، أيديهن إلى السماء بالتوسل والابتهال. فكان انكسار الكهنة والجمهور مما يصدع القلب ويثير الرحمة. فسمع الله لصراخ شعبه واتى لنجدته.

وجاء هليودورس على رأس رجاله ودخل الهيكل بكبر وجسارة ومدَّ يده إلى الخزائن يريد نهبها. وإذا بفرس يظهر فجأة وعليه فارس مخيف يرفل بجهاز فاخر. فوثب عليه، وضربه الفرس بحوافر يديه، وفي الوقت فوقفا على جانبيه وأخذا يجلدانه جلداً متواصلاً حتى أثخناه بالجراح. فسقط مغشياً عليه حتى أصبح آخر رمق. فحملوه وأخرجوه خارج الهيكل. وخاف أصحابه خوفاً عظيماً.

ولكن خالج قلب اونيا ان ربما اتهم الملك اليهود بمكيدة كادوها لرسوله ورجاله. فصلى إلى الله لأجل شفاء الرجل فشفاه الرب.

فقام لساعته واخذ رجاله وعاد مسرعاً إلى الملك، وقصَّ عليه ما جرى وقال له: "ان كان لك عدو أو صاحب دسيسة في المملكة، فأرسله إلى هيكل أورشليم. فيرجع إليك مجلوداً ان نجا. فان في ذلك الموضع قدرة إلهية لا محالة".

لا يترك الله الظلم والاستبداد والسرقة بلا عقاب. كما انه لا يصم آذانه عن صلاة التواضع والخشوع والانكسار.

[1] ٢ مكابيين ٣

«فرنسسكو روتـي»
عنوان الأمانة[1]

قصة فرنسسكو روتي هي من أروع قصص الأمانة والرشف. وتكاد تكون خالية في عصرنا الحاضر لولا ان البعض من أبطالها لا يزالون في قيد الحياة رواها غير واحد بتفاصيلها كلها.

نزح فرنسسكو روتي من ايطاليا إلى الولايات المتحدة في أوائل القرن الحاضر، على مثال الكثيرين من الايطاليين ومن السوريين واللبنانيين، طلباً للرزق. وبعد جهود جبارة من الكد المتواصل في مهنة القصابة ومن الإخلاص في العمل جمع ثروة صغيرة وفتح مصرفاً في الحي الايطالي في مدينة شيكاغو. وما لبث ان حاز ثقة الطبقة العاملة، فاخذوا يودعون فيه ما يدخرونه من المكاسب الضئيلة والتوفيرات القليلة، يحفظونها لمواجهة قدرات الزمان.

ولكن حدث يوماً من أيام شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٥ ما لم يكن في الحسبان. فان ثلاثة من اللصوص اقتحموا المصرف نحو العصر وداهموا روتي وحده في المصرف وشهروا عليه مسدساتهم. فأوثقوه وسلبوا من الأموال ما وصلت إليه أيديهم.

وانتشر الخبر كالبرق وأعلنته جرائد المساء في ملاحقها. فذعر العمال والعاملات أصحاب الودائع فازدحموا على باب المصرف يطلبون أموالهم، وهي حصاد عرق جباههم سنين طويلة ومحط آمال شيخوختهم.

فدفع روتي كل ما كان لديه. ثم صفَّى كل الممتلكات التي استطاع ان يصفيها، وأضاف إليها كل ريال يملكه، بل اقترض من أقربائه ما وسعه ان يقترضه. وبذل جهد اليائس ليوقف حركة سحب الودائع. لكن النفوس ظلت خائفة ثائرة. فأعلن إفلاسه. فكان من جراء ذلك ان مئتين وخمسين من أصحاب الودائع خسروا ١٨ ألف ريال.

وهكذا قضت السرقة التي لم تستغرق سوى ثلاث دقائق على عمل روتي وبيته ومدخراته. وتركته هو وزوجته وأطفاله الخمسة بغير عمل يرتزق ويعيش منه. ولم يبقَ لهم من حطام الدنيا سوى قطع قليلة من الأثاث واثني عشر ريالاً فقط لا غير. وانتقل روتي إلى بيت صغير حقير تبرع به أحد أصدقائه إلى حين. وهكذا عاد روتي إلى صف العمال كما كان.

إلا أنه إذا كان قد أضحى فقيراً في المال والعقار فلقد كان غنياً بقرة الإرادة ونشاط النفس والاستعداد للتغلب على نوائب الدهر. فعاد قصاباً كما كان وجدَّد كفاحه في الحياة. ولم يكتفِ بهذا بل أرسل إلى أصحاب الودائع الكلمة الآتية: "أتعهد لكم بتسديد ما لكم كاملاً متى صار ذلك في وسعي. فأرجوكم ان تثقوا بي".

وقال له صاحب مصرف آخر: "لست أنت الملوم يا روتي. فلقد كانت السرقة أشبه بمصيبة من مصائب القدر. واللوم كل اللوم على الناس أنفسهم. لأنهم هرعوا إلى سحب ودائعهم فأفضى ذلك إلى إفلاس المصرف". فرد عليه روتي بقوله: قد لا يكون هذا الدين ديناً في عرف القانون. ولكنه دين في عرفي أنا. أنه دين شرف".

[1] مجلة "المختار" شهر تشرين الأول سنة ١٩٤٧

وقام روتي يحرص على" صندوق دين الشرف" أعظم حرص. فكان يودع فيه القروش والملاليم. وكان يركب دراجته كل يوم إلى مقر عمله في حانوت القصاب. وفي أيام الثلج كان يذهب ماشياً على رجليه. والمسافة ثلاثة أميال. وفي الليل كان يعمل اسكافياً ويرقع أحذية جيرانه. وكان أولاده الكبار يبيعون الصحف ويودعون ما يكسبونه في "صندوق الدين".

فلما تجمع لدى روتي مبلغ بضع مئات من الريالات قرر توزيعها على الدائنين. ولكن كيف يوزعها وبمن يبدأ؟ فأراه الله ذات ليلة كيف يتصرف. فلقد جاءه في تلك الليلة نبأ دائن من دائنيه أصيب بمرض خطير، وهو في أشد البؤس مع زوجته وأولاده. وكان المصرف مديناً له بمبلغ ١٧١ ريالاً. فهرع روتي إلى المريض وسدَّد له كل دينه دفعة واحدة. فعانقه الرجل ودموع الشكر تنهر من عينيه. فاتضح لروتي المنهج الأفضل الذي يجب ان يسير عليه، وهو ان يبادر إلى تسديد حساب من هو أشد حاجة إلى مالهِ قبل غيره.

وبعد أشهر قليلة، علم روتي بحالة أرملة من دائناته أصبحت مريضة وقد رزحت تحت أثقال عائلة كبيرة. وكان المصرف مديناً لها بمبلغ ٣٩٠ ريالاً. فذهب إليها ودفع لها مئة ريال واتفق معها على ان يدفع لها الباقي أقساطاً شهرية كل قسط ١٠ ريالات وهو المبلغ المطلوب منها ايجاراً للقبو الذي كانت تسكنه.

وبقيَ روتي على وعده يفي دائنيه سنة بعد سنة مدة ثلاثين سنة، حتى وفي مبلغ الثمانية عشر ألف ريال التي كان مصرفه مديناً بها.

وحدث مرة، وكان قد مضى عشرون سنة على إفلاس المصرف، أنَّ رَبَّ عائلة كاد يستسلم لليأس لأن مصلحة الضرائب تنوي ان تبيع بيته تسديد لمطلوبها منه. فتذكر الرجل ان كان له مال في مصرف روتي. فكتب إليه يستنجده. فلم تنقضِ أربع وعشرون ساعة حتى كان الدين مدفوعاً. وبقي روتي يسعى هؤلاء وأولاده مدة خمس وعشرين سنة بلا كلل ولا ملل حتى عادت إليه بحبوحة العيش. فصارت مهمته ان يبحث عن الدائنين القلائل الذين لم يأخذوا حقهم منه، أو عن ورثتهم.

وراح يعلن في الجرائد وفي مكاتب السماسرة وعند شركات التأمين، ويبحث في سجلات المواليد والوفيات وفي كشوف المدارس والمعاهد لكي يتوصل إلى معرفة مقر من تبقى من دائنيه. فما لبث حتى جاءته رسالة في نشرة إحدى شركات الأخبار هدته إلى ثلاثة في كاليفورنيا كان قد طال بحثه عنهم. فلما استوثق من أشخاصهم ومن المبالغ التي تستحق لهم، أرسل إليهم ما لهم. فقبل الأول المال وهو ١٢٩ ريالاً وبعث يشكره. أما الثاني فرد إليه المبلغ وهو ١٥٠ ريالاً شاكراً وطلب إليه ان يوزعه على الفقراء. والثالث رد إليه المبلغ أيضاً، وهو ١٣٠ ريالاً، ورجاه ان يوزعه على أولاده.

وأعلن قسيس الحي في الكنيسة يطلعوا روتي على كل إنسان يكون له عليه دين. وكان قد مضى على حادث الإفلاس ثلاثون سنة. فجاءَت روتي امرأة عجوز وأخبرته بأنها تعرف زوجين عجوزين هما في أشد حالات البؤس، وكانا قد ذكرا أمامها ان لهما على مصرف روتي مالاً. وهما يقطنان بلدة تبعد مسافة تسعين ميلاً.

فركب روتي إلى تلك البلدة وكان الثلج يغطي الدنيا. فوجد العجوزين وكان الرجل قد أوشك يفقد البصر، وكانت المرأة طريحة الفراش. فاخبرهما روتي من غاية زيارته. فأخذ الرجل يبكي من فرط تأثره. لكنه تردد وقال: أنه فقد كل مستند يبرزه ليثبت به حقه. فطمأنه روتي ودفع له المال على آخر قرش. فعادت إلى العجوزين روحهما الفانية من شدة الفرح.

وفي آخر سنة ١٩٤٦ التأم شمل أسرة روتي بعد ان فرقتها الحرب فوجدوا في "صندوق دين الشرف" مبلغاً من المال يزيد على ما بقي من الدين للدائنين. فاقترح احدهم: "لنرسل إلى كل فرد من المودعين الباقين بطاقة معايدة مع تحويل بالمبلغ المستحق له". وهكذا صار. فأرسلوا المبالغ مع هذه البطاقة: "تحية من أسرة روتي ١٩١٥– ١٩٤٦".

" في سنة ١٩١٥ اضطر أبونا فرنسسكوروتي ان يغلق "مصرف التوفير الغربي" بعد حادثة السطو عليه. ولكنه وعد المودعين ان يردَّ إليهم يوماً مالهم، وقد كانت رغبته الصادقة ورغبتنا نحن أيضاً في بحر هذه السنين ان ننجز هذا الوعد. وانه لمن دواعي سرورنا ان نكون قد وفينا بوعدنا. فنهنئكم بالعيد ونتمنى لكم ان تعود عليكم الأعوام بالصحة والسعادة".

فلما أرسلت البطاقة الأخيرة تنهد فرنسسكوروتي وقال: "لقد خفرت ذمتي ووفيت بوعدي. فأنا الآن طليق مرتاح البال".

الفصل الثالث ف
ي فضيلة العبادة

فضيلة العبادة هي فرع من فضيلة العدل، لأنها تحملنا على أداء ما يتوجب علينا من الإكرام لله صاحب الحقوق الكبرى على البشر. ولكن لما كان ليس في مقدورنا، ونحن خليقة، أن نؤدي له تعالى كاملاً، لكونه مبدعنا، وخالق الجميع، ورب السماوات والأرض، كانت العبادة شيئاً من العدل، وإن لم تكن كل العدل.

وسيتناول بحثنا طبيعة فضيلة العبادة، وضرورتها، وكيفية القيام بها.

البحث الأول
في طبيعة فضيلة العبادة

١. بيانها: العبادة هي فضيلة أدبية فائقة الطبيعة تحمل إرادتنا على تقديم الإكرام الواجب لله لأنه كامل الصفات ورب الجميع.

فهي تتميز نعن الفضائل الإلهية التي إنما موضوعها الله مباشرة. أما هذه فإن غايتها الإكرام الواجب له تعالى في السر والعلانية. إلا أنها تعتمد على الفضائل الإلهية في عملها، فلا قيام لها إلاّ بها. فإن الإيمان هي التي ترشدها إلى طبيعة الله، وإلى صفاته، وكمالاته، ومحبته لنا، وسلطته علينا، وحقوقه على جميع مصنوعاته. ولا تكمل العبادة إلا بفضيلة المحبة. لأن لا معنى لإكرام الله بدون محبة الله. فالعبادة هي زهرة الفضائل الإلهية، والعَرف الذي يفوح منها كلها.

فغاية العبادة إذاً هي إكرام الله الأزلي، الفائق الكمال، القادر على كل شي، خالق الجميع، ورب الكائنات. "فلنسبح الرب تسبيحاً ونرنم نشيداً جديداً لإلهنا. أيها الرب أدوناي، إنك عظيم شهير بجبروتك ولا يقوى عليك احد. إياك فلتعبد خليقتك بأسرها لأنك أنت قلت فكانوا. أرسلت روحك فخُلقوا، وليس من يقاوم كلمتك"[١].

٢. أنواعها: تقوم فضيلة العبادة بأفعال داخلية قلبية، وبأفعال علنية خارجية.

فالأفعال الداخلية هي التي تتكون في القلب وتصدر عن القوى العقلية، وهي أساس العبادة المسيحية. وقوامها أولاً فعل السجود للعزة الإلهية القادرة الخالقة، ثم فعل الشكر له تعالى لأنه المحسن الجواد، العطوف على عباده، الرؤوف عليهم وعلى ضعفهم وفقرهم، ثم فعل الاستغفار من رجمته على ما أَسأنا به إليه، ثم فعل الطلب بالصلاة والابتهال، لأنه هو الغني الكريم، ونحن أحوج ما نكون ومواهبه.

وهذه الأفعال الداخلية التي بها نناجي خالقنا، والمحسن إلينا، الغفور لمعاصينا، المصغي إلى توسلاتنا وابتهالاتنا، ونكرمه بالسجود والشكر والاستغفار والصلاة، لا يكفي أن تبقى سرّاً مكتوماً في قلوبنا، وإكراماً دفيناً في صدورنا، بل

[١] يهودت، ١٦: ١٥-١٧

يجب أيضاً أن تبدو في أفعالنا الخارجية، وتتلألأ في حياتنا العلنية. وأجلُّ فعل علني نكرم به العزة الإلهية هو ذبيحة القداس السامية. لأنها ذبيحة يسوع المسيح الإله المتانس الذي أخذ جسداً كأجسادنا في أحشاء العذراء النقية، ومات على الصليب لكي يقدم لأبيه السماوي الإكرام الفائق عنا ولأجلنا، ولكي يفتدينا ويكفر عن خطايانا ويقدس نفوسنا، وهو يذبح كل يوم على هياكلنا مجدِّداً بهذه الذبيحة لإلهية السرية ذبيحة الصليب الدموية.

فذبيحة القداس الإلهي هي أجلُّ فعل سجود نسجد به لله، لأننا نسجد مع يسوع المسيح لعزة الثالوث الإلهية القادرة المبدعة. وهي أعظم فعل شكر نقدمه لله إقراراً بجميله علينا وإحسانه إلينا. وهي أقوى فعل استغفار نرجو به تجاوزه تعالى عن ذنوبنا ومعاصينا. وهي أكرم فعل صلاة وطلب نرفعه إلى عرشهِ الإلهي في استمطار غيث مواهبه علينا. فالقداس الإلهي هو خلاصة الديانة المسيحية بكل ما فيها من عظمة وجمال وروعة وكمال. وهو العبادة الوحيدة التي تأمرنا الكنيسة المقدسة بممارستها تحت طائلة الخطأ المميت أيام الآحاد والأعياد الكبرى الرئيسية.

ومن بعد القداس الإلهي فإن عبادتنا لله تقوم بحضورنا الاحتفالات الكنسية، والصلوات الطقسية، والزياحات، والخويات، وساعات السجود الخشوعية، والحفلات الرائعة التي تنظمها الكنيسة في بعض الأعياد السيدية أو التذكارات الخصوصية، والطقوس البديعة في الميلاد، والصوم الكبير، وأسبوع الآلام، والفصح المجيد، والعنصرة، وصلوات الغروب والأغربنية في ليالي الأعياد الكبرى، وغير ذلك من الحفلات التي تعنى الكنيسة المقدسة بوضعها وترتيبها وتنظيمها لتكون شعار عبادتنا لله في ثالوثهِ الأقدس، وإكراماً للسيد المسيح في لاهوتهِ وناسوتهِ، وإقراراً بما أفاضه تعالى من نعم غزيزة سنية على أصفيائهِ وقديسيه. وهي في جمالها وروعتها وتنويعها وتنظيمها أفضل باعث لنا على تغذية فضيلة العبادة في حياتنا.

وعبادتنا لله تقوم أيضاً بصلواتنا الفردية والعائلية، وببعض العادات التقوية الخصوصية، نظير اجتماع العائلة كل مساء للصلاة أمام بعض الأيقونات المقدسة، وتلاوة السبحة الوردية، والإشراك بالأعمال الروحية، آن في البيت وآن في الكنيسة، في شهر آذار (مارس) إكراماً للقديس يوسف البتول، وفي شهر أيار (مايو) إكراماً للعذراء مريم المجيدة، وفي شهر حزيران (يونيو) إكراماً لقلب يسوع المقدس، وفي شهر آب (أغسطس) إكراماً للآم البتول أيضاً في طقسنا البيزنطي. وغير ذلك من العادات التقوية الحميدة كتقديم الزهور، وحرق البخور، وتزيين الكنائس، وما إلى ذلك من أنواع العبادات والإكرام التي ترشدنا إليها محبتنا لله وشكرنا لآلائِه وطلبنا لرحمتهِ وحنانهِ.

فيتضح مما تقدم أن فضيلة العبادة هي أجلّ الفضائل الأدبية عملاً، وإكراماً شأناً، وأرفعها مقاماً، لأنها تقربنا إلى الله أكثر من غيرها، وتمتزج في كمالها بفضيلة المحبة الإلهية السامية.

البحث الثاني
في ضرورة فضيلة العبادة

إن ضرورة فضيلة العبادة تبدو جلياً إذا ما نظرنا إلى من هو الله في طبيعته وسلطانه وكمالاته، وإلى ما هي الخليقة التي أبدعها بتفضله ورحمته، وجعلها على الأرض بشراً وحيواناً ونباتاً وجماداً.

إن للصانع ملء السلطان على ما صنعت يداه. فصنعه هو ملكه، وهو ينادي بقدرته وأهليته وذوقه واستعداده ودرجة حذاقته. وللصانع أن يتصرف بمصنوعاته بكامل حريته، فإنها تخضع لإرادته، كما أنها تنطق بصفاته، وهي عنوان مجده وافتخاره. فحقوق الرسام لا تنازع على رسومه، والمصور على صوره، والأديب على شعره وتأليفه، والنجار والحداد والاسكافي والزارع وسواهم كل منهم على مصنوعاته ومزروعاته.

ولذلك نرى في عالم الدنيا المتمدنة أن الحكومات تحمي حقوق الناس في مؤلفاتهم واختراعاتهم ومصنوعاتهم، وتقيم أنواع المعارض الصناعية والزراعية، وأسواق الفنون الأدبية، لتظهر مؤهلاتهم، وتكافئ من برز بين الصفوف منهم في علم، أو فن، أو صنعة، أو تجارة، أو زراعة، إقراراً منها بفضله وحقوق على علمه.

فإذا كانت هكذا حقوق الصناع في الدنيا، الذين رغم تعبهم وجدهم وبراعتهم لا يقدرون مع ذلك أن يعلموا إلا في مادة موجودة وقوة مخلوقة، فيبدلون شكلها، أو يكثرون كميتها أو يثيرون فيها كوامن قوتها وفعلها، إلا أنهم لا يبدعونها إبداعا، أي أنهم لا قدرة لهم في إيجاد شئ كان عدما فأصبح موجودا، فماذا نقول في الصانع الأكبر وفي حقوقه على عمل يديه؟ ذاك الذي قال للدنيا كوني فكانت، وخرجت مسرعة من العدم إلى الوجود وفي حضرته مثلث، الذي نثر الكواكب في الآفاق كانت مصابيح معلقة في كبد السماء، الذي فجر عيون المياه من الأودية والجبال، وساق الأنهار في الفيافي والأمصار كأنها قطعان من الأغنام، الذي مد على الأرض البحار، وفصل ما بين الليل والنهار، الذي أرسل النسور والبلابل في الفضاء، والسباع والحملان في كل الأرجاء وأبدع من كل فن عظمة وكل جمال وكل بهاء.(اللابس النور مثل الثوب، الباسط السماء مثل الخيمة)[1]. إن السماوات تنطق بمجده والفلك يخبر بأعمال يديه. إن الدنيا هي له بمالها وكنوزها وجمالها وروعتها. وهي تبدي عظمته وقدرته وحكمته وعنايته: (ما أعظم أعمالك يا رب لقد صنعت جميعا بالحكمة)[2]. فجمالها يعظمه، وصفاتها تثني عليه، وألحانها تسبحه، وهناؤها يشكره على عطفه وحنانه، وأصواتها تتصاعد إليه إناء الليل وأطراف النهار، مسبحة مهللة مباركة مرنمة بتغريد الأطيار، ونغمات الأنهار،وعرف الإزهار، وحفيف الأشجار، ولمعان الأنوار، وهدير البحار. فالدنيا كلها سماؤها وماؤها ونباتها وحيوانها ليست سوى نغمة تسبيح واحدة دائمة أبدية تثني على بارئها ومبدعها.

إلا أن الله جعل لهذه الدنيا ملكا يسودها. أبدعه من ترابها، ولكنه نفخ فيه نفسا حية عاقلة يعرفه بها ويعرفها. ومنحة الفهم والإرادة والعقل والحرية ليعرفه ويتفهم إيحاءاته ووصاياه، ويذهب إليه بكل رضاه. ثم سلمه السلطان على الدنيا، على أن لا ينعم بها فحسب، بل يقودها إليه تعالى، ويقود نفسها معها. فإذا كانت الدنيا بعظمتها تذيع بعظمة خالقها، وبنظامها تنبئ عن حكمته، وبخيراتها غناه ورحمته، أفلا يكون الإنسان، وهو الدنيا الصغيرة البديعة الرائعة العاقلة،

[1] مزمور، ١٠٣: ٢.
[2] مزمور، ١٠٣: ٢٤.

أفلا يكون هو الكبارة الأولى التي تسبح خالقها بفهم ومعرفة ورضى ومحبة. أفلا يكون هو حبر الدنيا التي لا تعقل، فيسبح عنها ويسجد باسمها، ويشكر عنه وعنها، ويذيع بمراحم هذا الخالق بفمه وفمها.

طالما العمل ينطق لذاته بجودة عامله، فإن الإنسان بطبيعة حاله ووجوده على الأرض ينطق بقدرة الباري وحكمته وعنايته. إلا أن الحق يقضي بأن هذا الإنسان العاقل يسبح ربه ويعبده عن رضى ومحبة. فعبادة الإنسان لله صانعه ومبدعه هي إذا حتما واجبة. هي واجبة عنه وعن واجب الدنيا التي لا تعقل. إن الله سلمها إلى إدارته وسلطانه ومنفعته واستعماله، ووكل إليه أن يتكلم عنها، وأن يقدم له تعالى واجبات العبادة باسمه وباسمها. لذلك يقول المرتل: [٣]

(سبحوا الرب من السماوات، سبحوه في الأعالي. سبحيه أيتها الشمس والقمر. سبحيه أيتها الكواكب والنور. سبحيه يا سماء السماوات، والماء الذي أعلى فوق السماوات. فلتسبح لأسم الرب. لأنه هو قال فكانت. وهو أمر فخلقت. سبحي الرب من الأرض أيتها التنانين وجميع اللجج، النار والبرد، الثلج والجليد، الرياح العاصفة الصانعة كلمته، الجبال وجميع التلال، الخشب المثمر وسائر الأرز، الوحوش وكل البهائم، الدبابات والطيور المجنحة. ملوك الأرض وكل الشعوب، الرؤساء وكل قضاة الأرض، الإحداث والعذارى، الشيوخ مع الشباب فليسبحوا اسم الرب).

فإذا كانت فرض العبادة هو من حقوق الله على الإنسان، فهو بالأحرى كثيرا من حقوقه تعالى على الكهنة الذين أختارهم من بين أخوتهم، ودعاهم إلى خدمته، وكلفهم أن يمثلوا البشرية بين يديه وأمام عرشه. فالكاهن هو الذي يقدم ذبيحة القداس الإلهية للعزة الواحدة المثلثة الاقانيم الصمدانية، يقدمه عنه، وعن البشرية، وعن الدنيا بأسرها، عبادة سجود فائق، وشكر سام، واستغفار كامل، ودعاء شامل.هو الذي أقيم(ليبارك الرب في كل وقت، وفي كل ساعة يسبحه) [١] فالكاهن هو الوسيط المقبول بين الله والناس. فالعبادة هي إذن من كبرى واجباته، بل هي من اختصاص دعوته ووظيفته وحياته.(فإن كل حبر متخذ من الناس يقام لأجل الناس قيما هو لله ليقرب تقادم وتذابح عن الخطايا... لأن الله قد دعاه حبرا على رتبة ملكي صادق). [٢] لذلك يترتب على الكاهن أن يقدم الذبيحة الإلهية، ويتلو صلوات الفرض الإلهي، بكل مل أوتي من فطنة وانتباه وعاطفة وتواضع، ليقوم قياما لائقا بتمثيل الدنيا كلها أمام خالقها ومبدعها، ويقدم لجلالة السامي جميل العبادة عنه وعنها.

[٣] مزمور، ١٤٨.
[١] مزمور، ٣٣ :١.
[٢] عبرانيين، ٥ :١و.١٠

البحث الثالث

في كيفية القيام بعبادة الله

تقوم عبادة الله بأفعال التقوى الحقيقية. فالتقوى هي حالة نفسية تجعلنا دوما مستعدين للقيام بكل ما هو إكرام الله وخدمته. فهي الطريقة العملية التي نعبر عنها هن محبتنا لله خالقنا وسيد وجودنا، والناس يقومون بممارستها على أنواع مختلفة، كل منهم على مقدار درجة الكمال التي وصل إليها.

فالمبتدئون يكرمون الله ويعبدونه أولا بحفظهم ووصاياه ووصايا كنيسته، وبتقديسهم أيام الآحاد والأعياد، ليس بحضور القداس فحسب، بل بشتى الأفعال التقوية والخيرية، وبابتعادهم عن الملاهي الخطرة، وبصيانة حياتهم من الطيش المسبب للخطيئة، وبحذرهم من الكسل الذي يقعد عن العمل، وبترويض نفوسهم على عادة استحضار الله في بدء أشغالهم وأعمالهم.

أما المتقدمون منهم في الكمال فيقومون بما ذكرناه أعلاه من الأعمال ولكن بعاطفة(روح العبادة). ورح العبادة هذا معناه إكرام العزة الإلهية بعاطفة التوقير والمحبة معا. فالتوقير هو مزيج من الاحترام والرهبة، أن الله خالقنا وسيدنا وألهنا، وهو رب الدنيا بأسرها، فعبادتنا له يجب أن تكون بخشوع واحترام وارتياح إلى ما له من السلطان علينا، ومن التحكم في مقدرات حياتنا. أما المحبة فهي عاطفة الابن الودود نحو أب رحيم حنون. وهكذا يكون الإكرام قلبيا عاطفيا مملوءا ثقة بنوية. فهو يسر بمحبتنا له، وتعلقنا به، وثقتنا بحنانه ورحمته، ويعطف على ضعفنا ووضاعتنا، فيتقبل إكرامنا برضى، ويجود علينا بالبركات والنعم.

وروح العبادة هذا يتكامل بالعبد لقلب يسوع الأقدس، لأنه هو ينبوع العبادة، والمثل الأعلى لإكرام الإلوهية. فمنه نتعلم كيف نعبد الله المثلث الاقانيم بمحبة وخشوع وثبات وطمأنينة، واثقين بمحبة لنا، وارتياحه إلى إكرامنا له، وبه نتقدم بفرح من عرش النعمة لننال حقيقة التبني (الذي ندعو به أبا أيها الأب)[1].

أما الكاملون من المسيحيين فإنهم يمارسون أفعال العبادة بروح (موهبة العبادة) التي يفيضها الروح القدس في قلوبهم، فيستسهلون أنواع العبادة، ويكثرون من ممارستها، ويستلذونها. فهم دائمو التيقظ للقيام بكل ما هو إكرام لله. ثباتهم لا يتزعزع، وعاطفتهم عميقة، ومحبتهم عاقلة نيرة فعالة. فلا تستغويهم التعريات الحسية، ولا اضطرام العواطف القلبية، فسيان عندهم حضرت أو غابت. ولا تدفعهم إلى عبادتهم هبات وقتية، أو رغبات أنانية، لأن محبتهم صادقة، صميمة، ثابتة، تتجلى بالأفعال، وحسن القيام بالواجبات، ثارت فيهم العاطفة أو نامت، فإنهم لا يعبئون بذلك. بل يثابرون على تقواهم وعبادتهم في الشدة والرخاء على السواء، في اليبوسية الروحية كما في التعزيات القلبية، في أيام السقم والمرض كما في زمان الصحة والعافية، في أوقات العس كما في أيام اليسر، في الأفراح والأحزان، في سعة العيش كما في حالة الفاقة. فلا تثني عزائمهم صروف الدهر، كما لا تثير أيضا هممهم صروف الدهر، كما لا تثير أيضا هممهم الأفراح أو الأنواع التوقيفات مدى العمر. لأن تقواهم مؤسسة في اعتقاد راسخ عميق في ما الله من حقوق عليهم، وما له من فضل عميم لديهم. فهم يسارهون إلى عبادته وخدمته بدافع الواجب والمحبة، وايس حسب الوقت والهوى، وإقبال الدنيا وأدبارها.

[1] رومية، ٨ :١٥.

والكاملون من المسيحيين يكرمون أيضا بتقوى وعبادة كل ما له علاقة بالله، محبة لله. فالبتول مريم لها لديهم المقام الرفيع الأول لأنها ابنة الأب، وأم الابن، وعروس الروح القدس، ولأنها شريكة يسوع في افتداء البشر، ولأن يسوع وهو على الصليب أقامها أما للدنيا، ولأن الينبوع الصافي الذي منه تتدفق مواهب العلي على البشرية. ويؤدون للملائكة وللقديسين واجب العبادة الصادقة لكونهم أصفياء الله. أما الكتاب المقدس فهو لهم موضوع احترام وإجلال، لأن فيه يقرؤن فيه بإمعان كلام الله، ويلمسون فيه حكمة الله، وهم يحيطون الكنيسة المقدسة أيضا، ورأسها منظور الحبر الأعظم، وأساقفتها وكنيتها وسائر خدامها بكل مظاهر الأكرام والاعتبار، لأنهم رسل الله، وخدام أسرار السيد المسيح على الأرض. (من سمع منكم فقد سمع مني)[٢].

وأن هذه التقوى المسيحية العميقة عندما تتأصل في القلوب تصيرها لينة، وتفيض فيها عواطف الشفقة والحنان في معاملة الناس، ولا سيما من كان منهم فظا قاسيا، أو بليدا خاملا، أو أنانيا طماعا، فتعاملهم بالصبر وطول الأناة، وتصبر على نقائضهم، وتعذر هفواتهم، وتغض الطرف عن قلة أدبهم وجميلهم، لأنه تعالى هو أيضا شفيق رحيم: (إما أنا فأقول لكم أحبوا أعدائكم، وأحسنوا إلى من يبغضكم، وصلوا من أجل من يعنتكم ويضطهدكم لتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات، لأنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار ويمطر على الأبرار والظالمين) [١].

ولكي نمكن أنفسنا من (موهبة التقوى) هذه علينا أن تطلبها بإلحاح من الروح المقدس بالصلاة كل يوم، وأن نبقى دوما متنبهين لكي نطبع أعمالنا كلها بطابع المحبة، فنفعلها محبة لله، فتصبح حياتنا كلها صلاة وعبادة وتقوى وأجورا سماوية. (وأما التقوى فتنفع في كل شيء) [٢] وأيضا(فإذا أكلتم أو شربتم أو عملتم شيئا فاعملوا كل شيء لمجد الله[٣].

حوادث تاريخية

الاسكافيان

جاء في حياة القديس يوحنا الرحيم أنه كان في مدينة الإسكندرية اسكافيان. فكان الواحد كثير الشغل، كثير الزبائن، وبيته يفيض بالخيرات رغم عائلته الكثير العدد. وكان الثاني قليل العمل، قليل المال، وبيته دائما في عوز، رغم أنه كان قليل الولد.

فشكا الثاني إلى الأول حاله وهو يتحسر ويتأفف ويتهم العناية الإلهية بالقصير في النظر إليه رغم مهارته. فقال له زميله تعال إلي يا أخي صباح الأحد القادم فأريك سر نجاحي.وكان هذا الاسكافي متعبدا لله، مواظبا على حضور القداس يوم الأحد، وعلى التفرغ في ذلك اليوم المبارك لعبادة الله مع جميع أفراد عائلته. أما الثاني فكان يعتمد فقط على قوة

---

[٢] لوقا، ١٠ : ١٦

[١] متى ٥: ٤٤و٤٥.

[٢] ١ تيمو، ٤ :٧.

[٣] ١ كور، ١٠ :٣١.

ساعديه، وعلى دأبه على عمله. فلا يميز بين أيام الأحد وأيام الأسبوع.ويشتغل بلا انقطاع متناسيا أن الله عليه حقوقا، وأن النجاح هو ثمرة بركة العلي.

فلما كان صباح الأحد جاء الاسكافي الثاني إلى الأول ليرى ما هو سر نجاحه. فأخذه إلى الكنيسة ومعه جمهور أفراد عائلته وقال له: يا أخي اسمع القداس كما أفعل أنا وأولادي، وصل وأبتهل إلى الرب أن يوفقك في شغلك وعملك، وثابر هكذا على خدمته وعبادته، فتنجح. وهكذا كان. فنجح هذا الثاني في حياته وفي بيته.

ستانسلاس ملك بولونيا

كان ستانسلاس ملك بولونيا قد كتب بخط يده هذه المقاصد، قال: (كل يوم صباحا أنظر بإمعان فيما ينبغي لي أن اعمله في يومي. فأفكر في كيفية عمله، وعلى الأكثر فيما يجب أن ابتعد عنه).

(وعند المساء أجثوا أمام الله وأطلب إليه تعالى ما يلزمني من الأنوار لارى بجلاء زلاتي. ثم افحص ضميري لأعرف ما ارتكبت من الخطأ فاسأله تعالى أن يصفح عني، وأعاهده ألا أعود إلى ما سبق من الإساءة إليه مني).

الفصل الرابع
في فضيلة الطاعة

إن فضيلة الطاعة هي فرع من فضيلة العدل لأنها فعل خضوع واجب لحقوق السلطة الشرعية. إلا أنها تتميز عنها لأن الرئيس والمرؤوس غير متساويين في وضعهما ليكون العدل هو المتحكم في الحقوق والواجبات بينهما.

البحث الأول
في طبيعة فضيلة الطاعة

الطاعة هي فضيلة أدبية مسيحية فائقة الطبيعة تحملنا على إخضاع إرادتنا لرؤوسنا الشرعيين لكونهم سفراء الله لديننا.

فرائد الطاعة هو رائد سائر الفضائل الأدبية المسيحية، أعني به الله تعالى. لأن الطاعة البشرية الطبيعية التي هي خالية من ذكر الله، ومن ابتغاء وجه الله، ولا هدف سوى الخير الزمني الناتج عن الخضوع للسلطة القائمة، طمعا في مال أو جاه مثلا، أو خوفا من عقاب، أو سعيا وراء مغانم ومكاسب فهي ليست فضيلة الطاعة المسيحية. لأن هذه تنظر إلى ما لله من سلطان علينا، والى ما يتوجب على كل منا أفرادا وجماعات من الانقياد إلى إرادته وتدبيره وأحكامه، فتخضع له على الأرض، ومن أجله تخضع للرئاسة الشرعية التي تمثله وتقوم لدينا مقامه.

لا شك في أن خضوعنا لله يجب أن يكون في مقدمة أعمالنا وحياتنا. لأنه تعالى هو خالقنا وحفظنا ومدبرنا، ولا كيان لنا إلا به، ولا عمل لنا إلا بمساعدته وسماحه. إن الخلائق كلها لاتحيا إلا به، ولا تعمل إلا بإرادته وأمره. وصاحب المزامير يقول: (لأن الكل عبيد لك).[1] فلا بد إذا أن تكون الخلائق العاقلة الناطقة في طليعة العاملين بأوامره تعالى، الخاضعين لإرادته وذلك عن أدراك وفهم ورضى.

ولكن فوق كوننا خليفته وصنعة يديه وعبيدا له فإننا أيضا لا بل بالأكثر، أبناؤه، تبنانا بالمسيح يسوع بفضل منه. فوجب علينا إذا أن نخضع له خضوع الأبناء البررة للوالدين والمحبين هكذا عاش المسيح على الأرض (وصار يطيع حتى الموت موت الصليب).[1] وهكذا ينبغي لنا أن نسير على أثره.

ثم أن المسيح تجسد وصلب لأجلنا وافتدانا، فأصبحنا ملكه ورعيته وخاصته، ووجبت علينا في كل أمر إطاعته: (لأنكم قد أشترتم بثمن كريم).[2]

ولكن كيف نطيع الله يا ترى، وكيف نعمل بأوامره؟ أن ذلك لا لنا إلا بطاعتنا لممثليه الشرعيين على الأرض، لأنهم نوابه وسفراءه لدينا، يتكلمون باسمه، وينطقون بكلمته. هذا هو المبدأ الأول الأعلى في الطاعة المسيحية.

---

[1] مزمور، ١١٨ :٩١.
[1] فيلبي، ٢ :٨.
[2] ١كور، ٦ :٢٠.

إن الله خلق الإنسان اجتماعيا، أعني أنه يحتاج بطبيعته، في مختلف مناحي حياته الجسدية والأدبية والروحية، إلى مساعدة غيره. فنشأ هذا الضعف الفردي حاجة الإنسان في المجتمع العمومي، فيتمم هذا ما ينقص ذاك في شتى ضروریاته. فإذا كان لا بد من وجود المجتمع لحياة الفرد، كان أيضا لابد من وجود المجتمع لحياة الفرد، كان أيضا لا بد لهذا المجتمع لكي يؤدي رسالته من سلطة تسهر على إدارته، وتنظم شؤونه، وتوجه قواه لتوصله إلى الغرض المطلوب من الفرد وخدمته. ولما كان وجود هذا المجتمع من وضع الله كانت السلطة أيضا التي لا بد منها لأجل كيانه وعمله، من وضع الله وتدبيره. لذلك قال الرسول:(لا سلطان إلا من الله.[٣] وزاد الرسول على هذا أيضا وقال على سبيل الاستنتاج الطبيعي المنطقي: (فمن أطاع السلطة أطاع الله، ومن أكرها أنكر الله. فمن يقاوم السلطان فإنما يعاند ترتيب الله.[٤] فالتعليم صريح لا يحتاج إلى إيضاح.

لأجل ذلك يترتب على الرئيس أن لا يستعمل سلطانه إلا باسم الله، طبقا لإرادته تعالى وأوامره ونواهيه، لا لخدمة نفسة ونفوذه ومطامعه، بل لخدمة المجتمع الذي أقامه الله على إدارة شؤونه وشؤون أفراده. ويترتب أيضا على هؤلاء الأفراد أن يخضعوا لهذا الرئيس خضوعهم للرب، باحترام وتوقير ومحبة ورضى:(من سمع منكم فقد سمع مني)،[٥] كما قال الرب. وقال الرسول أيضا:(ونتلمس منكم أيها الأخوة أن تعتبروا الذين يتعبون بينكم ويرئسونكم في الرب ويعظونكم وإن تحبوهم غاية المحبة من أجل عملهم)[٦].

ولكن من هو الرئيس الشرعي يا ترى، والى أين تصل قوة سلطانه؟

الرئيس الشرعي هو كل رئيس إقامه الله على إدارة الجماعات المنظمة في الدنيا. وهذه الجماعات كثيرة بين الأمم لا يحصرها عد وليس لأنواعها حد. وهي تختلف باختلاف غاياتها ونظامها وترتيبها وتأليفها. فلا بد لكل منها من رئيس يسوسها، ويدير شؤونها، ويوحد صفوفها، ويوجه قواها، لتصل إلى مراميها. فمنها الجامعة الصغيرة العائلية التي يرئسها الأب أومن يقوم مقامه. ومنها الجامعات الكبرى الدولية التي يشرف على شتى شؤونها رجال الحكومة، حسب طريقة ودستور كل أمة وكل مملكة. ومنها الجامعات الكبرى الروحية، أعني بها الكنيسة الكاثوليكية التي يرئسها الحبر الروماني بابا روما الكلي الطوبى، ومساعدوه من الأساقفة كل في أبرشيته، ومن الكهنة كل في منطقته وكنيسته. ويدخل تحت لواء هذه الجامعة العظمى الكنيسة جامعات متعددة للرهبان وللراهبات وللمرسلين وللمعلمين من كل صنف ونوع ولون. والرئاسات في كل منها درجات متعددة متتابعة متماسكة يكمل بعضها بعضا ويخضع أيضا بعضها لبعض، حتى تصل إلى رئيسها العام الأكبر، ومنه إلى سيدنا البابا الحبر الروماني، ومنه إلى السيد المسيح رأس الكنيسة غير المنظور. فكل من كان عضوا في مجتمع كهذا وجبت عليه الطاعة لرئيس ذلك المجتمع، وإلا اختل النظام وسادت الفوضى. فلكم جر العصيان من الدمار على الهيئات والمؤسسات الحكومات والرهبانيات، وكم حزن الكنيسة وأثار عليها الهرطقات، وكم كان السبب في نشوب الحروب وتعدد الويلات.

ولكن إلى أين تصل حدود سلطة الرئاسات يا ترى؟ هل من قوة أدبية مشروعة تقف في وجهها، أم يسوغ لها أن تكون مطلقة العنان، تسير على هواها في كل زمان ومكان؟

---

[٣] رومية، ١٣ :١.
[٤] رومية، ١٣ :٢.
[٥] لوقا، ١٠ :١٦.
[٦] ١ تسالونيكي، ٥ :١٢و١٣.

إن لكل سلطان في الدنيا حدا يجب عليه أن يقف عنده. وهذا الحد يضعه القانون الذي ينظم علاقة الرئيس بالمرؤوس، ومقدار سلطته عليه، وهذا القانون يبين ما لكل من الرئيس والمرؤوس من حقوق وواجبات له وعليه. إلا أن المبدأ الأعلى الذي يجب أن يسود حقوق كل الرئاسات في الدنيا، وواجبات كل المرؤوسين فيها. يقوم على هذا الأساس: وهو أنه لا يحق لسلطة أية كانت أن تأمر بما تنهى عنه شرائع الله والكنيسة. وإذا فعلت يكون فعلها تجاوزا لحقوقها، واستبدادا منها، وجورا واعتسافا، ولا يجوز للمرؤوس إذ ذاك أن يسمع لها وإن يأتمر بأمرها.ولقد بقيت كلمة القديس بطرس أمام محفل اليهود الأكبر دستور النصرانية، وشعار الحريات المسيحية. لأنهم لما أمروه بتهديد ووعيد أن يقلع عن التبشير باسم الرب يسوع أجاب بكل ثبات وجرأة:(إن الله أحق من الناس من أن يطاع).[1] وهذا ما حدا بالملايين من المسيحيين في كل زمان ومكان على بذل نفوسهم رخيصة في سبيل تمسكهم بشرائع إلههم وكنيستهم، فأقدموا على الاستشهاد، أيام الاضطهاد، دفاعا عن أوامر إلههم، ضد أوامر الظلم والاستبداد.

ولا إلزام بالطاعة إذا كان الأمر مستحيلا، لأن المحال لا يلزم أحدا. والشرائع البشرية تعدم قوتها تعدم قوتها عند عدم المقدرة على القيام بها. فينتج عن ذلك أن المريض الذي لا يمكنه الذهاب إلى الكنيسة، معذور من تخلفه عن حضور القداس أيام الآحاد والأعياد، وأنه يستثنى من شريعة الصوم من لا يمكنه القيام به لأسباب مشروعة كالمرضى والعملة والحبالى والمراضع، وأن الفقير المعدم يعفي من أعباء الرسوم والضرائب الخ. وقس على هذا ما يشبهه، لأن الله إله رحمة، وليس إله شدة ونقمة.

كذلك لا إلزام بالطاعة للرئيس عندما يتجاوز حدود سلطته. هكذا مثلا، إذا اعترض والد دعوة ابنه بعد أن تمعن هذا في درسها، أو إذا أمر رئيس رهباني بما لا تسمح به القوانين والأنظمة المقررة في رهينته.

ولكن بما إننا عرضة لأوهام كثيرة، ففي وقت الشك يجب الافتراض أن الحق بجانب الشريعة أو الرئيس.

بعدما تقدمنا يتناول بحثنا الكلام عن درجات الطاعة وأنواعها وجمال خصالها. وجليل منافعها. إلا أننا نحصر البحث على الأكثر في فضيلة الطاعة المسيحية للرئاسات الدينية وللسلطات الكنسية والروحية، تاركين الكلام عما سواها للبحوث الكبرى الأدبية في المجلدات اللاهوتية والكتب الاجتماعية.

[1] أعمال، ٥ :٣٩.

البحث الثاني
في درجات الطاعة المسيحية

إن أولى درجات الطاعة المسيحية تقوم بحفظ وصايا الله، ووصايا، ووصايا الكنيسة، وبإتمام الأوامر الصادرة إلينا من الرؤساء الشرعيين، أقل ما يكون إتماما فعليا في الظاهر، إن لم نوافق عليه أيضا في الباطن، وذلك إكراما لله تعالى، وخضوعا لسلطانه علينا، وعملا بأوامره الصادرة إلينا من رؤسائنا. إلا أن عدم موافقتنا هذه لوجهة نظر رؤسائنا لدى إتمامنا أوامرهم ليس معناها خروجنا عليهم، وتذمرنا من إدارتهم، وإلا فلا خضوعنا فضيلة، بل شرا ونقيصة. إنما معناها تمسكنا بصوابية رأينا ضد رأيهم، رغم خضوعنا لإدارتهم وتدبيرهم.

وأما الدرجة الثانية، وهي تفضل الأولى بكثير، فغنها تقوم بخضوعنا لأوامر رؤوسنا ليس في الظاهر فقط، ولكن في الباطن أيضا. فنعمل بأوامرهم بقبول ورضى، دون أن نبحث في صوابيتها أو نتعرض عليها. ولكي نجعل طاعتنا فضيلة مسيحية حقه نتطلع إلى يسوع في حياته كيف كان خاضعا لأبيه السماوي، وللقديس يوسف حارسة، وللبتول أمه، فنتشبه به. بالطاعة عاش المسيح فقيرا، وعاملا خاملا، ورسولا معدمان بالطاعة عاش بالمدن والقرى والمزارع والحقول يبشر المساكين، ويشفي المرضى، ويؤاسي منكسري القلوب. بالطاعة عرق دما في بستان الزيتون، قبل أن سفك دمه لأجل البشر، حتى آخر نقطة، ومات على خشبة الصليب الكريم. نعم هكذا عاش يسوع عيشة الطاعة والخضوع، هكذا يريدنا على مثاله، طائعين إكراما له وتشبها به.

وتتجلى هذه الطاعة المسيحية بمظاهر شتى في الحياة العملية. فهي لا تعارض الرئيس في عمله، ولا تعترض على طريقة تدبيره. ولا تتوارى أمام إرادته، ولا تتبرم من أحكامه، ولا توارب في تنفيذ أحكامه، ولا تسعى لتجمله على ماهي تريد في تنظيم خططه، بل تتناول الأمر وتسارع إلى العمل به بلا تردد، ولا تذمر، ولا تسويف، ولا مواربة، ولا تأفف، ولا تقبيح، بل برضى وقبول وارتياح وسرور. ولقد قال القديس برنردس في ذلك:(إذا اشتهيت أمرا، وسعيت في سرك أو في علانيتك إلى حمل مرشدك على أن يأمرك بالقيام به، فلا تتوهم بأنك قد أطعته، بل لقد خدعت نفسك بما استصدرته من أوامر. لأنك تكون قد حملته على الخضوع لغرائبك أنت وليس لإرادته).

أما الدرجة الثالثة في فضيلة الطاعة المسيحية فهي من شأن الكاملين. وهي تقوم بأنهم لا يكتفون بالإسراع في تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم من رؤسائهم، والى إخضاع إرادتهم أيضا لإرادتهم، إكراما لله وتشبها بالسيد المسيح معلمهم ومثالهم، بل أنهم يخضعون أيضا رأيهم لرأي رئيسهم، فيتجردون من وجهة نظرهم، ويضحون بطريقة إدراكهم للأمور وبنوع ميولهم إلى تدبيرها، ليعتنقوا خطة رئيسهم بلا قيد، ولا شرط، ولا فحص، ولا تمحيص، بل يعملون على إقناع ذواتهم بأنها هي الخطة المثلى في الرأي والتدبير.

أما إذا دعوا إلى إبداء رأيهم، أو كان لهم حق في ذلك، أو كانت واجبات وظيفتهم تقضي به، فمن الحكمة أن لا يتوانوا في استعمال ذلك الحق لأنه يصبح واجبا وعملا مفيدا.

ولقد قال المعلم الروحي الكبير القديس أغناطيوس منشئ الرهبانية اليسوعية:(إذا ما رغب أحد في تضحية ذاته على النوع الأكمل وجب عليه، بعد أن يكون قد ضحى في سبيل الله إرادته، أن يضحي أيضا في سبيله تعالى عقله

وإدراكه وطريقة فهمه.....). ثم يبين القديس إغناطيوس كيف يريد الراهب الكامل ليس ما يريده رئيسه فحسب، بل يصير مع رئيسه شعورا واحدا، وفكرا واحدا، ويخضع لوجهة نظر رئيسه وجهة نظره بقدر ما يمكن الإرادة التي خضعت أن تحمل معها العقل أيضا على الخضوع. إن العقل معرض للخطأ، فكما نخضع إرادتنا لإرادة رئيسنا صونا لها من أن تضل الطريق، هكذا يكون أيضا من شأن عقلنا. ويردف القديس أغناطيوس بقوله: (حذرا من وقوع رأينا في الضلال نعتنق رأي رئيسنا).ثم قال: (إذا ما خالج فكرك رأي مخالف لرأي رئيسك، فابتهلت بالصلاة إلى الرب اليسوع، وبعد الابتهال رأيت أنه يسوع لك أن تفاتحه بذلك، فلا بأس عليك. ولكن ينبغي لك قبل مباحثته بهذا وبعدها أيضا أن تلبث هادئ البال، مستسلم الإرادة، مستعدا ليس لإتمام رئيسك فحسب، وإن خالف بذلك وجهة نظرك، بأن تعتقد أن ما يقرره هو الأفضل والأصوب. لأن مشاعرك وأميالك قد تضللك).

فهذا ما يسميه المعلمون الروحيون(الطاعة العمياء) التي تضع الإنسان بين يدي رئيسه كأنه(جثة هامدة)، لا عما لها خاصا بها، ولا رأي لها في أمر من أمورها، بل الرأي والتفكير والتدبير للرئيس، والخضوع والعمل والتنفيذ على الراهب التابع له. ولكن معنى هذا أن الإنسان يتجرد عن عقله وإرادته وشخصيته بحيث أنه يصبح آلة صماء لا فهم لها ولا إدراك. وإلا لما بقي له شئ من شرف الطاعة وأجورها. بل يبقى بالأحرى متمتعا بكامل قواه العقلية ويعمل بها، إنما يخضعها، إكراما لله، لإرادة وتدبير وفهم وحكمة رئيسه. وبهذا يسمو في فضيلة الطاعة، ويحسب الله ذلك فضيلة وفضلا.

البحث الثالث

في صفات الطاعة المسيحية

أن الطاعة المسيحية لكي تكون حقا فضيلة سامية يجب أن تتحلى بصفات ثلاث: أن تكون في غايتها سماوية، أعني فائقة الطبيعة، وفي عملها شاملة، وفي طريقتها كاملة.

أما الطاعة السماوية فهي التي ترى الشخص الرئيس صورة الله وشخص السيد المسيح الذي هو ينبوع كل سلطان ومنه كل رئاسة. فتخضع لها خضوعا لله ولأجل إكرامه تعالى ومحبته. وهذه النظرية تسهل لها المصاعب، وتذلل العقبات، لا بل تجعل مشقة عذبة مستحبة. لأنه لا أحد يأنف ما الخضوع لله، والطاعة أساسها أن السلطان هو الله، وأن الرئاسات تصدر منه، وأن مرجع الطاعة إليه لأن الرئيس يمثله:

(أيها البنون أطيعوا والديكم في الرب فإن هذا هو العدل)[1]

(أيها العبيد أطيعوا سادتكم الجسديين... كطاعتكم للمسيح. لا بخدمة العين كما يرضي الناس بل كعبيد المسيح عاملين بمشيئة الله من قلوبكم خادمين بنية صالحة كخدمتكم للرب لا للناس).[2]

ولقد كتب القديس إغناطيوس إلى رهبانه اليسوعيين في البرتغال رسالة شائقة في فضيلة الطاعة بقيت إلى يومنا هذا دستور الرهبانية اليسوعية وشعار مجدها وقوتها. ولقد جاء فيها:(أن رغبة قلبي هي في أن تحرصوا بكل دقة ونشاط على أن تروا سيدنا يسوع المسيح في كل رئيس من رؤسائكم، وأن تقدموا بشخصه في كل إجلال واحترام ما يجب عليكم للعزة الإلهية من الاعتبار والإكرام ... فلا ينظر رهباننا إلى شخص الرئيس الذين يخضعون له، بل إلى السيد المسيح متجليا فيه، وليكن هذا الرب يسوع غاية سعيهم وطاعتهم. لأننا إذا ما خضعنا للرئيس فإن خضوعنا له يجب أن يكون ليس لأجل فطنته، أو كماله، أو لأجل أي صفة أخرى من الصفات التي ربما جعلها الله فيه، ولكن للسبب الأوحد أنه نائب الله لدينا، وأنه قائم مقامه لإبلاغ أوامره تعالى إلينا، لذلك فلو بدرت منه قلة فطنة، أو قلة دراية، فلا يحق لنا أن تتوانى في الانقياد لأوامره، لأنه لكونه رئيسا، يمثل ذاك الذي هو الحكمة الإلهية المنزهة عن الغلط، وهذا الرب جدير بأن يعوض عما يكون قد نقص في رسوله ونائبه من فضيلة، أو من مزية أخرى من المزايا الحسنة اللازمة له).

تعليم سام، مبادئ مسيحية قويمة، لا يمكن العقل السليم أن يتعرض عليها. لأنه لو كانت طاعتنا لرئيسنا هي نتيجة صفاته ومؤهلاته فلا يكون لنا أولا فضل الطاعة. لأنه لا أحد بأنف من الخضوع لمن أرفع منه منزلة، وأوسع خبرة، وأكثر جاها، وأقدر علما، وأبرع فصاحة، وأشد شكيمة. ثانيا لا يمكن أيضا أن تكون طاعتنا ثابتة، بل تصبح متقلبة، متلقلقة، ذاهبة مع كل ريح، تابعة لظروف الزمان والمكان والأشخاص. وبهذا دمار الطاعة، وخسارة فوائدها الجليلة على الأرض، وحرمان أجورها الأبدية في السماء. لأن من يخضع للناس يبغي إرضاء الناس، فيأخذ أجره من الناس.

لذلك وجب أن تكون الطاعة فضيلة سماوية، فلا نريد بها إلا وجه الله، والخضوع لأوامره تعالى، وإكرام سلطانه ورحمته وحنانه. أما الرئيس فهو سفيره لدينا، ورسوله ونائبه والمسلط باسمه علينا.

---

[1] افسس، ٦ :١.

[2] افسس، ٦ :٥-٧.

والمزية الثانية التي يجب أن تتحلى بها الطاعة السامية هي أن تكون شاملة لكل القوانين المفروضة علينا، ولكل الأوامر الصادرة إلينا من رؤسائنا. فمن كان أمينا في شيء ومهملا في سواه كانت فضيلة الطاعة فيه ناقصة. فإذا أردنا أن نسمو في ممارسة هذه الفضيلة الجميلة علينا أن نعتنقها كلها. أما إذا أطعنا هذا وعصينا ذاك من رؤسائنا، لأن الأول أحب إلينا، وإذا حفظنا هذا ونبذنا ذاك من قوانيننا، لأن الأول أقرب إلى أميالنا، فلا تكون طاعتنا شاملة، ولا تكون إذا سامية.

ولقد كتب القديس فرنسيس السالسي يقول: (إن الطاعة تحملنا على الخضوع بحب وسذاجة قلب للأوامر الصادرة إلينا من رؤسائنا بقطع النظر عما إذا كانت الطريقة التي أعطيت بها تلك الأوامر هي مستحبة أو مستهجنة. لأنه طالما للآمر الحق المشروع في إصدار أوامره، وطالما أن خضوعنا له يكون سبب إتحادنا بالله، فسيأن لدينا أن يكون قد صدر الأمر من هذا أو من ذاك أو كيف صدر.

أما إذا أقدم الرئيس على فرض شئ مخالف لوصايا الله وأحكامه فالواجب يقضي بأن نطيعه. وإلا تكون طاعتنا له غاشمة وجاهلة.

وإذا أمرنا رئيسنا بإتباع خطة معينة ورأينا نحن أن غيرنا أفضل منها، وأصوب، وأنفع، فالكمال يقضي بأن نترك خطتنا لنتبع وجهة نظر رئيسنا. لأن الله هو الكفيل بأن ينجح عملنا أكثر بكثير مما لو اتبعنا طريقتنا. لأنه تعالى يؤثر الطاعة، وينجح عملها، ويبارك نتائجها. أن الغلبة في طريق الطاعة، كما يقول القديس فرنسيس السالسي، وقال الروح القدس:(المطيع يتكلم كلام المنتصر) [1] وقد يتعرض الرئيس للغلط في كيفية إدارته، ولكن الإنسان الخضوع لا يغلط أبدا في انقياده لطريقة رئيسه.

أما الصفة الثالثة للطاعة الحقة فهي أن تكون مكملة، فلا تفرق بين أمر وأمر، ولا تأخذ بجهة وتترك أخرى، ولا تميز بين أقسام القانون أو الأوامر فتقبل منها شيئا وتترك شيئا. ولا تنظر إلى أمر ما فتقسمه، وتقوم بإتمام ما تريد منه وتترك ما لاتريده.

والطاعة الكاملة سريعة الانقياد، لأن من مزايا الحب الإسراع في إتمام طلب المحبوب. فلما كانت الطاعة الكاملة تسير بدافع الحب الإلهي كان لا بد لها من الإسراع في إتمام أوامر الرئيس بدافع حبها لله وإكرامها له.

والطاعة الكاملة تكون ثابتة، فلا يعتريها وهن ولا ضعف ولا ملل ولا جمود. وفي هذا يكون حقا تمامها.

والطاعة الكاملة تكون فرحة مشرقة، (لأن الله يعطي المتهلهل) [2]. فمن عادة الحب أن ينشر الفرح في القلب. فمن أحب الله أطاعه بفرح، واستعذب في سبيله كل صعوبة وكل عقبة.

---

[1] vir obediens loquetur victorias

[2] ٣ كور، ٩ :٧.

البحث الرابع

في فوائد فضيلة الطاعة

إن فضيلة الطاعة هي الفضيلة التي يرتاح الله إليها أكثر من غيرها. لأنها تجرد الإنسان من إرادته وأمياله الخاصة، ورغباته الذاتية، في سبيل خضوعه لأوامر الله تعالى وأحكامه. فيها يتم اتحاد الإنسان بالله أكثر من سواها في الفضائل الأدبية. إن محبة الإنسان نفسه، وإثارة ذاته، لهو أكبر عائق في اتجاهه إلى الله. أما الطاعة فإنها تجرده من ذاته وإرادته، وتفسح الطريق إمامه إلى خالقه والهة. وبقدر ما يضحي الإنسان لأجل الله من إرادته وحريته واستقلاله يكون مستحقا للأجور في حياته وعمله. هذا ما فعله المخلص الإلهي في بستان الزيتون لما هتف نحو أبيه السماوي وهو في اشد مرارة الحزن وقال: (لا تكن مشيئتي بل مشيئتك) [٣].

لذلك كانت الطاعة أفضل من الفقر، وأفضل من العفاف، وأضل من التقشف. لأن الإنسان يضحي بالفقر خيرات الدنيا، وبالعفاف ملذات الجسد، وبالتقشف انبساطه وراحته، أما الطاعة فإنه يضحي بما هو أكرم وأثمن كل من هذا، وآثر من غيره لديه. يضحي بإرادته وحريته وشغفه واستقلاله.(فالطاعة هي (حقا) خير من الذبيحة)[١]. فالطاعة إذن هي، من بعد العبادة، أكرم الفضائل الأدبية لأنها تجعل إرادتنا دائمة الاتحاد بإرادة الله، وقلبنا دائم الحب له، فلا نخرج عن دائرة أوامره وتدبيره وأحكامه والتعلق به.

الطاعة هي أيضا أم الفضائل الأدبية، والحارسة لها، الساهرة عليها. فالطاعة والمحبة واحد. أن من شأن الحب أن يوحد الأفكار والرغبات في المتحابين. فمحبتنا لله معناها له، بحيث أن رأيه يصبح رأينا، وفكرة فكرنا، وإرادته إرادتنا، فلا ينبغي سواه في كافة مطالبنا ورغباتنا. وإذ نصير إلى هذه القمة من المحبة يعود هو أيضا فيحقق كل رغباتنا. ويتمم كل ما يريده قلبنا.(من كانت عنده وصاياي وحفظه فهو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه وأظهر اه ذاتي)[٢].

وأيضا:(إن انتم ثبتم في وثبت كلامي فيكم تسألون ما شئتم فيكون لكم)[٣].

والطاعة هي أم سائر الفضائل لأن بها تتم كلها. ليس من فضيلة أدبية أو إلهية إلا والله يأمر بها، أو يدعو إليها، أو يرغب فيها. فالطاعة تقدس إرادة الرب، بل مشورته، وأقل رغبة من رغباته. لأن الطاعة هي ثمرة المحبة، والحب لا يفرق بين أوامر الحبيب وإشارة من إشاراته، أو أصغر رغبة من رغباته، أو أفل نظرة من نظراته.

لا بل أن الطاعة هي نوع من الاستشهاد. وإذا كملت وطال عهدها وملأت الحياة، فتكون أفضل من الاستشهاد. لأن الاستشهاد هو تضحية الحياة مرة واحدة، أما الطاعة الدائمة فهي تضحية ما هو أولا أثمن من الحياة، لأنها تضحية الرأي والإرادة والحرية والآمال الذاتية، ثم هي تضحية هذا كله ليس مرة بل كل مرة، ليس ساعة بل كل ساعة، وكل يوم ومدى الحياة.

أن معلمي اللاهوت يسمون الحياة الرهبانية استشهادا، لأن الحياة الرهبانية هي قبل كل شيء حياة الطاعة، أعني حياة التجرد من الإرادة الذاتية. ويقول القديس إغناطيوس في ذلك: (بالطاعة نضحي لله بأفكارنا وآرائنا وإرادتنا،

---

[٣] لوقا، ٢٢: ٤٢.
[١] ١ ملوك، ١٥ :٢٢.
[٢] يوحنا، ١٤: ٢١.
[٣] يوحنا، ١٥: ٧.

ونقدمها في كل وقت وفي كل ساعة ذبائح مرضية على هياكله تعالى. وذلك بدل الإرادة الذاتية في الإنسان لا يبقى سوى إرادة يسوع المسيح التي تتجلى بإرادة الرئيس.فلا يضحي المرء فقط بحياته إطاعة لله، بكل ما هو عزيز عليه أيضا)[٤].

وكان القديس باخوميوس يقول لأحد رهبانه، وهكذا يرغب في شرف الاستشهاد:(كفى بحياة التقشف والتكفير استشهادا. والاستشهاد الأكبر هو الثبات على الطاعة طول الحياة. لأن ذلك خير من الموت بحد السيف بلحظة واحدة)[٥].

الطاعة هي أيضا ينبوع السلام والفرح والطمأنينة في القلب. فهي تبدد الظلام وتقضي الارتياب والشكوك. لأنها ترسم للمرء منهاج الحياة وتضيء له الطريق، فيسير بطمأنينة وثبات وانتظام. الطاعة هي عنوان الحياة المسيحية الصحيحة وطريق القداسة الحقة الأكيدة. لأن إرادة الله تتجلى أمامنا بالوصايا، وبقوانين دعوتنا، وبإرادة رئيسنا. فإذا ما حفظناها واحترمناها سرنا بال تردد ولا حيرة، بل بارتياح وطمأنينة في سبيل محبة الله ومرضاته ونعمته. وهكذا يصبح سيان عند الإنسان المكمل في الطاعة نجح في عمله أم لم ينجح. ليس لعدم المبالاة، أو الجمود أو الكسل، لأن الرجل المطيع يرغب رغبة أكيدة في إنجاح ما أمر بإتمامه، إكراما لله، وعملا بإرادة رئيسه، وقياما بواجب قوانين رهبانيته، أو جمعيته، أو مسلكه، بل أنه إذا لم يحزن لعدم نجاحه، أو لقلة ظهور نجاحه، فلأنه قد طلب في عمله مجرد مرضاة الله والخضوع لإرادته. فلا يضطرب لمل يحصل له من نتائج مساعيه ومن ثمار اجتهاده.

لذلك يرى الرجل المطيع أبواب السماء دائما مفتوحة أمام عينيه فيستمد منها الأنوار، ويسير نحوها بخطى ثابتة أكيدة بطمأنينة وارتياح. لأن الطاعة تحل الإنسان من قيود الشك والاضطراب بما ترسمه له في كل وقت بجلاء من أنواع الواجبات، فلا يبقى في العقل شيء من الحيرة في كيفية طلب الكمال.

وما أحلى أن تقول القديسة الناعمة تريزيا للطفل يسوع في سيرة حياتها عن الطاعة:

(يا ألهي، آه كم ينجو من الاضطراب والتشويش ذاك الذي ينذر نذر الطاعة، ياما أسعد الراهبات البسيطات اللواتي يسرن في حياتهن بإرادة الرؤساء. لأنهن يعلمن العلم الأكبر بأنهن في الطريق القويم سائرات. فلا خوف عليهن من الخطأ، حتى ولو تأكد لديهن بأن الرؤساء قد اخطاؤا. ولكن إذا ما هن حدن هن هذا المنهج الصحيح ضللن الطريق وسرن في مفارات وعرة مقفرة تنقصها مياه النعمة)[١].

أخيرا ليس كالطاعة فضيلة رابحة تكسب الأجور من بعد أن تفيض في القلب الطمأنينة والسرور. لأننا إذ أنتم بأمر الطاعة، وبروح الطاعة، لأجل الله ومحبة له، كل عمل من أعمالنا، من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح، تصير حياتنا كلها، في كل دقائقها وتفاصيلها، فعل محبة عظيمة دائما، يتكرر بلا انقطاع، ويملأ خزائننا السماوية أجور دائمة أبدية، ولقد شبه المعلمون الروحيون رجال الطاعة بأناس راكبين سفينة تسير بهم في البحار وهم عنها لا ئهون أو هم نائمون، فيقتربون يوما بعد يوم من الميناء وهم لا يدرون.

فالطاعة هي الفضيلة الكبرى السامية السماوية، هي الفضيلة اللذيذة المسيحية في الحياة الاجتماعية. بل هي أم الفضائل ونورها وحارسها. فهي أساس النظام والنجاح والفرح في حياة المجتمع،كما أنها سبب الطمأنينة والسلام والأجور

---

[٤] رسالته إلى الرهبان في البرتغال.

[٥] نقلا عن القديس فرنسيس السالسي في الأحاديث الروحية.

[١] Histoire d une ame, ch,ix,p,196.

الكثيرة في حياة الفرد. ولقد أوحى الله يوما إلى القديسة كاترينا السيانية عن ارتياحه إلى أعمال فضيلة الطاعة فقال تعالى أسمه:

(ما أطيب وما أكرم فضيلة الطاعة.فأن فيها الفضائل كلها. فالمحبة كونتنها ونبتتها. والإيمان جعل أسه عليها...من أتخذ الطاعة رفيقة لحياته فقد عاش بطمأنينة وهناء. وهو لا يحزن لإعراض الدنيا عنه، لأن الطاعة علمته أن لا يشتهي شيئا سواي. وأنا استطيع، لو أردت، لأن أشبع كل رغائبه. أيتها الطاعة ما أبهاك وما أحلاك. انك تصلين بلا عناء إلى ميناء السلام. أنت شبيهة يا بني الحبيب الكلمة. وتعبرين بحر هذا العمر على سفينة الصليب الكريم، لأنك متأهبة دائما لمواجهة الصعاب وكل عذاب من غير أن تحيدي عن وصايا ابني الكلمة وتعاليمه الإلهية. عظيمة أنت في ثيابك، وعظمتك هي جبارة، لأنك تصعدين من الأرض، وتأتين أبواب السماء، فلا يفتحها سواك)[1].

حادث تاريخي

شجرة الطاعة

في وادي النطرون الصحراوي الممتد إلى الجهة الغربية من وادي النيل السعيد يرى المسافر شجرة وحيدة منفردة قائمة على الصخور والجردا. في تلك الرمال القاحلة. والناس يدعونها إلى اليوم شجرة الطاعة. ودونك تفصيل الحادث كما يرويه تاريخ رهبان القديس باخوميوس.

أراد رئيس الرهبان يوما أن يمتحن طاعة يوحنا أحد رهبان الفتيان، فأمره أن يأخذ عصاه ويأخذها بعيدا، بعيدا عن الدير، في تلك الصحاري الموحشة القاحلة، وأن يتعدها كل يوم بالماء صباحا ومساء.

فأخذ يوحنا العصا وذهب فزرعها كما أمره رئيسه، وجعل يحمل إليها الماء كل يوم ويسقيها، غير مبال بأنها عصا يابسة لا أمل لها في أن تدب الحياة فيها. وبقي مثابرا على عمله زمانا طويلا بروح الطاعة ذاته الذي بدأ عمله به.

إلا أن الله أراد أن يكافئ طاعة هذا الراهب الورع الذي عرف أن يتجرد عن إرادته وعن فهمه في سبيل القيام بأوامر رئيسه. فأرسل الحياة في تلك العصا. وأورقت وازدهرت. وهكذا بقيت إلى يومنا هذا شاهدا رائعا على رضى الرب عن الطاعة الكاملة التي لا تتوانى في عملها، ولا تعترض على تدبير رئيسها، محبة له تعالى ولأجل مرضاته.

[1] كتاب المحادثات (dailoue)، المجلد الثاني صفحة ٢٥٩_٢٦٠.

الفصل الخامس
في فضيلة الشجاعة

إن فضائل العدل والعبادة والطاعة تنظم علاقاتنا مع الله ومع قريننا. أما الشجاعة فأنها تختص بنا، ومرجعها الينا مع ذواتنا. وسنبحث في ماهيتها، وفي درجاتها، وفي كيفية الحصول عليه وتقويتها، ثم نتكلم عن كل فضيلة من الفضائل التابعة لها المتفرعة عنها.

البحث الأول
في ماهية فضل الشجاعة

الشجاعة هي فضيلة أدبية مسيحية سماوية تثبت النفس في طلب ما استعصى مناله من الصلاح لتقوم بعمله بلا تردد ولا وجل، حتى ولو تعرضت للموت.

وعملها مزدوج، فهي تبعث في المرء النشاط والإقدام، لكنها تنظم أيضا قوة نشاطه واندفاعه، لئلا تحمله حماسته على الطيش والتهور. فالشجاعة هي قوة الإرادة في مواجهة المصاعب والتغلب عليها. فهي البطولة المسيحية في كل درجاتها وأنواعها. هي الإقدام على الأعمال الصعبة الشاقة، وفوق ذلك هي الصمود الرسخ أمام هجمات المحن والشدائد. أن طريق الكمال عسر وعر ضيق، كما قال الرب.[1] فلا بد للسائرين فيه من قوة العزيمة، وشجاعة القلب لاقتحام المصاعب التي تواجههم في حياتهم لدى قيامهم بواجباتهم.

فإذا كانت الغاية من الشجاعة زمنية أرضية، كانت هذه الشجاعة فضيلة طبيعية. ولقد تبلغ أحيانا بالمرء أقصى حدود البطولة، كما يحدث للجند مثلا في ساحات الوغى، ولبعض الهيئات في الوظائف الخطرة، نظير جماعات الإسعاف، والأمن العام، والمطافئ والأطباء، والممرضين، والطيارين، ومن كان على شاكلتهم. فبطولة هؤلاء تستحق كل ثناء وكل إعجاب، إلا أنها لا حق لها في الأجور السماوية لما أن الذين يقومون بها يطلبون الفخر العالمي والمجد الزمني، أو مجرد القيام بواجب وطني، أو اجتماعي، أو طائفي، أو حزبي، من غير أن يكون في ذلك لله من نصيب.

أما إذا كانت الغاية من الشجاعة أكرام الله، أو القيام بواجب خدمته وعبادته ومحبته مهما اشتدت المصاعب وعصفت الزوابع، فتكون الشجاعة إذ ذاك مسيحية، وفضيلة سماوية.

قلنا أن الشجاعة ليست هي الإقدام على صعاب الأمور فحسب، بل هي الثبات في ذلك الإقدام والاستمرار على الصبر في الشدة. فالمسيحي الشجاع لا يترك محبة الله، ولا يحيد عن عبادته، ولا يتوانى في تتميم واجباته، ولو اجتمعت عليه الشدائد، وتألبت عليه المصاعب، وانتابته الأمراض، وتراكمت عليه المحن، ولو أصبح عرضة لأنواع الهزء والسخرية والافتراء والنميمة، بل يبقى متمسكا بحبه لله، معتصما برجاء خلاصة، سائرا بل تردد في طريق واجباته. وهكذا يصمد للبلوى من أجل الله صمود الأبطال مهما تقلبت عليه صروف الدهر، وتلونت الأحوال.

---

[1] متى، ٧: ١٤.

وأن احتمال الشدائد لهو أكرم وأعظم من الإقدام على اقتحامها، لأنه يتطلب عزيمة أقوى , تجلدا أمضى. وأن التصبر والتجلد لأصعب من المهاجمة والاقتحام، كما يقول توما اللاهوتي.sustinere difficilius est guam aggredi . وسببه: أن الصمود للمهاجم معناه أن المهاجم أقوى وأعز. فالمهاجم يتعرض فقط للمساوئ التي هو اختارها ولم تحل بعد عليه، أما المدافع فإنه يتخبط في مساوئه ومصاعبه. والتصبر معناه الجلد الدائم على الشدائد، أما الإقدام على صعاب الأمور فيحمل وطأتها زمانا يسيرا. لذلك كانت الشجاعة في الاحتمال أشد مراسا وأكثر أجورا من الشجاعة في الإقدام على صعاب الأعمال. فإن من أقعدته الأمراض مثلا عن العمل زمانا طويلا، أو من صار عرضة لمهاجمة التجارب أياما وشهورا بل سنين وسنين، أو من كان غنيا فافتقر، أو عزيزا فذل، أو من كان في نعمة فزالت عنه، أو كان له عزيز فنأة عنه، أو كان له وحيد أو معين أو سند أو رفيق فخسره. فكم يلزم مثل هؤلاء من الشجاعة المسيحية لكي يصمدوا للشدائد، ويتحملوا المتاعب، ويخضعوا لأحكام الله، أو لكي يباركوا اليد التي ربما يتراءى لهم أنها تقسو عليهم وتضطهدهم. وأروع مثال على ذلك صبر أيوب وشجاعته. فأنه رغم ما فقده من خيراته، ومن أولاده، ومن صحته، ومن جاهه، ومن سائر نعيمة، بقي معتصما بالله، متكلا على مراحمه، متسلما بلا ملل ولا كلل لمشيئته وأحكامه. وعندما خارت قوة امرأته أمام محنتها أتته شاكية باكية ساخطة تجدف على الله وتدعوه هو أيضا لكي يشاركها في ثورتها وتجديفها، أجابها بشهامة بقيت مثلا أعلى لمن أعرضت عنهم الدنيا :(إنما كلامك بشهامة بقيت مثلا أعلى امن أعرضت عنهم الدنيا:(إنما كلامك كلام احد السفيهات أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشر[1]. الرب أعطى وارب أخذ فلبكن أسم الرب مباركا)[2].

ومن الشجاعة الكبرى أيضا حسن القيام والواجب اليومي بلا كسل ولا توانٍ ولا ملل ولا إنقاص ولا تأفف ولا تذمر، بل أمانة وثبات وقوة وعزيمة، وتساو في النفس، وهدوء في العاطفة، وقوة في الإرادة، رغم المصاعب والمتاعب، من غير أن نعتمد على إعجاب الناس ومن غير أن نبالي بسخطهم وازدرائهم، أو نطمع في رضاهم، أو نخاف من غضبهم، بل محبة لله، ولأجل وجه الله. إن من وصل إلى هذه الذروة من كمال الشجاعة المسيحية كان جديرا بأن يحصى من عظماء البلد مع عظماء الأبطال. ولقد أصاب البابا لاون الثالث عشر لما قال: أيتونى براهب يحسن القيام بكل واجباته اليومية فأطو به وأعلن قداسته).

[1] أيوب، ٢: ١٠.
[2] أيوب، ١: ٢١.

البحث الثاني
في درجات فضيلة الشجاعة

الشجاعة درجات وكمالات. فالمبتدئون في الكمال المسيحي يمارسون الشجاعة بأن يكونوا أولا دائمي الاستعداد لمقاومة التجارب التي تعرضهم للخطايا الثقيلة، فيصمدون لها مهما اشتدت عليهم وطأتها، وتتابعت هجماتها. حتى لا يبلون بالأخطار، ولا يتوارون أمام المتاعب، بل يحافظون بكل قواهم على نقاوة قلوبهم. وعلى جمال النعمة في نفوسهم، لأنهم موقنون بأن متاعب الحياة بأسرها وكل شدائدها (لا تقاس بالمجد المزمع أن يتجلى فينا)، حسب قول الرسول[1]. لذلك تراهم يؤثرون احتمال كل شدة، لا بل كل شر زمني، في سبيل محافظتهم على رضى الله ونعمته. وقياما بواجباتهم كمسيحيين حقيقيين.

ثم أنهم لا يهابون انتقاد الناس لهم ولعبادتهم ولقيامهم بواجباتهم، ولا يقيمون وزنا لكلامهم وتهكمهم، ولا يبالون بما يتقول الضعفاء بالإيمان عليهم وعلى تقواهم وصلاحهم، ولا يستسلمون للحياء البشري أمام زملائهم واقرانهم، ولا إمام رؤسائهم وأسيادهم، بل يذهبون في طريقهم غير هيابين، ولا خائفين أو متزعزعين في إعلان مبادئهم المسيحية والمحافظة عليها. والحق يقال أن هذا ليس بالشيء اليسير. وكثيرا ما تكون الشجاعة في مثل هذه الأحوال أكثر بطولة منها أمام الموت في ساحات الوغى. لأن سهام العيون الساخرة، ولو أذع الألسن المتهكمة، هي أشد وقعا على القلوب من رصاص البنادق، وطعن السيوف في الثورات والحروب.

ولقد يضطر المرء إلى شجاعة كبرى حينما يتنازعه عاملان قويان، عامل الواجب وعامل الحب. فالمسيحي الحقيقي يضحي بالصداقة بالحب في سبيل الواجب وخدمة الرب، لأن الله أحق من الناس بأن يحب ويخدم ويطاع. وأن الصديق الذي يبعدنا عن القيام بواجباتنا الروحية أو الأدبية أو الاجتماعية لا يبقى صديقا بل يصبح عدوا. وقد قال الرسول لأهل غلاطية: (العلي أستعطف الناس أم الله. أطلب أن أرضي الناس؟ أني لو كنت بعد أرضى الناس لما كنت عبدا للمسيح[2]. وفي هذا المعنى سبق وقال رب المجد:(لا تظنو أني جئت لألقى على الأرض سلاما لكن سيفا. أتيت لا فرق الإنسان عن أبيه والابنة عن أمها والكنه عن حماتها. وأعداء الإنسان أهل بيته)[3]. لأن محبة الأهل قد تحملنا أحيانا على الإهمال واجباتنا نحو الله ونحو قريتنا، فيصبح أهلنا أعداء لنا. حينئذ تنزل الشجاعة المسيحية إلى الميدان وتحملنا على تفضيل الله على أقربائنا وأصدقائنا. وهكذا لا نترك قداس الأحد والعيد لأجل زيارة الصديق، ولا نهمل دعوتنا الرهبانية لأجل إرضاء أب، أو خوفا من دموع أم، أو طمعا بخيرات زمنية، ولا ندوس واجبات الصيام هربا من نظرة استخفاف أو كلمة تعبير. فالشجاعة هي التي تدفعنا إلى الانتصار لله ولشرائعه ولوصاياه ولوصايا كنيسته.

وماذا نقول فيمن يضحي بواجباته الدينية أو العائلية، أو الوطنية، في سبيل شهرة عالمية، أو منافع محرمة زمنية. إن البعض تسكرهم خمرة الجاه وتطرب آذانهم تصديه الاستحسان فيستسلمون لها، ويتركون واجباتهم، ويخونون ضمائرهم وعقائدهم. فمثل هؤلاء تلزمهم شجاعة قوية ليفوزوا على جماح عواطفهم ومطامعهم، ويقهروا أميالهم، ويصمدوا لهجوم

[1] رومية، ٨: ١٩.
[2] غلاطية، ١: ١٠.
[3] متى، ١٠: ٣٤.

الشهرة الكاذبة عليهم. لأن المجد الحقيقي، والشرف الصادق، هو ما يأتي من الله، ومن رضي الضمير، وليس من إعجاب الناس، وكثرة الأموال، وتصفيق الجماهير.(من افتخر فليفتخر بالرب)[1].

أما النفوس المتقدمة في الكمال المسيحي فإنها تستنير في أعمال شجاعتها بشجاعة السيد المسيح. فتتأمل في حياته وتسعى في حياته لتقتفي إثره.

إن الفادي الإلهي من يوم ميلاده إلى يوم وفاته كان مثلا أعلى للشجاعة المسيحية في كل معانيها وكل مظاهرها. فما كاد ينبثق من أحشاء والدته الفائقة الطهر والقداسة انبثاق الفجر من أفق الدنيا حتى قدم ذاته لأبيه السماوي ذبيحة مرضية، ليستبدل بذبيحة نفسه ذبائح العهد القديم الرمزية، ويكفر تكفيرا كاملا صحيحا عن البشرية. وهذا ما حدا به ليسير منذ بدء حياته في طريق الطاعة والفقر والتقشف والصبر، ويتحمل أنواع الاضطهاد، مع مشقات الأسفار، ويضيق على نفسه مدة ثلاثين سنة في قرية حقيرة، وحياة شاقة متعبة، بل هي في أعين الناس خاملة.

ولكم تتجلى الشجاعة في حياته العلنية. يقضي معظم أوقاته صائما، ويحيي الليالي في الصلاة، ويطرد الشيطان بشهامة عن طريقه، ويهاجم معلمي الناموس في سخافاتهم، ويفضح الفريسيين في كذبهم وكبريائهم ورئائهم، ولا يعتمد في تبشيره وتعليمه وعجائبه إلا على التواضع والأمل والرحمة، وتمجيد الأب السماوي، ولا يسعى إلا إلى حمل النفوس على محبة الله ومحبة بعضها لبعض، وبعمل دائما على نشر روح السلام بين الناس، وإصلاح ما فسد من أخلاق البشر، مزدريا بالشهرة العالمية الحقيرة الزائلة، ومحذرا تلاميذه ومن تلاميذه ومن سوف يؤمنون به من خداع الدنيا وأكاذيبها.

فهو الذي كان خاضعا ليوسف ومريم مدة ثلاثين سنة[2].

وهو الذي هزم المجرب إذ قال:(اذهب يا شيطان)[3].

وهو الذي وبخ هامة رسله لما رأى أن محبته له تريد أن تبعده عن واجباتنه فقال له: (اذهب خلفي يا شيطان لأنك لا تفطن لما لله لكن لما للناس).[1]

وهو الذي زجر الرسولين حبيبيه يعقوب ويوحنا لما غضبا على السامريين وأرادا أن يطلبا نار السماء لتنحدر عليهم، وتفنيهم فقال يعنفها:(لستما تعلمان من أي روح أنتما، فان ابن البشر لم يأت ليهلك نفوس الناس بل ليخلصها).[2]

وهو الذي صب الويلات على الفريسيين الأشرار إذ كان يقرعهم ويقول لهم:(الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراءون).[3]

وهو الذي لما حان الوقت سدد وجهه إلى أورشليم، وذهب إلى الالآم بل تردد ولا تأخر).[4]

ثم أية شجاعة فائقة أظهر في ألآمه. لطموه على وجهه، وجلدوه بالسياط، وكللوه بالشوك، وألبسوه لباس المعتوهين، وحملوه صليب الأثمة المجرمين، وأزدروا به وبملوكيته وبقدرته وبسلطانه، وهزوا الرؤوس لذكر صلاحه، ودفعوا الشعب الجاهل الغاشم المتقلب إلى الهتاف في طلب صلبه وموته، ثم عروه من ثيابه، وسمروا بالمسامير الغليظة يديه ورجليه،

---

[1] ٢ كور، ١٥: ١٧.
[2] لوقا، ٢: ٥١.
[3] متى، ٤: ١.
[1] مرقس، ٨: ٣٣.
[2] لوقا، ٩: ٥٥و٥٦.
[3] لوفا، ١١: ٤٢,٣٣: ٦٣_٣٦.
[4] مرقس، ١٠٠: ٣٢.

ورفعوه على الصليب بين لصين على مرأى ومشهد من أمه ومن أحبائه. فلم يتذمر، ولم يعترض، ولم يتأفف، ولم يشتم صالبيه، ولم يجدف على الله أبيه، بل بقي صامتا، صابرا، متجلدا. وكان يقدم ذاته ذبيحة تكفير لأجل فداء العالم. ولما فتح فاء سأل الغفران من أبيه لجلاديه وصالبيه. أليس هذا منتهى البطولة في الشجاعة.

فالنفوس المتقدمة في الكمال المسيحي تأخذي عن الفادي الإلهي خطتها في أعمال شجاعتها. فتجعل حياته ألآمه نصب عينيها في حياتها اليومية، وفي كل عمل من أعمالها. فلا تبدوا لها شدة أو صعوبة أو عاطفة كلل أو ملل، إلا ترى المسيح أمامها ينظر إليها ويشجعها، فتنتصر عليها. فهذه هي الشجاعة المسيحية والبطولة الحقة بعينها.

أما الكاملون من المسيحيين فإن شجاعتهم هي فائقة، وهي موهبة من مواهب الروح القدس، فيسيرون في حياتهم بدافع هذه الموهبة السامية الفائقة الطبيعية.

إن (موهبة الشجاعة) تكمل فضيلة الشجاعة، فتمنح الإرادة قوة وتدفعها دفعا في الأعمال العظيمة الشاقة، وتجعلها تتحمل بنشاط، بل بفرح وابتهاج، أثقال ومصاعب وشدائد هذه الأعمال الكبير الشاقة.

(وموهبة الشجاعة) تختلف عن فضيلة الشجاعة. لأن هذه هي ثمرة جهودنا مع مساعدة النعمة. أما الأولى فهي من فعل الروح القدس وحده. فإنه يمتلك النفس، ويملأها قوة ونشاطا، ويهيئها لتتسلط تسلطا كاملا على قواها الصغرى الجسدية فتأسرها وتخضعها لإرادتها، وتنتصر على المصاعب الداخلية والخارجية الصادرة منها أو المعتمدة عليها. إن فضيلة الشجاعة يبقى معها شيء من التردد والحيرة والخوف. أما (موهبة الشجاعة) فتصب في القلب الحزم والنشاط والفرح والثقة بالنجاح. لذلك كانت نتائجها أفضل وثمارها أغزر.

وكتاب أعمال الرسل يتكلم بجلاء عن هذه الموهبة السامية في كلامه عن القديس "استفنوس" رئيس الشمامسة إذ يقول:[1](وكان استفانوس مملوء نعمة وقوة... وهو إذ كان ممتلئا من الروح القدس تفرس في السماء). فخاطب استفانوس محفل اليهود بجرأة غير هيابة، وبشرهم باسم الرب يسوع رغم ما كان يتهدده من الموت. ولما رجموه كان (يدعوه ويقول: أيها الرب يسوع إقبل روحي.... يارب لا تقم عليهم هذه الخطيئة).

وموهبة الروح القدس هذه تعطي على الأخص النشاط في العمل والصمود للمكارة. والنشاط يحمل النفس على الإقدام في طلب الأمور الصعبة بلا وجل أو تردد. فهذه الموهبة تمكن النفس مثلا من أعمال أو اختلاء الروحي الكامل في وسط الأشغال العديدة الشاقة. هكذا كان حال القديس منصور دي بول رجل الصلاة وصاحب المشاريع العظيمة. وهكذا كانت القديسة تريزيا مصلحة رهبانيات الكرمل ومنشئة عشرات الأديار. كانت نفسا ساروفيمية بتأملاتها المستديمة واختطافها المتواصلة، وكانت حركة دائمة لا تفتر في الكتابات أو التأليف والإرشاد والأسفار والسهر على مشترى الأملاك، وبناء الكنائس والأديار، وتجهيز الراهبات...

وهذه الموهبة تساعد على حفظ العفة الكاملة في وسط بعض الظروف الشديدة الصعبة، كما حدث للقديسين توما اللاهوتي وكارلوس بروماوس.

وهي تمنح التواضع العميق رغم رفعة الجاه ومظهر المجد، وسمو الشرف، كما كان حال الملك الفرنسي لويس التاسع.

---

[1] اعمال، ٦: ٨_٧و٥٥ و٥٨ و٥٩.

وهي تجعل النفس تستهين الشدائد، وتقتحم الأخطار، وتستخف الموت في سبيل إعلان الحقيقة، والتشير باسم الرب يسوع. هكذا كان الرسل، والأساقفة خلفاؤهم وهذا كان ولا حال الألوف والملايين من الرهبان والراهبات والكهنة والمرسلين والشهداء والمعترفين.

وهي تعطي الجرأة القوية لرجال الله أمام الرؤساء العاتين، أو السلاطين المستبدين، كما حدث للقديس بايليوس الكبير، وللقديس الذهبي الفم. (يلقون أيديهم عليكم ويضطهدونكم ويسلمونكم إلى المجامع والسجون وتقادون إلى الملوك والولاة من أجل أسمي... فضعوا في قلوبكم إن لا تفكروا من قبل فيما تحتجون إليه. فإني أعطيكم فما وحكمة لا يقدر جميع مناصبيكم على مقاومتها ولا مناقضها).[1]

وهي تجعل المرء أيضا يصبر بأناة على مضض الحياة مهما طالت، وعلى التجارب مهما اشتدت، وعلى اليبوس الروحية مهما استمرت، وعلى الالآم القلبية مهما مزقت الفؤاد وبرحت. وتحمل على الثبات في حمل القوانين مهما تعددت وتنوعت وصعبت، ليس ساعة باكل ساعة، وليس يوما بل كل يوم وكل سنة، وطول الحياة، فتجعل النفس لا تكل ولا تمل ولا تقنط ولا تجزع، كما حصل للقديسة تريزيا الطفل اليسوع، ولأمها ورئيستها الكبرى تريزيا الاقيلية، ولرجل الله يوحنا فياني كاهن أرس، ولرجل المشاريع العظيمة دون بوسكو،ولسائر ألوف القديسين من رجال الكنيسة ورجال الدنيا. فهذا كله نوع من الاستشهاد، بل هو كل الاستشهاد. لأن استشهاد القلب هو أشد وطأة من استشهاد الدم، وهو لا ينقصه كرامة وشرفا وأجورا. أليس هذا هو أيضا حال الألوف من كهنة الرعايا المتواضعين الذين لا يلمعون في الدنيا باسم كبير وعلم زاخر وفصاحة فياضة. وإنما يقضون في خدمة النفوس الموكولة إلى عنايتهم حياة استشهاد دائم.

فموهبة الشجاعة هي التي تنبت مثل هذه البطولة المسيحية الحقة المستمرة بكل أنواعها ومظاهرها.

وما أروع ما قالت القديسة تريزيا الطفل يسوع في سيرة حياتها:(آه يا أمي الرئيسة، لو كانت آلام الاستشهاد هذه التي أتحملها منذ سنة تظهر للعيان لكانت أدهشت من رآها. لقد سمح الله بان يملأ نفسي ظلام كثيف. وإن ما كنت أتمتع به منذ حداثة سني من العذوبة الحلوة كلما فكرت في السماء، أصبح لي الآن سبب تجارب ومخاوف وحب روحية قاسية. ولم تقتصر هذه البلوى على أيام وأسابيع معدودة، بل إني أتألم منذ شهور طويلة، ولا أزال أعلل الأمل بحلول ساعة النجاة من هذا الضيق والخلاص من هذه البلوى)[2] ولقد قالت عنها أخواتها من بعد موتها:(هذا كان شعار تريزيا في حياتها: لا بد لنا من أن نستنزف كل قوانا قبل أن نطلب التخفيف عنا. ولقد حدثت مرارا أن وصلت سحرا للاشتراك في صلاة الفرض رغم ما كانت به من الدوار، ورغم ما كان بها من آلام رأس شديدة. وكانت أيضا تقول: طالما أقدر أمشي فلا بد لي من أن أقوم بواجبي. فكانت شجاعتها هذه في أفعالها العادية تسمو بها إلى ذروة البطولة الحقة).[3]

إن الحياة المسيحية الصحيحة الكاملة هي حياة الصبر بشجاعة على حسن القيام بالواجبات اليومية. فإن المسيحي الحقيقي هو الذي يقيد نفسه من الصباح إلى المساء بقيد القانون فلا يحيد عنه يمنة أو يسرة، هو الذي يبقى متنبها نهاره كله وليله إلى الإتحاد بالله بالصلاة والمناجاة وأفعال المحبة المستمرة، هو الذي يمنع طرفه عن أن يتطلع إلى كل شئ، هربا من الخفة والطيش، هو الذي يصبر بصمت على تقلبات الفصول وحرها وبردها وزوابعها وأمطارها، فلا يتململ ولا يتأفف، هو الذي يحسن معاملة قريبه رغم ما يشعر به من الاشمئزاز نحوه ومن النفور منه، هو الذي يقبل بتواضع توبيخ

[1] لوقا، ٢١ :١٢-١٥.
[2] في كتاب حياتها ص١٨٦و١٨٨.
[3] أيضا ص٢٧٦.

رؤسائه، وتونيب أمثاله لأفعاله، هو الذي لا يستنكر ذوق قريبه، وأمياله، بل يتحمل بكامل الرضى أطباعه وأخلاقه وثوراته ونزعاته، هو الذي يثابر على كبح أهوائه وأمياله، ويقاوم ما ساء من رغبات قلبه، ويلجم مطامع حياته. هذا كله ليس مرة بل كل مرة، وليس ساعة بل كل ساعة، وليس بتصبر وتجلد فقط، بل بسرور قلب أيضا وحبور. هذه هي البطولة المسيحية الصحيحة، وهي ثمرة فضيلة الشجاعة وموهبة الشجاعة.

ولقد قال الرب يوما للطوباوي سوسو:(يجب على من يخدمني أن يرغب أولا في التجرد وان يموت موتا كاملا عن ذاته وعن سائر المخلوقات التي تحيط به. عن هذه الدرجة من الكمال لهي نادرة. إلا أن وصل إليها يرتفع بها سريعا إلى الله... فلا عجب إذا كانت الشدائد والصلبان حينئذ لا تسبب له من التأثر والانفعال ما تسببه لغيره، أعني لذاك الذي وطن النفس على اجتناب كل ألم، وعلى الهرب من كل شدة. أن القديسين ليسوا أقل من سواهم شعورا بالعذاب والألم. إلا أن نفوسهم بعيدة عن الخوف والهلع لأنها لا ترغب إلا في الصليب، ولا تستعذب الا الألم... نعم عن أجسادنا تتألم، ولكن هي نفوسهم ثملة بمحبة الله تتذوق طعم سعادة لا وصف من سحر العذوبة الإلهية... أن عاطفة الحب التي تتملكهم تجعلهم لا ينظرون إلى الآم كأنها بلوى. لأنهم بإتحادهم الله ينعمون بسلام عميق لا يزول ولا يخالطه كدر).

وإن موهبة الشجاعة هذه لا يمكننا الحصول عليها بواسطة الصلاة، وعلى الأخص بواسطة المناولات المتواترة التي تصب في النفس قوة إلهية لا تقف أمامها مصاعب الحياة. وإذا ما كنا آمنين في تتميم واجباتنا الصغيرة أفاض علينا الروح القدس موهبته السامية فمكننا من إغتمام الواجبات الكبيرة بسهولة ورضى، بل فرح وشكر وهناء. وما أبدع ما قالته القديسة تريزيا الصغيرة وهي في أشد حالات المرض والتألم:(لم يبقى للألم سبيل إلى لأن كل عذاب أصبح لي لذة).[1] أن هذه الراهبة الصغيرة هي حقا بطلة الشجاعة المسيحية الكبرى.

[1] كتاب حياتها:فصل ١٢ص ٢٨٦.

البحث الثالث

في كيفية الحصول على فضيلة الشجاعة، وفي طرق تقويتها

إن أولى الوسائط وأفضلها للحصول على فضيلة الشجاعة هي ثقتنا بالله وحذرنا من نفسنا، ومن اعتمادنا على ذاتنا في خلاص نفوسنا.

أما ثقتنا بالله فإنها تنكل عليه وعلى نعمته، عالمين أن كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة تاتينا من لدن الأنوار. فحينما نعتمد عليه ونطلب معونته بصلاة حارة متواصلة ننال الشجاعة اللازمة لنا في جهادنا.(من يثبت في وأنا فيه فإنه يأتي بثمر كثير. لأنكم بدوني لا تستطيعون أن تعملوا شيئا).[1]

وفي هذا المعنى قال الرسول بولس أيضا(إنني أقدر على كل شئ بالذي يقويني).[2]

ولا بد أيضا من أن تأخذ حذرنا من نفسنا، ومن كبريائنا، ومن اتكالنا على قوانا وفي أمر خلاصنا. وإلا تخور لا محالة ، قوانا ونستسلم لضعفنا.(ولنا هذا الكنز في آنية خزفية ليكون القوة لله لا منا).[3]

لذلك وجب على الذين تهاجمهم تجارب الكبرياء والاعتداد بالنفس أن يغذوا فيهم عاطفة الحذر من نفوسهم، والتجرد من اعتمادهم على ذاتهم في روحياتهم.[4] وليس معنى هذا أن يستسلموا للكسل والخمول، بل عليهم أن يجاهدوا وأن يتكلموا في جهادهم على الله المعطي المعونة والقوة. أما الجبناء والموسوسون والمتشائمون الذين لا يرون في الدنيا إلا بؤسها فعليهم أن يعلموا على إنعاش روح الاتكال على الله في شدائدهم ومصاعبهم.(لأنك أنت يارب قوتي).[5]

والواسطة الثانية للحصول على فضيلة الشجاعة هو رسوخ العقائد المسيحية في قلوبنا، لأن من تشبع بروح الإيمان، وبعقائد الإيمان، يجد فيها النشاط اللازم والشجاعة الكافية عندما تهاجمه التجارب، أو تكتنفه المحن، أو تخيم على قلبه اليبوسة الروحية الصعبة، فيصبح في حالة الضعف يخشى عليه من التراخي، بل من السقوط. فإيمانه يقويه، وما رسخ فيه من العقائد القوية يثبنه، والصلاة تجلب له النعمة فتنشطه وتكمل عملها فيه.

ومن الوسائط الحسنة لتغذية الشجاعة المسيحية وتقويتها هي استدراك المحنة قبل وقوعها والاستعداد لها. لأن من تأهب للشدة خفت عليه وطأتها. فلا يلبث أن يقهرها.

أما الواسطة الكبرى الفعالة من بعد الصلاة والنعمة لنيل فضيلة الشجاعة فهي عاطفة المحبة الصادقة القوية التي يجب أن نعمل دائما على إيقاد نارها في قلوبنا نحو الرب يسوع، فتحفظ لنا النشاط، وتغذي فينا القوة والإقدام. (فإن المحبة قوية كالموت)[1]. هذا هو سر مانراه في التاريخ من عظيم ما أتاه الرسل والشهداء والمعترفون والأبرار والمرسلون وسائر رجال الله في الدين والدنيا من عظائم الأمور لأجل تمجيد الله، وأعلاه شأن كنيسته، وخدمة البشرية في كافة مناحيها الروحية والزمنية. فلم يهابوا شدة، ولم تقهدهم محنة ولم ينالهم تراخي ولا ملل، لأن محبة المسيح كانت دائما تحثهم[2].

---

[1] يوحنا ١٥: ٥.

[2] فيلي ٤: ١٣.

[3] ٢كور ٧٤.

[4] ولكن لا يبرح عن بالنا ن الإعتماد على النفس في الروحيات هو خطأ، وأنه في الزمنيات صواب أما في الروحيات صواب أما في الروحيات فلأن العمل هو فائق الطبيعة ولا بد لإتمامه من النعمة. أما في الزمنيات فلأن العمل زمني ويجب أن يصدر عنا وليس عن غيرنا الذي إنما هو نظيرنا.

[5] مزمور ٤٢ :٢.

[1] نشيد ٨: ٦.

[2] ٢ كور ٥: ١٤.

وتستفزهم وتجدد نشاطهم.(فمن يفصلنا عن محبة المسيح أم ضيق أم جوع أ عري أم خطر أم اضطهاد أو سيف...إنا في هذه كلها نغلب بالذي أحبنا. فإني لواثق أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا أشياء حاضرة ومستقبلة ولا علو ولا عمق ولا خلق آخر يقدر أن يفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوه ربنا)[٣].

حوادث تاريخية

القديسة باربرة

كانت برابرة شابة رائعة الجمال، نادرة الذكاء، مثقفة ثاقفة عالية، كثيرة الغنى والخيرات. وكانت معبودة أبيها أذ كانت وحيدته، وسلوته من بعد وفاة زوجته. وكانت الدنيا تضحك لها بكل زخارفها ومسراتها وأمجادها. وتقدم للزواج منها أشرف واغني شبان مدينة نيقوميدية العظيمة عاصمة بلاد آسيا. لكنها رأت أن الرب يسوع هو أحسن عريس لنفسها وهو نعيم أبديتها، وهو حارس نقاوتها ونضارتها. فتعلقت به، وزهدت في كل شئ سواه حبا له.

فاندفعت الدنيا عليها تهاجما. فلم يثنها لا وعد ولا وعيد، ولا تمليق ولا تهديد، بل صمدت للهجمات بشجاعة فائقة. فأهانوها وضربوها وسجنوها. ثم مزقوا بالحديد جسمها، وأسالوا دمائها، فثبتت على ولائها لعريس نفسها. هزئت بكل عذابات الروح والجسد، كما كانت قد ازدرت بكل نعيم أرضي وبكل غنى ومجد. فلما رأى أبوها ذلك منها حنق عليها، ووثب وقطع بيده رأسها. فطارت نفسها إلى العلى لتنعم إلى الأبد في دار الخلود بإكليل شجاعتها ومحبتها ليسوع عروسها الإلهي.

[٣] رومية٨: ٣٥_٣٩.

الفصل السادس

في فضيلة الشهامة

الشهامة هي ميزة النفس الكبيرة ذات الأخلاق العالية. وهي فضيلة أدبية مسيحية تحملنا على القيام بأعمال عظيمة في سبيل الله وخدمة الناس بعاطفة شريفة ونفس كريمة. لذلك هي فرع من فروع فضيلة الشجاعة.

فالشهامة والخساسة على طرفي نقيض. فالخساسة والمطامع الذاتية مصدرها الأنانية، تحب الشهرة، وترغب في الرفعة، وتبغي المجد العالمي والسلطة. إما الشهامة فهي مجردة، لا تطلب فيما تأتيه من عظائم الأمور سوى إكرام الله عز وجل. لذلك فإنها لا تصدر إلا عن نفس شريفة وأخلاق عالية، ولا تصبو إلا إلى غاية رفيعة كريمة سماوية. ولا بد لها من الشجاعة لتكون أفعالها مطابقة لإيمانها، ولكي تكون صادقة التجرد في نواياها وأعمالها.

وهي لا تكتفي بأن تريد وتشتهي ما تفعل، وتقوم بإنشاء المشاريع التقوية والخيرية الكبيرة، نظير إنشاء الراهبانيات والجمعيات والكنائس والديورة والمستشفيات والمدارس والملاجئ والمياتم ودور العجزة ومآوي المتشردين وما يشبهها. وتطلب في الكمال ذروته، وفي الفضيلة أعلاها. فالشهامة هي فضيلة النفوس الكبيرة النبيلة. فقد كانت فضيلة القديسين باسيليوس الكبير، واثناسيس الاسكندري، وأغناطيوس الياسوعي، وفرنيس الاسيزي، وعبد الأحد الدومينكي. كانت فضيلة الكردنيال لا فجري، والكردينال نيومن، والبطريرك مكسيموس مظلوم، وسواهم من كبار رجال الكنيسة. كانت فضيلة ألوف عديدة من عظماء النصرانية نظير اوزانام فرو، وغرسيا مورينو، وسواهم.

ونقيضها انكماش النفس والجبن والخوف والتراجع والتردد، وهي نقائض النفوس الصغيرة التي ترهب الإقدام، وتحسب حساب الفشل قبل حساب النجاح، وتهرب من التعب، وتتخبط في التردد فلا تعرف أن تستقر على رأي. وهكذا تبقى كسولة جامدة بلا حركة ولا بركة، فتضيع الحياة في الخمول، ولا تأتي بثمرة. ولقد كان يجدر بها أن تتعرض لشيء من الإخفاق مع أن تبقى متقاعسة بلا عمل. ومثلها مثل صاحب الوزنة الذي حفر ووراها في التراب هربا من السعي وخوفا من الخسارة، فحكم عليه الرب بالحرمان والخذلان.

حادث تاريخي

كاسيلدا الكرملية الشريفة

إن القديسة تريزيا الكبيرة الأفيلية وصفت بإسهاب في كتابها "الإنشاءات"[1] كم أظهرت الابنة الشريفة كاسيلدا من الشهامة في إتباع دعواتها الرهبانية.

كانت عائلة بادلاً من إشراف مقاطعة كاستيليا في إسبانيا، في القرن السادس عشر. فمات رب هذه العائلة وخلف ولداً يدعى أنطونيو وابنتين لويزا وكاسيلدا. وكانت الشرائع تقضي بأن يرث الابن البكر اسم أبيه ولقبه وأمواله.

[1] Le Liver des Fondations.

ولكن أنطونيو ما لبث أن ضحَّى بكل خيرات الدنيا ونعيمها، وذهب فدخل في سلك الرهبانية اليسوعية تاركاً لشقيقته الكبرى لويزا كل ميراث أبيه.

إلاّ أن لويزا عافت بدورها أمجاد الدنيا ومسراتها، وتنازلت لأختها الصغرى كاسيلدا عن حقوقها، وتفرغت للعبادة في زاوية منعزلة من بيت أبيها. فعادت تلك الخيرات الطائلة والمجاد العالية للابنة كاسيلدا وكانت لم تتجاوز بعد الحادية عشرة من عمرها. فسارعت إليها الدنيا تخدمها وتتملقها، وتعظم شأنها، وتقدس أقل إشارة من إشارتها. وتقدم أحد الأشراف من أقربائها فخطبها، وأخذ يبالغ في إظهار محبته لها وشغفه بها حتى تملك قلبها. فصارت لا تطيق البعد عنه. وصار كلما غاب عنها شعرت بغيوم الضجر والسآمة تملأ قلبها.

وكانت تربية الاسبان في تلك الأزمان تربية دينية قوية عميقة. فكانت كاسيلدا تقية متعبدة. وكانت شديدة النباهة. فما كادت تبلغ الرابعة عشرة من عمرها حتى صارت تتحقق يوماً بعد يوم بطلان الدنيا وسرعة زوال نعيمها وأمجادها. ورأت أخاها وأختها نبذاها بحق. فعزمت هي أيضاً على أن تترك الدنيا للدنيا. فهربت يوماً من الأيام واعتصمت في دير الراهبات الكرمليات.

فلما رأى خطيبها جُنَّ جنونه. وقام أهله يناصرونه. إلاّ أنهم اصطدموا بشجاعتها الفطرية وشهامتها الفائقة. فاستعانوا بأوامر الملك وأعادوها بقوة الشرطة إلى قصرها. ولكنها هربت ثانية. فتركوها وشأنها.

هكذا انتصرت شجاعة كاسيلدا وشهامتها على كل حيل الدنيا وجنودها. وقضت في الدير حياة ملائكية، وماتت كالملائكة. وكانت القديسة تريزيا تدعوها الملاك. وبقيَ لها هذا الاسم طول حياتها ومن بعد وفاتها.[٢]

[٢] Histoire de ste Thérése, T. II, pp. 46-48.

الفصل السابع
في قضية السخاء

هي أيضاً من فروع فضيلة الشجاعة. السخاء هو الجود والكرم في البذل والعطاء. وغايته تمجيد الله وتعظيمه لكونه هو السخي الأكبر الجواد. وهذه الفضيلة تحمل النفوس النبيلة على البذل بلا حساب الله وأعمال الله.

والسخاء في الدنيا كثير، والحمد الله. ها هي القاهرة، والإسكندرية، ودمشق والشام، وجبال لبنان، والدنيا المسيحية كلها، شرقاً وغرباً، فإنها تنطق على الدوام بكرم المسيحيين وأريحيتهم، وصدق إيمانهم، وعالي مبادئهم. فإن الأموال تبذل بلا حساب في سبيل المشاريع الدينية والخيرية على كثرتها وتعددها وتنوعها، والدنيا ملأى بالأوقاف المحبوس ريعها على شتى المشاريع السماوية والأرضية معاً. وها هي الكنائس والأديار والمدارس والمستشفيات والآوي والمطاعم والجمعيات وكلها تعيش من ريع الأوقاف ومن حسنات المؤمنين، إن ميزانية الصليب الأحمر الدولي مثلاً لا تعد إيراداتها ومصروفاتها إلا بالملايين. وجمعية الإسعاف العمومية في القطر المصري تساعد الألوف من المرضى والمصابين. وهكذا قل عن الوف الجمعيات والمؤسسات الخيرية في الدنيا المسيحية. لأنه من يوم أن قال الرب: "أعطوا تعطوا[١]... كنت جائعاً فأطعموني[٢]... بهذا يعرفون انكم تلاميذي إذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً"[٣]... من يوم انتشرت النصرانية هذا التعليم انتشر السخاء بين العالمين.

ولكن لكي يكون السخاء فضيلة مسيحية يجب أن تكون غايته سامية، وأن يكون العطاء لوجه الله وإكراماً له تعالى. اما إذا توخى الإنسان في عطائه وسخائه الجاه العالمي والمجد والشهرة، وتعظيم الناس له، وثناءَهم على عمله، فإن السخاء يصبح دعاية، وربما أصبح رذيلة ممقوته. "إنهم قد أخذوا أجرهم"[٤].

فالسخاء هو فضيلة الناس الطيبين من الأغنياء. وهو الحيلة البديعة التي يزينون بها حياتهم، والجوهرة الفريدة التي تبقى لهم في آخرتهم. آه لو علم بعض الأغنياء من النفعيين أو البخلاء، جليل نفع هذه الفضيلة لهم لبادروا إلى اعتناقها، وبذلوا أموالهم بسخاء في سبيلها، لأنها اللؤلؤة الثمينة التي تكلم الرب عنها، ودعا إليها، وأثنى على من باع ماله كله واشتراها[٥]. فإن الدرهم الذي يبذل في سبيل الله يحفظ لباذله، والذي يذهب في سبيل الفخار أو المطامع أو الأهواء يضيع على صاحبهِ.

والسخاء لا يعتمد حقاً على الغنى. بل هو بذل ما بيدنا بجود وكرم على قدر طاقتنا. فالسخاء هو كرم النفس قبل أن يكون كرم اليد. إن القديس منصور دي بول كان فقيراً، ولكن لم يضاهِهِ امرؤٌ في عصره بجوده وكرمهِ وبذل الملايين في سبيل المشاريع التي أنشأها وكانت تعيش من نوالهِ، فكان ينال كثيراً ويبذل كثيراً. ومن اتكل على الله وطلب وجه الله قدَّره الله على فعل العظائم. ومكَّنه من المكارم. ولقد بقي فلس الأرملة مثلاً رائعاً لمعنى السخاء الحقيقي. ويكفي أن الرب عظَّمه ومجّدَ صاحبه.

---

[١] لوقا، ٦: ٣٨.
[٢] متى، ٢٥: ٣٥.
[٣] يوحنا، ١٣: ٣٥.
[٤] متى، ٦: ١٦.
[٥] متى، ١٣: ٤٥.

وآفة السخاء التبذير، وهو بذل الموال بلا داع ولا منفعة، وكثيراً ما يكون بدافع الشهرة. ومنهم من يتحمَّس ويبذل أكثر من طاقته فيقع في العوز. فمثل هؤلاء تلزمهم الفطنة لتحرسهم من التهور والتسرع والخفة.

والسخاء ضد البخل، وهو رذيلة ممقوتة وقانا الله شرها. فهي من الرذائل الرئيسية التي تميت في النفس كل عاطفة مسيحية، لا بل كل مزية إنسانية.

حوادث تاريخية
في السخاء المسيحي

إن الحوادث التاريخية في السخاء المسيحي هي أكثر من أن تعد وتحصى، فنكتفي بإيراد بعضها بمنتهى الإيجاز.

عزم البابا لاون الثالث عشر يوماً على إنشاء معهد عالٍ لدروس الكتاب المقدس. فوضع له المهندسون التصاميم اللازمة، وأعلنت الصحف أكلافه فبلغت مليون فرنك ذهباً.

ولم تمض الأيام القليلة حتى تسلم قداسة البابا تحويلاً بمبلغ مليون فرنك ذهباً من "فاعل خير" لم يشأ أن يذكر أسمه، ليكون إحسانه لوجه الله، مجرداً عن كل غاية بشرية. إلا أن هذا المحسن الأمثل رجا الحبر الأعظم أن يتكرم وينصب في صدر القاعة الكبرى التي ستُشيّد لهذا المعهد تمثال قلب يسوع، وأن يضع عند قدمي هذا التمثال شعار فرنسا. فكان هذا الطلب دليلاً على أن المحسن هو فرنسي. سخاء مسيحي!

لقد اشتهر آل صيدناوي بمصر بسخائهم في إحسانهم. فأنشأ سليم وسمعان صيدناوي مدرستنا الكبرى على شارع الملكة نازلي، بلغت تكاليفها بحسب معرفتنا نحو خمسين ألف جنيه ذهباً.

وأنشأ يوسف باشا صيدناوي ابن المرحوم سمعان بك صيدناوي مستشفى وطنياً بلغت تكاليفه نحو خمسة وأربعين ألف جنيه.

وأنشأ ورثة سليم وسمعان صيدناوي مستوصفنا المجاني الطائفي ومدرستنا المجانية وأنفقوا عليهما أيضاً أموالاً طائلة. سخاء مسيحي!.

ووافق المحسن الكبير المرحوم جورج طويل لمشاريعنا الخيرية الطائفية في مدينة الإسكندرية، الكنيسة الكاتدرائية، والدار البطريركية، وخمس بنايات كبيرة قريبة منها.

وكلها واقعة في إحدى النقط الرئيسية في تلك المدينة العظيمة البحرية. سخاء مسيحي!

وقس على هذه الأمثلة ملايين مثلها في أقطار الأرض الواسعة.

الفصل الثامن
في فضيلة الصبر

فضيلة الصبر هي فرع من فروع فضيلة الشجاعة، وهي الشقيقة الكبرى لفضيلتي الشهامة والسخاء، ولكنها تفضلهما وتتقدم عليهما. لأن السخاء هو بذل المال، أما الصبر فهو بذل الذات. "ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يبذل نفسه نعن أحبائِه"[1]. فلقد يصبر الإنسان على فقد مالِه أكثر مما يصبر على ضياع حريتهِ وصحتهِ وذاتهِ. لذلك كان الصبر على البلوى أكرم من السخاء في العطاء والتبرع بخيرات الدنيا.

المبحث الأول
في ماهية فضيلة الصبر

الصبر هو فضيلة أدبية مسيحية تجعنا نتحمل بنفس هادئة جميع الآلام النفسية والجسدية لأجل الله وإكراماً له، واقتداءً بالسيد المسيح الفادي، ومشاركة له في آلامه.

إن الفضيلة الصبر هي من الفضائل العملية اليومية، لأن الآلام هي رفيقة الإنسان في حياته طول الأيام. ولقد قال الرب: "من لا يحمل صليبه كل يوم ويتبعني فلن يستحقني"[2] . فالصليب هو الرفيق الدائم الذي لا بد منه شاء المرء أو أبى. هو قرين العمر يلازم الإنسان من المهد على اللحد، في حداثتهِ وشبابِه، وكهولتهِ وشيخوختهِ، رجلاً كان أو امرأة، عبداً أو حراً، ملكاً أو سوقة، قائداً عظيماً أو جنيداً بسيطاً، اسقفاً خطيراً أو راهباً صغيراً. ولقد يكفي المرء، ليكون قديساً عظيماً، شدائده الخاصة به، لو قبلها بصبر ورضى، إطاعةً لله وتمثيلاً بالسيد المسيح. إلا أن الكثيرين ينفرون من الألم فيتذمرون ويتأففون، بل مراراً يثورون ويجدفون على إحكام الله. حقاً يالتعاستهم. لأن الألم لا بدّ منه يرافقهم فيتألمون، فإذا هم تذّمروا يضيعون أجورهم فلا ينتفعون.

ومنهم من يحملون أصناف الشّدة والتعب والسهر والمرض أياماً وأشهراً وسنين طوالاً وهم راضون قانعون، ولكن ليس لأجل الله ومحبة لله بل طمعاً أو متاع أو وظيفة أو جاه، أو سعياً وراء عشق أثيم، أو انتقام ذميم، أو رغبة في التسلط والمجد والزهو والمفاضلة، أو حباً للصيت والشهرة، أو لغير ذلك من الأسباب الزمنية المشروعة أو الغير المشروعة؛ فهؤلاء يكون صبرهم خاسراً، فلا أجور سماوية لهم، لا بل إذا كانت غايتهم آثمة فإنهم يأثمون.

أمّا الصبر على مصاب الحياة وشدائدها بروح العبادة والتواضع والتفكير والمحبة والتشبه بالسيد المسيح فهو الفضيلة الحقة المسيحية التي لها الجور السماوية وموعد الحياة الدائمة الأبدية. إن في الصليب الذي يقبله المرء برضى ويحمله بصبر إكراماً لله، وخضوعاً لتدبيره وأحكامه، ومشاركة لابنه الحبيب في آلامه، في هذا الصليب التكفير والتبرير والأجور السماوية، وقوة النفس في جهدها، وصعودها إلى قمة القداسة في حياتها. نعم إن الصليب الذي يحمله المسيحي بقبول

[1] يوحنا، ١٣: ١٥.
[2] مرقس، ٨: ٣٤.

يكفّر به عن خطاياه، وينقّي به نفسه من آثامها، ويحفظ لها في السماوات كنوزاً لا تبلى. وبه يشدّد عزائمه في المحن، ويقوى على التجارب، ويصل إلى القداسة الحقة المسيحية في الدنيا وإلى السعادة الدائمة في الآخرة. "تذكريا ابني إنك نلت خيراتك في حياتك ولعازر كذلك بلاياه والآن فهو يتعزى وأنت تتعذب"[١].

ومن الناس نفوس شهمة أبيه سخية تحمل الصليب بصبر ورضى تكفيراً عن غيرها، لتشارك المسيح في صليبه وفي آلامه لأجل البشر. وهذا هو سر ما نراه في حياة بعض القديسين من الصبر العجيب الذي يصل بهم إلى منتهى البطولية المسيحية. فكم من الزوجات أعدن إلى الإيمان أزواجهن بصبرهنَّ المسيحي وبما احتملن لأجلهم من شدائد ومحن. وكم من أخوات مسيحيات تقيات صبورات متقشفات كنَّ باحتمالهنَّ وصبرهنَّ سبب نجاة وخلاص أخوة لهنَّ كانوا شاردين، ذاهبين وراء مطامعهم، راكضين وراء معاصيهم، متهورين. وكم من راهبات عفيفات محصنات كنَّ للكهنة وللمرسلين في أتعابهم ورسالاتهم أكبر نصير بفضل صبرهنَّ وتقشفهنَّ وجميل خضوعهن.

شكا أحد الكهنة يوماً، إلى القديس ماري فياني كاهن قرية أرس بفرنسا، إخفاقه في خدمة رعيته رغم كل ما بذله من الجهود في سعيه وعمله. فأجابه الكاهن القديس: هل مارست لأجل رعيتك أعمال الصوم والتقشف والصبر، هل جلدت نفسك، هل أحييت الليالي ساهراً ساجداً أمام القربان؟.. إعمل هذا فتنجح.

وقالت القديسة اللطيفة تريزيا الطفل يسوع يوماً لرئيستها وهي في أشد حالات المرض والنزاع: "يا أمي إن الكأس قد طفحت. كلا لم أحسب قط يوماً بأنه كان من الممكن أن أتألم كما أتألم الآن. وإني لا أجد سبباً لذلك إلاّ رغبتي في خلاص النفوس"[٢]. وقالت أيضاً يوماً آخر: "إنني أشعر في داخلي بشيءٍ سرّيٍّ لا أتميزه. أشعر بأني أتألم ليس لأجل ذاتي بل لأجل نفس من النفوس... إلاّ أن الشيطان لا يريد ذلك"[٣].

[١] لوقا، ١٦: ٣٥.
[٢] في كتاب حياتها: فصل ١٢ ص٣٠٤.
[٣] في كتاب حياتها: فصل ١٢ ص٢٨٥.

البحث الثاني
في درجات الصبر

إن المبتدئين في الحياة الروحية يمارسون الصبر في درجتِه الأولى بأن يحتملوا الآلام والشدائد بلا تذمر لأجل الله. ويعانونهم في صبرهم أملهم الوطيد بالحصول على الملكوت السماوي، ورغبتهم في التفكير عن آثامهم، ويعرفون أن في الصبر على الشدة تنقية قلوبهم، وتقويتها في جهادها، وانعاشها في وقت الحزن واليبوسة المضايقات الروحية والجسدية.
أما المتقدمون في الكمال فإنهم يقبلون الآلام والشدائد والأحزان وتسليم ليس فقط بروح التكفير وأملاً بالملكوت، بل أيضاً لكي يسيروا على أثر الفادي الإلهي المتألم ويكونوا معه روحاً واحداً وعاطفة واحدة وحياة واحدة.

ولما كان دابهم التأمل في حياة الرب يسوع فإنهم ينظرون إليه في جميع أطوار حياته، فيبدو لهم إنسانَ آلامٍ وصبرٍ من المهد إلى اللحد فيتعلقون به، ويشغفون بآلامه، ويتخذونه مثالاً وإماماً. إن الفادي الحبيب عاش معذباً منذ الدقيقة الأولى من حياته حتى الساعة الأخيرة منها، ساعة موته. تألم في مغارة بيت لحم من البرد، وبالأكثر تألم من قلة معروف مواطنيه. تألم في هربه إلى مصر. تألم في حياته الخفية الفقيرة الشّاقة مدة ثلاثين سنة. تألم في أيام بشارتِه، وصبر. صبر على الجوع والعطش والتعب والسهر، وعلى غلاظة قلوب سامعيه، وعلى مطامع رسله. صبر على كبرياء الرؤساء، ورثاء الكثيرين. صبر على آثام الخطأة، وعلى مضايقة الجموع له، وعلى نكران جميله. ثم صبر على أنواع الآلام بصمت رهيب واحتمال عجيب. صبر على خيانة يهوذا له، وعلى هرب تلاميذه، وعلى جحود بطرس لصداقته ومحبته. صبر على اللطم على الخد، وعلى الجلد بالسياط، وعلى المسامير، وعلى الصليب الشائن الألم. صبر على رؤيته والدته الحبيبة واقفة أمامه وقلبها يتمزق حزناً عليه. صبر على تفجع رسوله الحبيب، وعلى عويل النسوة العزيزات على قلبه. صبر على شراسة الفريسيين، وعلى صلابة قلوبهم، وعلى تهكمهم، وعلى ازدرائهم به واستصغارهم لقوتِه وإنكارهم لصلاحِه. صبر على نكران جميل جمهور أولئك المتفرجين على تشهيره وآلامه وموته وقد كانوا منذ بضعة أيام خلت يصفقون له ويذيعون بعجائبِه وإحسانه. صبر على فعهِ على خشبة العار واللعنة بين لصين سافلين مجرمين. تألم حتى لم تبق جارحة من جوارح نفسه وجسمه إلا صلبت معه، ولا عضو من أعضائه إلا تمزق وسالت دماؤه، حتى أضحى بحق رجل الأوجاع والآلام. ولقد صدق حقاً فيه قول أشعيا النبي: "لا صورة له ولا بهاء فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه؛ مزدرى مخذول من الناس رجل أوجاع ومتمرس بالعاهات ومثل ساتر وجهه عنا"[1]. نعم على هذا كله صبر حتى أضحى بحقٍ مثال الصبر على أنواع الآلام كلها وافظعها وأطولها.

فإلى هذا المثال ينظر المسيحيون الحقيقيون، وعلى طريقته ينسجون، حتى إذا حق لهم يوماً أن يقولوا مع الرسول: "صلبت مع المسيح"[2] حق لهم أن يرجوا المجد مع المسيح: "وحيث نحن أبناء فنحن ورثة وورثة الله ووارثون مع المسيح أن كنا نتألم معه لنتمجد معه"[3]. هذا ما يوصي أيضاً به القديس بطرس في رسالته: "فإذ قد تألم المسيح بالجسد فتسلحوا أنتم أيضاً بهذا العزم عينه. فإن من تألم في الجسد يراح من الخطيئة"[4].

[1] أشيعا: ٥٣: ٢ و ٣.
[2] غلاطية: ٢: ١٩.
[3] رومية، ٨: ١٧.
[4] ابطرس، ٤: ١.

والدرجة الثالث في فضيلة الصبر هي درجة الكاملين من المسيحيين الذين يرغبون في الآلام والمحن، ويشتهونها شهوة، ويجدون فيها لذتهم، وتنعم بها قلوبهم، لفرط شغفهم بالرب يسوع، ولرغبتهم في التشبه به، وطلبهم لمشاركته في آلامه. هكذا كان الرسل والقديسون أجمعون. وبولس الرسول يقول: "فلكل سرور أفتخر بأوهاني لتستقر فيّ قوة المسيح"[٥]. وأيضاً: "أنا فائض بالفرح في جميع مضايقنا"[٦]. وكتاب العمال يذكر أن الرسل بعد أن أهينوا وسجنوا وجلدوا: "خرجوا من وجه المحفل فرحين بأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا لأجل أسم يسوع"[٧]. ولقد طالما كانت الغبطة في وسط الأوجاع والآلام العلامة الفارقة للقداسة المسيحية. لأن المخلص الإلهي بدأ بها وسارت في أثره جموع الرسل والشهداء والمعرفين وسائر القديسين ناسجة على منواله فيها، محبةً له ومشاركة في آلامه.

قال الرب: "ولي صبغة أصطبغ بها وما اشد تضايقي حتى تتم"[٨]. ومن بعده قال الرسول لاهل كولسي: "إني أفرح الآن في الآلام من أجلكم وأتم ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة"[٩]. وبولس لا يتكلم بهذا باسمهِ فقط بل باسم جميع الكاملين من المسيحيين.

وفي هذا المعنى أيضاً يقول القديس أغناطيوس اليسوعي: "كما أن أهل الدنيا الشديدي التعلق بالأرضيات يرغبون في الأمجاد، ويركضون وراء الشهرة، ويسعون في طلب الرفعة، هكذا يجب على الذين يتبعون يسوع المسيح برغبة أكيدة، أن يسرعوا الخطى وراء كل ما يخالف روح العالم، وأن يرغبوا رغبة حارة في كل ما هو من روح المسيح، إلى حد أن يشتهوا الخزي والعار، والافتراء عليهم بشهادات الزور، واطرح الناس لهم كأنهم أغبياء حمقى؛ وذلك رغبة منهم في التشبه بالسيد له المجد، على شرط أن لا يكونوا قد أعطوا هم سبيلاً لذلك، وأن لا يهان اسم الرب يسوع بسببهم. وهكذا يمكنهم بمعونة نعمة الله أن يشتبهوا بالفادي الإلهي على قدر طاقتهم، وأن يسيروا في كل شيء في أثره، لأنه هو الطريق الذي يقود الناس إلى الحياة".

فهذا التعليم معناه أن محبة الصليب هي زهرة محبة الله وثمرة الاتحاد الصحيح بالفادي الإلهي يسوع المسيح. وكانت القديسة تريزيا الطفل يسوع بطلة الحب السامي والتضحية العميقة الكاملة.

تقول: "إن آلامي الصغيرة هي سبب أفراحي الصغيرة". وأيضاً: "لم تعد الآلام تزعجني لأني حقّاً اشتهيها". وأيضاً: "هل من غطبة أعذب على قلبي من أن أتألم لأجل حبك يا إلهي"[١].

وإن هذه الراهبة الصغيرة والبطلة الكبيرة قدمت ذاتها ذبيحة للحب الإلهي وتضرعت إلى فاديها وعريسا يسوع لكي يتصرف بها كما يشاء ويصبَّ عليها من الآلام ما شاء، وتوسلت إليه أن يكثر أوجاعها وآلامها وأن يقبلها ضحية لمحبته وكفارة عن إساءات البشر إليه. وما أبدع أجيج عواطفها ولواعج قلبها إذ تقول: "هل عدلك وحده ربي وإلهي يريد ذبائح تكفير؛ أَما أنَّ حبك الرحيم يريدها أيضاً؟... اقبلني يا يسوع بنار حبك الإلهي أنا المحرقة الصغيرة"[٢]. وكانت تريزيا الفيلية الكبيرة لشدة رغبتها في الآلام تقول: "إمّا الآلام أو الموت. لكني أفضل أن أتألم من أن أموت وأتنعم".

---

[٥] ٢ كور، ١٢: ٩.
[٦] ٢ كور، ٧: ٤.
[٧] أعمال، ٥: ٤١.
[٨] لوقا، ١٢: ٥.
[٩] كولسي، ١: ٢٤.
[١] في كتاب حياتها، فصل ١١، ص١٩١.
[٢] أيضاً فصل ٨، ص١٧٧.

ألا إن المعلمين الروحيين لا يسمحون لأي كان بأن يسارع إلى تقدمة ذاته ضحية للعدل الإلهي أو الحب الإلهي؛ لأَن عملاً كهذا له نتائج خطيرة تلزمه فطنة كبيرة، لكي لا يذهب المرء ضحية أو هامه المتقلبة، وعواطفه الوقتية، وحماسته الحسية. وفي ذلك يقول الكاتب الروحي الأب سميدت: "من الناس من يُقدم على تقدمة ذاته ضحية لله ويطلب منه تعالى أن يفتقده بآلام كثيرة وشديدة مدفوعاً بعاطفة الحماسة في ساعة من ساعات الحرارة الحسية. ولكن سرعان ما تذهب حرارته وتزول حماسته، فلا يلبث أن يشعر بضعفه وتراخيه لحسن القيام بمقاصده، ولإخضاع إرادته لأَحكام الله خضوعاً تامّاً حسب ما وعد به إبان ثورة مخيلته. فلا تلبث تحارب القنوط أن تهاجمه. وسرعان ما تراه يتأفف، ثم لا يلبث أن يتذمر على أحكام الرب وتدبيره وعنايته. وهذا ما يسبب متاعب شتى للمرشدين الروحيين في إرشادهم لمثل هذه النفوس"[٣]

فلا يجدر إذاً بنا أن نطلب من الله الصليب والآلام، أو نوعاً خاصاً من الشدائد والمحن. وإذا ما شعرنا بميل إلى مثل هذه العبادة وجب علينا قبل أن نباشر منها عملاً ما أن نستشير مرشداً فطناً ونسير على حسب ما يرسمه لنا من منهاج واضح في هذا المعنى.

وقد لخص هذا التعليم الأب كابيل (P. Capelle) الاختصاصي في هذه الدروس، فقال في كتابه "النفوس الجوادة"[١]: يجب علينا أن نضع نصب أعيينا أموراً ثلاثة: ألوها أن الفادي الإلهي هو الذي يختار ضحاياه؛ ثانيها أنه هو ذاته يشعرها قبل الأوان بالشدائد التي سوف يفتقدها بها؛ ثالثها أنه قبل ذلك يطلب رضاها وموافقتها بكامل معرفتها وحريتها.

فعل النفوس المتعطشة إلى الآلام، الراغبة في مشاركة الفادي الإلهي في عذاباته وأوجاعه أن لا تبادئه هي بطلب البلايا والمحن بل أن تقبل برضى من يديه ما يأمر هو به، ثم تصبر عليه. أما إذا تفضل هو ودعاها إلى شرف تقدمه ذاتها ضحية لحبه أو لعدله، وسمه لها بذلك، فعليها إذ ذاك أن لا تتوانى في إجابة سؤله، والخضوع لرغائب قلبه.

حادث تاريخي

صبر أيوب[٢]

لقد بقي أيوب الصديق مثلاً أعلى للصبر على البلوى. ونحن نقتبس من الكتاب المقدس وصف ما ابتلاه الله به من الشدائد وكيف صبر على بلاياه العديدة بإيمان صادق ونفس كبيرة وقلب لا يعرف أن يتزعزع.

"كان رجل في أرض عوض أسمه أيوب. وكان هذا الرجل وسيماً مستقيماً يتقي الله ويجانب البشر".

"وولد له سبع بنين وثلاث بنات".

"وكانت قنيته سبعة آلاف من الغنم، وثلاثة آلاف من الإبل، وخمس مئة فدان بقر، وخمس مئة أتان. وله عبيد كثيرون جدّاً. وكان ذلك الرجل أعظم أبناء المشرق جميعاً".

---

[٣] Notre vie surnaturelle. T. II. P, 260.

[١] Les dmes généreuses.

[٢] سفر أيوب ١ و ٢ "الخلاق المسيحية".

"وكان بنوه يذهبون فيصنعون مأدبة في بيت كل منهم في يومه. ويبعثون أخواتهم الثلاثة ليأكلن ويشربن معهم.فإذا تم مدار أيام المأدبة كان أيوب يبعث فيقدسهم، ثم يبكر في الغداة فيصعد محرقات على عدد جميعهم. لأن أيوب كان يقول: لعل بني خطئوا وجدَّفوا على الله في قلوبهم".

وسمح الله للشيطان أن يضربه ليمتحن تقواه وصره. "فقال الرب للشيطان: ها إن كل شيء له في يدك. ولكن إليه لا تمد يدك".

"واتفق يوماً أن بنيه وبناته كانوا يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر. فأقبل رسول إلى أيوب وقال: كانت البقر تحرث والأتن ترعى بجانبها، فوقع عليها أهل أخذوها، وقتلوا الغلمان بحد السيف. وأفلتُّ أنا وحدي لأُخبرك".

"وفيما هو يتكلم أقبل آخر وقال: وقد افترق الكلدانيون ثلاث فرق وهجموا على الإبل وأَخذوها وقتلوا الغلمان بحد السيف. وأَفلتُّ أنا وحدي لأخبرك".

"فقام أيوب وشقَّ رداءه وجزّ رأسه وخرَّ على الأرض وسجد. وقال: عرياناً خرجت من جوف أمي وعرياناً أعود على هناك الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركاً".

"في هذا كله لم يخطأ أيوب، ولم يقل في الله جهلاً".

ثم سمح الرب للشيطان أن يزيد على ما أنزل به من شدة وأن يضربه بجسده ليمتحن ثباته في تقواه وصبره.

"فقال الرب للشيطان: ها أنه في يدك ولكن احتفظ بنفسه".

"فخرج الشيطان من لدن وجه الرب وضرب أيوب بقَرح خبيث من باطن قَدَمه إلى قمته. فأخذ له خزفة ليحتكَّ بها وهو جالس على الرماد".

"فقالت له امرأته: أإلى الآن أنت معتصم بسلامتك. أنقبَلُ الخير من الله ولا نقبل منه الشر".

"في هذا كله لم يخطأ أيوب بشفتيه".

الفصل التاسع
في فضيلة الثبات

١.ماهيتها: الثبات هي فضيلة مسيحية تحمل الانسان على الاستمرار في الصبر و الجهاد و الاحتمال حتى النهاية من غير أن يستسلم للضجر أو للقنوط أو للكسل.

إن الانسان ميّال بطبيعته الى التقلب و التغير و الملل. و يضجر من الجهود المتواصلة، و يتهرب من متابعة السهر على نفسه ويتراءى له مراراً أنه لا يستطيع الاستمرار على مقاومة التجارب و الصمود الدائم للمحن. فيتعرض للتراخي و الكسل. فلئلا يستسلم للملل و الضجر تلزمه فضيلة الثبات. فالثبات هو القوة المنيعة التي تحرس سائر الفضائل و تحميها من الضياع و الاضمحلال. لذلك كانت هذه الفضيلة فرعاً من فروع الشجاعة.

ويجب على المسيحي الذي يطلب أن يحافظ على كنوز النعمة التي في قلبه أن يعلم أن الفضيلة لا تتأصل في قلبه ولا تصبح ملكة فيحياته الا بتكرار الافعال ومرور الزمان؛ وإن الضجر يسبب القنوط والكسل فتبرد الهمم، وتتراخى الإرادة، ويذهب النشاط؛ فتنبعث الأميال من مكامنها. وكثيراً ما ينصبّ المرء من جديد على ما يكون قد حرم نفسه منه زماناً، من شهواته و ملذاته. وهكذا يعرض نفسه لخسارة فضائله و ثمار جهوده.

كيفية الحصول على فضيلة الثبات. إن الثبات على الصلاح و التقوى و الفضيلة هو نعمة من الله يسبغها تعالى علينا بتحننه ورحمته. لذلك كان علينا أن نطلبها بالصلاة الحارة المتواصلة، متوسلين الى قلب يسوع ينبوع المراحم و النعم، والى البتول الطاهرة شفيعة النفوس التقية المسيحية، أن يحفظانا بالنعمة، ويثبتانا في مقاصدنا، و يقويانا في الدوام في أعمال تقوانا وفي شدائدنا. فالصلاة هي الواسطة الأولى الكبرى للثبات.

والواسطة الثانية الفعالة هي التأمل في العقائد الكبرى المسيحية وفي عواقبنا الأخيرة. فعندما ننظر الى الدنيا وحهاً الى وجه نراها زائلة؛ وإذ نتأمل بالأبدية فنشعر بأنها راكضة إلينا مسرعة؛ وعندما تتشبع نفوسنا من حقيقة محبة يسوع لنا، ومن ملكوته الذي ينتظرنا، تنشط نفوسنا، وتتجدد على الدوام قوانا، و تنتعش قلوبنا، فنداوم السعي في طلب الفضيلة، و نثبت في خدمة الله ومحبته وعبادته. ولا يغرب عن فكرنا أن الله لا يطلب منا النجاح في أعمالنا، بل يريد حسن النية و صدق الجهد.

حادث تاريخي
اغسطينوس ومونيكا

قضى أعسطينوس شبابه في قلق واضطراب. واستغرته بدعة المانشيين فتبعها، وصار من المجاهدين في ميدانها. واستسلم من بعد ضلال العقل الى ضلال القلب فسقط الى أحط درجات الاثم و الرذيلة.

لكن قلب والدته مونيكا القديسة كان ساهراً عليه، و عينها يقظة ترقبه فتألمت كثيراً لضلاله وغروره، وذرفت دموعاً غزيرة عليه. ولكنها كانت تصلي لاجله بثبات، وتتضرع الى الله بلا انقطاع، مثابرة على الدعاء والصوم والإماتات والآمال. وبقيت عشرين سنة لا تيأس من رحمة الله ولا من رجوع إبنها الى إيمانه وواجباته وإليها. حتى فازت ببغيتها وربحت ابنها، وكافأ الله بجود لا نظير له ذلك الثبات العجيب، فوهب كنيسته نابغة من النوابغ التى يندر أن تظفر الأجيال بمثلها في تاريخها.

وما كاد يرجع أغسطينوس عن غروره بفضل دموع مونيكا أمه. وبسعي وقداسة أسقفه وصديقه حتى سار بخطى جبّارة في طرق القداسة، و انبرى يدافع عن الإيمان القويم بعزيمة لم تثنها الأيام ولا المكاره ولا الشدائد، حتى صار شمساً ساطعة في سماء الكنيسة، وأضحى على ممر الأحقاب الفيلسوف الكبير بين فلاسفة النصرانية والدنيا.

والنصر ما زال ثمرة الثبات والتضحية والمحبة الصادقة.

الفصل العاشر
في فضيلة القناعة

تعريفها: إن الشجاعة تنصرنا على عاطقة الخوف وتقوي إرادتنا في الشدائد أما القناعة فإنها تمكننا من الغلبة على ما نشعر به من الميل المفرط الى المتعة الدنيوية وأنواع الملذات الأرضية.

فالقناعة هي فضيلة أدبية مسيحية نلطّف جماح اندفاعنا في طلب ما نجده من اللذات في حاستي الذوق واللمس، وتقيده في الحدود المشروعة الحسنة.

إن القناعة تشرف على حسن انتظام كل متعة، وكل لذة يمكن أن يطلبها الإنسان ويتمتع بها. إلا أناه تنظر بالاكثر الى تلطيف جماحه في الاندفاع نحو ما يجده من اللذة في الاكل والشرب، وفي العلاقات الجنسية. إن المرء ميّال بطبيعته الى الافراط في طلب المتعة، ويشعر برغبة داخلية عنيفة تدفعه الى الشره في استعمال اللذة. وكثيراً ما يُعرِض عن الغاية الشريفة التي، لأجل تسيهل الوصول إليها، وضع الله اللذة. فيسعى في طلب هذه اللذة لأجل اللذة نفسها، فيجعلها غاية بدل أن تبقى واسطة، ويطرح عنه الواجب الذي لأجله ولأجل تسهيل القيام به، وضع الله تلك اللذة. وعندما تصبح اللذة غاية، تؤدي الى عكس غايتها مراراً، فتسبب أضراراً وتكون هذه الأضرار عقاب من حاد عن جادة الواجب والصواب.

فالقناعة تلطف هذا الجماح، و تنظم حركته، وتقيده في حدود العرف والشرع والقانون؛ بل تذهب الى أبعد من ذلك فتلجمه أحياناً حتى عن طلب ما هو حق مشروع لتكبحه وتأسره فيبقى خاضعاً لا يتمرد على الارادة، ولا يخرج عن دائرة العدل والمنطق والغاية الشريفة التي إنما وضعت اللذة لأجلها.

البحث الاول
القناعة في الأكل والشرب

إن الله وضع اللذة في الأكل والشرب ليسهل لنا واجب المحافظة على صحتنا وحياتنا. إن الحياة هي هبة منه تعالى، فلا حق للانسان عليها، فهي ملك الخالق كما يشاء يتصرف بها. وإن الله مبدع الطبيعة لكي يحمل الانسان على احترام حياته وضع لذة الأكل والشرب قواماً لها وعوناً على إبقائها.

ولما كان الانسان ميّالاً الى إفساد ما صلح، جعل يطلب في الأكل والشرب اللذة، ويسرف في طلبها، ويفرط في استعمالها، متناسياً الغاية الشريفة التي وضعت لأجلها. فاضحى لذلك شرهاً آثماً.

فالشراهة في الافراط في استعمال لذة الأكل والشرب؛ هي طلب اللذة لأجل اللذة. فبدل أن يستخدم الانسان لذة الأكل والشرب ليشبع جوعه ويحفظ صحته وحياته، يجدّ في طلبها، و يفرط في استعمالها الى حد أنها تصبح في غالب الأحيان سبب أمراضه وموته. لأن من الناس من يجعلون بطونهم آلهتهم (فيلبي ٣:١٩). فيقضون أيامهم لا هم لهم الا موائدهم.

فالانسان الشره يأكل في كل آن من غير أن تدعوه الى ذلك ضرورة الصحة والحياة. الانسان الشره يتفنن كثيراً في تحضير أفخر المآكل والمشارب ليزيد فوق العرف المقبول في لذة طعامه وشرابه. الانسان الشره لا يكتفي باشباع جوعه بل يأكل ويشرب فوق طاقته وأكثر بكثير من شبعه بدافع اللذة التي يجدها في مأكله. الانسان الشره يهجم على الموائد كما يهجم الحيوان على فريسته، فيأكل بنهم، ولا يأبه لما في ذلك من غلاظة وقلة أدب وعدم كياسة.

شر الشراهة.__ فالشراهة دناءة وإساءة معاً. هي دناءة لأنها تحدر المرء الى درجة الحيوانات، فيصبح أسير شرهه ونهمه، لا يفكر الا بأكله ولا يهمه إلا مَلء بطنه، وينسى أنه انسان فينزل الى رتبة الحيوان، بل يصبح أحط من الحيوان، لأن الحيوان يعاف الأكل حينما يشبع ولو كان لديه شهياً، أما الانسان الشره فلا يعرف الشبع أيداً.

والشراهة هي أيضاً إساءة. فهي إساءة الى الله، والى المرء الشره ذاته، والى قريبه. لأن الشره ينسى وصايا الله، فينبذ شريعة الصوم؛ ويبذّر أمواله في الأكل والشرب مهملاً عائلته وزوجته وأولاده؛ ويسيء الى صحته وربما الى حياته.

ولقد أبدع الخطيب الكبير الأب جانفيه في وصف مفاعيل الشراهة فقال: « إن الإفراط في الأكل والشرب يمهد السبيل لرذيلة الدنس، لأن هذه الرذيلة الدنيئة تكون مراراً نتيجة الشراهة. وهكذا تتدنس الآذان والعيون وتصبح تطلب شهوتها السافلة في الملاهي وفي البذيء من الأغاني. وتتدنس المخيلة فتضطرب. وتتدنس الذاكرة فتقوم تبحث في حوادث الماضي عما يهيج الشهوة الفاسدة. وتتدنس الأفكار فلا تقع إلا على المواضيع المحرمة. ويتدنس القلب فلا يتشوق الا الى الحب الحسي والعشق الجسدي. وتتدنس الارادة فترمي سلاحها وتستسلم لاستبداد الحواس الجسدية بها... وشراهة الأكل تقود الى شراهة اللسان. ويعلم الله كم يتهور الانسان وهو جالس على الموائد الفخمة يلتهم أطعمتها ويغرق في مشروباتها. فينسى المرء فيها مقامه، ويرمي الى الحضيض هيبته، ويمتهن وظيفته، ويفضح أسراراً كان قد وعد بكتمانها، بل يفشي أخباراً تقضي مهنته بأن يحترم قدسيتها، وربما عرض صيت زوج بل سمعة زوجة وأم للريبة والاهانة. وقد يسبب أحياناً تدنيس شرف عائلة بأسرها، وربما عرّض مستقبل شعب بأسره لأسوأ الشرور. ويا ما يخطئ الانسان الشره أثناء الولائم ضد فضائل العدل والمحبة. فلا رادع يردعه عن النميمة والافتراء، وعن الفضيحة بكل أنواعها، لا بل يطلق العنان لحرية ذميمة

مستغربة ليس لها ما يبررها. ويا ما يتعدى أيضاً حدود الفطنة العاقلة فيرتبط بمواعيد، ويتعهد القيام بأعمال يعسر عليه إتمامها ما لم يضحّ بكل الشرائع المقدسة». ألم يأمر هيرودس بقطع رأس يوحنا المعمدان أثناء وليمة بعد أن كانت الخمرة قد لعبت في رأسه وتهيجت أعصابه؟

و تكون الشراهة إثماً خفيفاً فقط عندما يتجاوز الانسان في أكله وشربه مألوف عادته ومطالب صحته والظروف المشروعة المحيطة به.

دواء الشراهة._ الدواء الأول هو النية الصالحة في جلوسنا على موائدنا. والنية الصالحة معناها أن نجلس الى الطعام بعاطفة مسيحية فنأكل لنتغذى ونتقوى ونتمكن من حسن القيام بواجباتنا وخدمة الله وخدمة قريبنا. معناها أن نشكر الله على ما أنعم به علينا من الغذاء، وأن نتواضع أمامه معترفين بأننا غير أهل لما يجود به علينا من كفافنا وخبز يومنا، وأن نحبه ونعده بأن نضع قوانا في خدمته. « فإذا أكلتم أو شربتم أو عملتم شيئاً فاعملوا كل شيء لمجد الله». (١كورنتوس ١٠:٣١). وقيل في سفر طوبيا:« ثم تقدموا الى الوليمة إلا أنهم اتخذوا وليمة العرس بخوف الله» (طوبيا ٩:١٢).

والدواء الثاني هو التقشف. ان القناعة معناها الاكتفاء بما يشبع جوعنا. أما التقشف فهو حرمان ذاتنا شيئاً مما يحق لنا تناوله من طعامنا وشرابنا. وهي عادة طيبة يستعملها المسيحيون لينجوا من شرور الشراهة الذميمة. ولقد طالما كان رجال الله متقشفين من مآكلهم ومشاربهم لأنهم يعلمون أن لا قوام للحياة المسيحية الا بالزهد والتقشف. وان الحياة الرهبانية، وهي الحياة المسيحية الكاملة، مؤسسة على الزهد والأصوام الكثيرة وإمابة الشره بإنواعه من حيث أنواع المآكل وكميتها وأوقات تناولها. وهذا ما حمل الكنيسة المقدسة أيضاً على وضع شريعة الصيامات الأسبوعية والسنوية.

أما بخصوص المشروبات الروحية فخير ما نعملة أن نأخذ القليل منها مما يوافق مزاجنا وصحتنا. وان امتنعنا عنها امتناعاً كاملاً يكون أفضل لنا لأن هذا النوع من التقشف مفيد جدّاً لتقوية إرادتنا وإعطاء المثل الصالح لقريبنا.

البحث الثاني
في فضيلة العفاف

العفاف هو القناعة فيما هو من حاسة اللمس، وعلى الأخص في كل ما له اتصال بالعلاقات الجنسية، من حيث الأفكار والأقوال والأفعال. لذلك كان العفاف تلك الفضيلة المسيحية البهية الزنبقية التي نلجم فينا كل ما يخالف النظام الموضوع من الله في اللذات الجسدية. ولما كان الله قد رتب هذه اللذات لأجل غاية شريفة وهي دوام بقاء الجنس البشري، وجعل الزواج المقدس الشرعي واسطة لتحقيق تلك الغاية الشريفة، كان كل عمل يخالف هذا الترتيب الإلهي شرّاً وإثماً معاً.

ولما كان الانسان يندفع بطبيعته اندفاعاً عنيفاً نحو المتعة الجسدية دُعيت فضيلة العفاف الملائكية لأنها تقرب الانسان العفيف من الملائكة الذين لا جسم لهم ولا يشعرون بتلك الأميال الجسدية. لذلك كان السلوك في طريق العفاف عسراً، شديد المتاعب. ولا يتسنى للمرء أن يسير فيه إلا بكبح جماح أهوائه وأمياله، وباستعمال أنواع التقشف والزهد المسيحي.

درجات العفاف._ للعفاف درجات: أولها أن نحرص كل الحرص على أن لا نقبل برضانا أي فكر أو تصور أو شعور أو عمل يخالف فضيلة الطهارة.

وثانيها أن نبعد حالاً عن مخيلتنا وعن ذاكرتنا كل فكر أو ذكر أو صورة أو شعور من شأنه أن يشوه جمال هذه الفضيلة الملائكية.

وثالثها أن يصل بنا تحكمنا بعواطفنا وأميالنا الى حد أننا لو دعتنا الضرورة لكي نتحدث عن الأمور التي لها اتصال بالعلاقات الجنسية، من إلقاء درس، أو شرح، أو إرشاد، أو تحذير، لا نشعر بأي اضطراب داخلي أو خارجي، كما لو كنا نتحدث عن مواضيع غريبة عن هذا الموضوع. وهذا ما لا نصل اله الا بعد جهاد طويل وتقشف مديد.

ورابعها أن يبقى الإنسان منزهاً عن كل شعور يخالف العفاف والطهارة فلا يشعر بميل من الاميال الجسدية ولا بشهوة ما من الشهوات اللحمية/ بل يبقى ساكناً هادئاً في أفكاره ومخيلته وقلبه وأعضائه. إنما لا يكون هذا الا بنعمة خصوصيه وموهبة فائقة مجانية من لدن الله، كما كانت حال البتول مريم مدة حياتها كلها، وكما حصل لبعض القديسين في شطر من حياتهم. فإن القديس توما الإكويني مثلاً نعم بهذه الموهبة السامية الملائكية من بعد حادث عظيم كانت فيه فضيلته عرضة لأشج المخاطر فخرج منه منتصراً ظافراً. لذلك كافأه الله بأن عصمه من كل ميل يخالف فضيلة الطهارة البهية، وصار التاريخ يدعوه المعلم الملائكي.

أنواع العفاف.ـ العفاف على نوعين: العفاف في الزواج، والعفاف في العزوبة، أو الطاهرة الكاملة. وسنتكلم بإيجاز عن كل منهما.

العفاف في الزواج:

بيان: القناعة في الزواج أو العفاف في الزواج هو الاعتدال في طلب اللذات الجسدية، وتقديس النية في استعمالها. ولقد رفع السيد المسيح الزواج الى درجة سامية فجعله سراً من الاسرار السبعة المقدسة ليعلن للبشر أن الزواج طريقة نبيلة، والغاية منه شريفة. فهو قوام وجود وتكاثر الجنس البشري على الارض، واصل نعيم جماهير القديسين في السمار. لذلك كان الزواج شيئاً عظيماً. فليس هو لذة وقتية جسدية دنيئة، بل هو قبل كل شيء رسالة الهية. وهو غبطة روحية تعقبها ثمرة علوية. هو اغتباط روحين وقلبين ببعضهما على الحياة وتكاتفهما لحسن اداء واجباتهما. وثمرة تلك المحبة والارتباط والغبطة والتعاون هو الولد الذي يعمّر الارض ويملأ السماء.

فالزواج هو من المهمات الكبرى المقدسة. لذلك ضلّ وسقك من طلب فيه مجرد اللذة الجسدية الحيوانية، وجرَّده من غايته النبيلة الانسانية الالهية. فالمرأة هي شريكة الرجل في حياته الاجتماعية ورسالته السامية؛ ومقامها لا ينقص عن مقامه شرفاً واعتبارا، ولو كانت واجباتها الاجتماعية والعائلية غير واجباته، ووضعها غير وضعه. فهي قلبه النابض وغبطته المقدسة، وكما هو فخرها وسبب هنائها. وان واجباتها تساوي واجباته في المسؤولية، وحقوقها كحقوقه في الاجور السماوية. فهي ملكة متوّجة في بيتها وليست أمَةً مشتراة لمجرد متعة صاحبها او زوجها. فالزواج هو اتحاد قلوب قبل ان يكون اتحاد اجسام. وغايته الكبرى الولد؛ والغاية القصوى السماء. لذلك يأثم اثماً فظيعاً من يطلب لذة الزواج في غير محلها ويدنسها. ولهذا كان العفاف في الزواج من اكبر فضائل الحياة الزوجية. فالعفاف هو الامانة في المعاشرة، والاستقامة في المحبة المتبادلة، والاعتدال في الاستعمال، والتضحية في الحياة المشتركة.

وما ابدع ما وضعه بولس الرسول من شريعة اساسية لسرّ الزواج المسيحي المقدس. ففيه كل عوامل الهناء والسعادة والقداسة معاً: "ايها الرجال احبّوا نساءكم كما احبَّ المسيح الكنيسة وبذل نفسه لاجلها... من احبَّ امرأته احب نفسه... ان هذا السرّ عظيم... لتخضع النساء لرجالهن كما للرب لان الرجل هو رأس الكنيسة" [1].

فاذا ما احل الرجال نساءَهم كما احبّ المسيح الكنيسة، ليس شهراً او شهرين، او سنة او سنتين، في ايام الصبا والجمال والغنى، بل في كل ايام الحياة، وكل اطوارها وتقلباتها وبذلوا في سبيلهن نفوسهم كما تخضع الكنيسة للمسيح. وبذلك سعادة الحياة الزوجية والاولاد الصالحون.

فالزواج اذاً ليس هو لذة ومتعة فقط بل هو غبطة وسعادة. لان مجرد طلب اللذة الجسدية هو اصل شرور كثيرة ومتاعب كثيرة، والافراط فيها يسبب امراضاً وعاهات لا تبرأ. اما الغبطة فهي روحية ولا تجدها الا في الحياة الحقّة المسيحية.

ويقول القديس فرنسيس السالسي في ذلك: "ايها الرجال احبوا نساءكم محبة قلبية صادقة دائمة. فإذا اردتم ان يحفظن لكم الامانة الزوجية فعليكم ان تكونوا انتم لهن في ذلك خير مثال. وانتنّ، ايتها النساءُ، ان شرفكنَّ هو في عفافكنّ

[1] افسس ٥: ٢١- ٣٢

وطهارتكنّ. فحافظنَ على هذا المجد بغيرة صادقة. إيَّاً كُنّ ان تعرضنَ صيتكن لما يذبل نضارته. واحظروا من يأتيكم بعبارات الثناء، ولا سيّما من يحتقر ازواجكن امامكن، لانها تكون اهانة لكنَّ. فان من يجسر على مثل هذا، لا يرعب في سقوطكن فحسب، بل يعتبر انكن قد بدأتنّ فعلاً بالسقوط".

والقديس غرغوريوس النزينزي يخاطب الرجال بجرأته المعتادة ويقول: "باي عين وقحة تجسرون على مطالبة زوجاتكم بالامانة والعفاف اذ تكون حياتكم انتم ملطخة بالادناس".

الواجبات الزوجية._ ان العفاف في المعاشرة الزوجية يقضي باشياء ثلاثة: يقضي اولا بان تكون النية في الزواج طاهرة. ونجد مثالا لذلك ف الكتاب المقدس في سيرة طوبيا الصغير البار: "ووعظ طوبيا الكر وقال بها: يا سارة قومي نصلي الى الله اليوم وغداً وبعد غدٍ فإنّا في هذه الليالي الثلاث نتحد بالله؛ وبعد انقضاء الليلة الثالثة نكون في زواجنا. لأنّا بنو القديسين فلا ينبغي لنا ان نقترن اقتران الامم الذين لا يعرفون الله. فقاما معاً وصلّيا كلاهما بحرارة حتّى يعافيهما. وقال طوبيا: ايها الرب اله آبائنا، لتباركك السماوات والارض والبحر والينابيع والانهار وجميع خلائقك التي فيها... والآن يا رب، انت تعلم انني لا لسبب الشهوة اتخذ اختي زوجة، وانما رغبة في النسل الذي يبارك فيه اسمك الى دهر الدهور. وقالت سارة ايضاً: ارحمنا يا رب، ارحمنا حتى نشيخ كلانا معا في عافية" [1]

وهو يقضي ثانياً بان لا يمتنع الزوجان عن بعضهما، بل يقبلان على المعاشرة بأمانة وإخلاص ورضى، عالمين ان كل ما من شأنه ان يساعد على ولادة الاولاد فهو حسن ومقبول عند الله، وان مل من يحول مباشرة دون هذه الغاية الشريفة فهو اثن ومعصية. "ليكن المضجع طاهراً" يقول القديس بولس. ولمها ان بتركا بعضهما الى حين عن اختيار ومةافقة بروح التقشف مثلا، او لعير ذبك من السباب المشروعة. ولكن ليكن لرشاد يولس الرسول في ذلك نوراً لهما يستضيئان به: "ليقضِ الرجل امرأته حفها وكذلك المرأة ايضا رجلها. ان المرأة لا تتسلّط على جسدها بل رجلها، وكذلك الرجل ايضا لا يتسلك على جسده بل امرأته. لا يمنع احدكما الآخر عن ذاته الا على موافقة الى حين لكي تتفرغا للصلاة ثم عودا الى ما كنتما عليه لئلا يجربكما الشيطان لعدم عفتكما" [2]

وهو يقضي ثالثاً بالاعتدال في استعمال الحقوق الزوجية. ان الافراط هو في كل شيء ضرر وخسارة، وعلى الاكثر في الامور التي لها علاقة بالزواج. انما الوصول الى هذا لا يمكن الا اذا اعتاد المرء اخضاع شهواته لواجباته. وان المصاعب في ذلك تذلل بالصلاة والتقشف والشجاعة ونعمة الرب يسوع.

* العفاف في العزوبة والبتولية *

ان الطهارة الكاملة هي واجبة على كل انسان غير مرتبط بسر الزواج المقدس. والغير المتزوجين انواع:

منهم العزاب الذين لم يتزوجوا بعد ولكنهم يرغبون في الزواج. ومنهم الارامل. ومنهم الذين عاهدوا الله على ان يحافظوا طوال حياتهم على البتولية، رهباناً كانوا ام راهبات، كهنة ام علمانيين. فالواجب المسيحي يقضي على هؤلاء كلهم ان

[1] طوبيا ٨: ٤-١٠
[2] ١ كور ٧:٣-٥

يحافظوا على طهارة قلوبهم واجسادهم اتم المحافظة بكل قواهم. وان طهارة القلب ونقاوة العاطفة وبتولية الارادة هي قبل طهارة وبتولية الجسد، حتى لقد يفقد المرء هذه وتبقى الاولى على كمالها وبهائها. وكم من مرة في تاريخ النصرانية جاهرت البتولات العفيفات امام المستبدين من الحكام الوثنيين، لما كانوا يتهددوهن بفضّ بكارتهن وانزال العار بهن ان هنّ اصررن على التمسّك بايمانهن بان البتولية هي قبل كل شيء فضيلة القلب وانها بعيدة عن متناول المغتصبين.

ويفقد الانسان فضيلة الطهارة ليس بالفعل الدنس فحسب، بل بكل فكر او عاطفة او نظرة او لمسة غير مرتبة وغير نقية. لذلك وجب على المسيحي، لكي يكون طاهراً عفيفاً، ان يسهر على طهارة افكاره: "وبعد ايها الاخوة، مهما يكن من حق او عفاف او عدل او طهارة... ففي هذه فلتكن افكاركم"[١]. وعلى طهارة رغائبه: "ايها الاحباء اسألكم كالغرباء والنزلاء ان تبتعدوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس"[٢]. وعلى طهارة مواظره: "قد عاهدت عينيّ ان لا أتأمل في عذراء"[٣]. واسضاً: " ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه"[٤]. وعلى طهارة اقواله: " فالزنى ةمل نجاسة او بخل لا يذكر ولا اسمها فيما بينكم على ما يليق بالقديسين"[٥]. وعلى طهارة اعماله: "طوبى لانقياء القلوب فانهم يعاينون الله"[٦]. وايضاً: "فاسألكم ايها الاخوة بمراحم الله ان تقربوا اجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادة منكم عقلية"[٧].

ولما كانت فظيلة الطهارة من اصعب الفضائل المسيحية ممارسة لانها فضيلة ملائكية في خلائق بشرية لها مع ارواحها اجساد لجمية، كان لا بد لها من وسائط فعالة قوية لحفظها وصيانتها. وترجع هذه الوسائط الى مناهج اربعة رئيسية: اولها التواضع، وثانيها التقشف، وثالثها ادمان المطالعة وحسن القيان بالواجبات اليومية، ورابعها تغذية القلب بعواطف المحبة الالهية.

١ التواضع.ـ سوف نتكلم باسهاب عن هذه الفضيلة المسيحية السامية، وتشرح في فصل خاص ماهيتها ودرجاتها ومنافعها.انا الآن فاننا نكتفي بان بلمس الموضوع لمساً مما يناسب المقام فقط فنقول:

ان التواضع الذي يحمس فضيلة الطهارة فانا بحملنا على ان نخاف من نفسنا ومن ضعفنا، فلا نتكل على ذواتنا وعلى فضيلتنا وعلى قوانا في صيانة طهارة نفوسنا واجسادنا، بل نتكل على الله ومعونة نعمته. ونضع فيه كل ثقتنا وآمالنل. وكثيراً ما يكون السقوط في رذيلة الدنس نتيجة كبريائنا وزهونا وخيلائنا. فيعاقبنا الله بانه يتركنا لنحمي نفسنا بنفسنا، ونتهوّر ونستسلم لاهوائنا، ونسقط سقطاتٍ تشيننا وتذلنا. "وقد زعموا انهم حكماء فصاروا حمقى... فلذلك لسلمهم الله في شهوات قلوبهم الى النجاسة لفضيحة اجسادهم في ذواتهم"[٨].

---

[١] فيلبي ٤ : ٨
[٢] ١ بطرس ٢ : ١١
[٣] ايوب ٣١ : ١
[٤] متى ٥ : ٢٨
[٥] افس ٥ : ٣ و ٤
[٦] متى ٥ : ٨
[٧] رومية ١٢ : ١
[٨] رومية ١ : ٢٢ و ٢٤

ويسمح الرب احياناً بتلجثرب رائعة تهاجم الاتقاء من الناس والمتعبدين حين يراهم وقد استكنُّوا الى فضيلتهم ةالى حسن ونقاء ماضيهم، فتركوا التقشف والسهر على نفوسهم.

وما اصدق ما قال المعلم الروحي اوليبه في معنى ما تقدم: "لما كان الله يأنف كثيراً من ان يرى المرء مزهوًّا بنفسه فيعمل على اذلاله، ويسمح بان يصير الى احط دركات الهوان. ولكي يجعله تعالى يتحقق ضعفه وعدم اهليته لان يقاوم الشر بنفسه ويصون الطهارة في قلبه من غير معونته تعالى ونعمته، يسلمه الى التحارب الدنسة الفظيعة، بل قد يسمح به فيسقط فيها، لكونها احط من سواها كلها، وتترك من بعدها شعور خزيّ وعار أليم. نعم هكذا يعاقب الله الانسان المتكبر المعتد بنفسه، المتكل على قوته وفضيلته. انا الانسان المتواضع فانه ينال نعمة وطمأنينة وقوة وثباتاً. ولقد كان القديس فيلبس نيري يخاطب الله ويقول له: "يا رب خذ حذرك من فيليب لئلا يخونك".

ويجب علينا ان لا نتراخى في حذرنا من نفسنا، وفي سهرنا على ابواب قلبنا، وفي اتكالنا على معونة الله طول ايام حياتنا، ولو صرنا في سن الشيخوخة، ولو قضينا السنين الطوال في الفضيلة والطهارة الملائكية. لان للعدو ردّات عنيفة ومفاجآت غريبة مخيفة. الا ان الذي يخاف من نفسه، ويحسب دائماً حساباً لضعفه، ويستمر في طلب معونة الرب كل يوم من ايام حياته، ولا سيما في تجربة فهي حسنة لنا لأنها تذكرنا بضعفنا وباحتياجنا الى العون الالهي في كل شؤونه وعلى الاخص في امر خلاصنا. "فإنّا لا نريد ان تجهلوا ايها الاخوة من جهة ما اصابنا من الضيق في آسية انه ثُقِّلَ علينا بإفراط فوق الطاقة حتى مللنا من الحياة نفسها، لئلا نتكل على نفسنا بل على الله"[1]

والتواضع الذي يحملنا على الخوف من ضعف ارادتنا يجعلنا نبتعد عن الاسباب المثيرة لاهوائنا ولحواسنا. اما الاسباب الكبرى المسببة للاضطرابات الجسدية فيمن وقفوا حياتهم على خدمة الله في حال البتولية فهي مجالسة النساء والبنات لاجل مجرد التسلية، ومسامرتهن ومغازلتهن، والانفراد معهن، والاسترسال في الاحاديث العاطفية والشؤون الزوجية بحضرتهن. وعلى الكاهن بنوع اخص ان يحرص كل الحرص على نقاوة قلبه في معاملته مع السيدات، وفي زيارة المريضات منهن، وفي ارشاده للعذراى البتولات او للمتزوجات؛ فيجتذب كل ما من شأنه ان يجرح سمعنه ويعرض اسمه لسهام اللوم والشك. لذلك يجدر به ان يتسلح بالرصانة، وان يترك ارشاد النساء الى منبر الاعتراف، وان لا يستعمل في مخاطبتهن كلاماً معسولاً، وان لا يتظاهر لهن بالعطف المثير لعواطفه وعواطفهن. لان المرأة طبعت على ان تنظر الى عطف الرجل عليها بعين الجسد اكثر مما تنظر اليه بعين الروح.

اما الاسباب الاخرى المهيجة للاميال الفاسدة فهي كثيرة ولا تقع تحت حصر. والرئيسية منها: قراءة الروايات الخلاعية، والنظر الى الصور البذيئة، وحضور الحفلات السينمائية المريبة او الفاسقة، والاشتراك في الاجتماعات الراقصة المتهتكة، وغشيان الحمامات البحرية وبرك السباحة الخصوصية حيث تباح انواع العري المستهترة وشتى الالعاب المثيرة للدعارة. ولا يقول قائل ان هذه الموضات العصرية اضحت لازمة ضرورية، وانها لكثرة انتشارها وما ألفه الناس من استعمالها يخفُّ او يتلاشى شرها او يذهب الكثير من وطأتها: ليس المخاطر بمحمود ولو سَلِمَ.

٢ التقشف.ـ لقد طالما كان التقشف الرداع الكبير للشهوات الجسدية. ولطالما حارب به القديسيون ميولهم ونزعات حواسهم وانتصروا عليها بنعمة الرب ومعونته.

[1] ٢ كور ١ : ٨ و ٩

والتقشف يشمل الجسم كله مع الحواس الداخلية والخارجية باجمعها. فاذا ما بقي الجسم اسير الروح سهل على النفس الظفر بميوله ونزعاته: "بل اقمع جسدي واستعبده"[١]. لذلك كانت وصية الصيام، والقناعة في الاكل والشرب، وجلد الجسد بالمجالد، وغير ذلك من افعال الاماتة، خير معين على حفظ فضيلة الطهارة، وعلى انتصار الارادة على ثورات الجسد النارية.

ان زنبقة الطهارة لا تصان نضارها الا بين اشواك انواع الاماتات الخارجية والداخلية معاً.

فمنها اماتة العين: لان العيون هي الابواب الكبرى التي منها تدخل جيوش اعداء الطهارة. "قد عاهدت عيني ان لا اتأمل في عذراء"[٢]، يقول ايوب الصديق. وابن سيراخ يقول ايضاً: "لا تتفرس في العذراء لئلا تعثرك محاسنها"[٣]. وايضاً: "اصرف طرفك عن المرأة الجميلة ولا تتفرس في حسن الغريبة، فان حسن المرأة اغوى كثيرين وبه يتلهب العشق كالنار"[٤].

ولقد قال رب المجد في الانجيل: "ان كل من تظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد وبى بها في قلبه"[٥].

ومن اماتات الحواس اماتة الآذان واماتة اللسان: "فالوبى وكل نجاسة او بخل لا يذكر ولا اسمها فيما بينكم على ما يليق بالقديسين"[٦]. فأين سفاهة الكلام والاغاني البذيئة من هذه الوصية البولسية؟

والاماتة هي على الاكثر اماتة اللمس. ما اجمل ما كتب في ذلك المؤلف الروحي بيريف (Perreyve) : "يا الهي اني اكرس لك يديّ الان اكثر من كل آن. لك اكرسهما واقوم الى حد الوسواس على حراستهماز ان يديّ هاتين ستصبحان بعد ثلاثة ايام يدين كهنوتيتين، وسوف تلمسان وتحملان جسدك ودمك. لذلك اريد ان تحترمهما، اريد ان اجلّهما كما أُجلُّ الاواني المقدسة التي على هياكلك"[٧]. وسأل احد الكهنة يوماً القديس منصور دي بول قائلاً: هل يحسن به ان يلمس يد امرأة مدنفة. فاجابه القديس: "حذار من ذلك. لانه سهل على الشيطان ان يستخدم هذه الواسطة لكي يجرب الكاهن والمدنفة معاً. حذار ان تلمس ابنة او امرأة، مهما دعت الاسباب الى ذلك". وان من الاسباب المهيجة للعواطف وللحواس معاً لمس الاولاد وملاطفتهم وتقبيلهم. ما عدا ان هذا النوع من لعب الايدي يثير الشكوك في قلوبهم الغضة وربما بفقدهم نقاوتهم وسذاجة طويتهم.

واماتة الحواس الخارجية تشمل ايضًا حاسة الذوق. وقد تكلمنا عنها في حديثنا عن القناعة في الاكل والشرب.

وهي تشمل ايضاً حالة الشم. لان التضمُّخ والعطور الى حد الافراط يثير الشهوات فينا ومن حولنا.

اما اماتة الحواس الداخلية فهي اماتة المخيلة والذاكرة، وعلى الاخص اماتة القلب وما ينسأ فيه من شتى العواطف، وما يصبو اليه من انواع الرغائب.

ان للمخيلة فعلاً كبيراً وتأثيراً خطيراً في امور الطهارة والعفاف. لان التصورات الغير المرتبة تثير في الاعضاء اضطرابات قوية. وان الكثير ن التحارب الدنسة يهاجمنا بواسطة مخيلتنا. فلا ينجو منها لا كبير ولا صغير، ولا عالم ولا جاهل، ولا رجل ولا امرأة، ولا ناسك ولا قديس. وان افضل وسيلة للخلاص من هذه التصورات هي الصلاة، ثم ابعادها عنا باشغال

---

[١] ١ كور ٩ : ٢٧
[٢] ايوب ٣١ : ١
[٣] سيراخ ٩ : ٥
[٤] سيراخ ٩ : ٩ و ١٠
[٥] متى ٥ : ٢٨
[٦] افس ٥ : ٣
[٧] Meditations sur les saints Ordres, p. 105 ed. 1874

فكرنا ومخيلتنا بغيرها. ومثل هذه التصورات تلازم الناس الاتقياء احياناً ملازمة متعبة مزعجة. ولكن لا بأس عليهم اذا تواضعوا امام الله وتذلّلوا وصلّوا وابتعدوا عن الاسباب.

واكبر معين للمخيلة في عملها هو الذاكرة؛ لانها تحفظ الصور وتعرضها امام المخيلة فتقبل هذه عليها تلتهمها، وتزيد في ابرازها وتكبيرها وتزيينها. فمن اراد صون طهارته من هجمات مخيلته عليه ان يطفئ انوار الصور الغير اللائقة التي سبق له ان رآها ام سمع بها، وحفظتها له ذاكرته في خزائنها.

والاماتة الكبرى التي تحفظ الطهارة هي اماتة القلب؛ وهي اصعب الاماتات كلها. لذلك هي افضلها. ان الذين كرسوا لله بتوليتهم وعاهدوه على حفظ طهارتهم، نظير الكهنة والرهبان والراهبات ةبعض رجال الله من العلمانيين والعلمانيات، عليهم ان يسهروا على قلوبهم وعواطفهم لكي تبقى له تعالى، فلا تذهب وراء الخلائق والدنيا. فاماتة القلب، والتقشف في عواطف القلب، هي لمثل هؤلاء الوسيلة الكبرى لحفظ البتولية.

ان الانسان طبع على الحب. والحب هو من ضروريات حياته. وان من مات قلبه ماتت عواطفه، وهمدت احساساته، وانطفأت مروءته، واضحى حجراً قلَّ ان يرجو منه احد خيراً. فكيف نوفق بين اماتة القلب وبين ضرورة تغذية عاطفة المحبة والمروءة والتفاني فيه لكي يثابر الانسان على عمله؟ ان الامر لا يخلو من صعوبة ومن انتباه ودقة. فان العاطفة تخدم كثيراً في القيام بالواجبات وحسن الاجادة فيها، لا سيما في اوقات المصاعب والشدائد. فأفضل وسيلة لكي نبقى للقلب حرارته وعاطفته حتى يتابع بها عمله هي ان نوجّه نحو الله محبته، فتبقى النار فيه تغذية. وبذلك يسهل علينا ان نلجمه عن التعلق بالدنيا، وعن السير كما يشتهي ويهوى؛ ونجرده بالاماتات المتواصلة عن الارضيات فيبقى للسماويات، لانه سريع التحول من وجهته الروحية الى عاطفته البشرية. وكثيراً ما بدأ القلب بالمحبة الالهية وانتهى به الامر الى المحبة الشهوانية. فالفطنة والشجاعة والحذر الدائم والتواضع والصلاة والاتكال على الله من ضروريات حياة اصحاب العفة والبتولية. P. 189 middle

وما اجمل ما قاله القديس السالسي في فلسفة الحب: "كثيراً ما يتراءى لنا نحب هذا الانسان لاجل الله، والصحيح اننا نحبه محبة لنا ولاجل ذواتنا. نقول ان محبتنا له هي خالصة لوجه الله، ولكننا نحبه لما نجد فيه من تعزية لنا ومن غبطة لنفوسنا". ويعزى الى القديس اغسطينوس هذا القول: "الحب الروحي ينشئ الحب العاطفي، وهذا يبعث على الحب الخدوم المتفاني؛ وهذا التفاني يولّد الحب الأليف الطليق، والأُلفة توصل الى الحب الشهواني".

فالمحبة التي تولدها الصداقة بين رجل وامرأة، وبين استاذ وتلميذه، وبين كاهن وافراد رعيته، وراهبة وتلميذاتها، وصبي ورفيقه، لكي تبقى صداقة بريئة ومحبة نقية مسيحي يجب ان لا تتعدى الحدود المعقولة، وان تتنزّه عن الالفة الطليقة الحرة التي غالبا ما تولّد الشهوات الجسدية. لذلك لا بد من اتقاء المحادثات المعسولة، والعشرة الخفيفة، والمداعبة المسترسلة.

ونتيجة القول ان زنبقة الطهارة لا تصان نضارتها الا بالتواضع والتقشف مع جهاد دائم لا يعرف الكلل ولا الملل. وهذه الزهرة السماوية هي مجد الديانة المسيحية؛ فهي نبتة جنانها، وزينة رجالها ونسائها، وبهاء شبانها وشاباتها.

بقي علينا ان نقول كلمتين في الوسيلتين الاخريين لحفظ الطهارة وهما الاقبال على الدرس والمطالعة، وتغذية القلب بعواطف المحبة الاهية.

٣ الاقبال على الدرس والمطالعة وحسن القيام بالواجبات اليومية.__

لما كانت البتولية الدائمة هي حال الرهبان والكهنة كان الهرب من البطالة والانصباب على الدرس والمطالعة من اقوى الاسلحة لهم وانجعها لصون فضيلة الطهارة في قلوبهم واجسامهم. "فان الفراغ يعلم ضروب الخبث"[١]، يقول ابن سيراخ. ويقول المثل الروحي السائر: "المكب على عمله يجربه شيطان واحد واما البطال فيجربه مئة شيطان". والمثل العامي في هذا طريف ايضاً: "رأس الكسلان دكان الشيطان". ولا غرابة في ذلك لان من لا عمل له يستسلم لأحلامه واوهامه وتصورات مخيلته. وافكاره تحمله عادى ليس الى السماوات والالهيات بل الى الارضيات والجسديات، فيعرض زنبقة طهارته لأرياح السموم فتبذل، وربما يبست وسقطت. اما المكد والمجد والمطالع والكاتب، والمنهمك في شغل بتطلب امعان فطر وجهود عقل، فمثل هذا لا يجد متسعاً من الوقت ليعير تجارب الشيطان التفاتاً، او ليترك لنزعات الطبيعة وميولها مجالا. وهكذا يعيش عادة بعيدا عن كرّات العدو وحيلة ودهائه، ويسلك من غوائله.

لذلك كان الاقبال على المطالعة، وعلى اعمال الغيرة الرسولية وخدمة النفوس، من انجع الوسائل لحفظ العفة. لانها تملأ القلب ثقافةً وغذاءّ روحياً، وتبدد الاوهام، وتشغل الاوقات، وتوفر على رجال الله تعباً وعناءً.

٤ تغذية القلب بعواطف المحبة الالهية.__

ان اشغل والدرس يحصنان عقلنا ضد هجمات الافكار الدنسة والتصورات القبيحة. اما محلتنا لله فهي تحمينا من الميل العاطفي الحسي نحو الخلائق البشرية، وتبعد عنا الكثير من التجارب الغير اللائقة.

لقد خلق الانسان لكي يعيش من الحب. "ان الله محبة"[٢]، ولقد خلق الانسان على صورته ومثاله. وهكذا خُلِقَ الانسان ليحيا مضموراً بعواطف الحب. لذلك كان الحب غذاءَ قلبه والمتسلط الاكبر على حياته. وان افضل ما يريده الله من الانسان قلبه: "يابني اعطني قلبك"[٣]. ولقد جمع السيد المسيح الناموس والانبياء كلهم في كلمتين: محبة الله ومحبة القريب. فالمسيحي الصادق في ايمانه هو الذي يحب الله محبة صحيحة قوية وينبذ لاجله كل حب سواه ولقد جاء في كتاب "سلّم الفضائل" للقديس يوحنا السينائي قوله: "ان صاحب الفضيلة هو الذي عشق جمال السماويات حتى صار يأنف النظر الى جمال الارضيات. فهو لا يشعر بالنار التي يتأجج سعيرها في قلب غيره"[٤]

الا ان حب المرء ليسوع لا يشغل قلبه عما سواه الا اذا كان قويّا مضطرماً جواداً. هكذا احب القديسون، هكذا احب رجال الله الصالحون، فشَغَلَهم حبهم لله عن كل شيء سواه. فلم يبقَ محل لغيره، ولا عاطفة تستهوي القلب بدونه. لان من طبيعة الحب ان لا يجمع في آن واحد بين حبيبين " لا تقدرون ان تعبدوا الله والمال"[٥].

وما ابدع ما قالت في هذا المعنى حبيبة يسوع الكبيرة، تريزيا الصغيرة: "يا يسوع حبيب قلبي، لقد فهمت وعرفت ما هي دعوتي. ان دعوتي هي الحب... انا اعلم يا الهي، ان الحب لا يقابل الا بالحب. لقد سعيت وراء وسيلة اقدر بها ان اريح قلبي فوجدتها في ان اقابل حبك بحبي... يا يسوع قد كان يجب ان يكفيني ان اكون لك عروسةً، ان اكون

[١] سيراخ ٢٣ : ٢٩
[٢] يوحنا ٤ : ٨
[٣] امثال ٢٣ : ٢٦
[٤] سلم، درجة ١٥ : ٧
[٥] متى ٦ : ٢٤

راهبة كرملية، ان اكون امًّا للنفوس باتحادي بك. لكني اشعر بدواخلي بدعوات كثيرة ايضا غير هذه الدعوة السامية. اشعر بداعٍ يدعوني لأكون جندية من جنودك، لأكون كاهناً من كهنتك، لأكون رسولا من رسلك، لأكون من معلمي كنيستك، لأكون شهيدة من شهدائك. اشعر في قلبي بشجاعة الصليبيين؛ اني اتشوّق الى الموت في ساحة الوغى دفاعاً عن الكنيسة المقدسة...

"آه يا حبيب قلبي، كم انا تواقة الى انارة العقول على مثال الانبياء والمعلمين! وكم شهوتي عظيمة لأن اطوف اقطار الارض مبشرة باسمك، ورافعة صليبك المجيد بين الامم التي لا تزال تجهلك. الا اني لا اكتفي برسالة واحدة، بل اشتهي ان ابشر بالانجيل في اقطار الدنيا كلها، حتى في الجزائر النائية منها. اتشوق ان اكون من طغمة المرسلين ليس مدة سنين معدودة، بل منذ دائماً، منذ خلق العالم الى منتهى الاجيال.

"آه! يا حبيب قلبي، اني اشتهي فوق كل شيء ان اكون شهيدة. آه! ما اشهى الاستشهاد على فؤادي. لقد طالما كان شهوة حياتي منذ حداثتي؛ وتزايد شغفي به وانا في مخدعي الصغير الكرملي. وجنوني في هذا انني لا ارغب في نوع واحد من العذابات، بل اشتهيها كلها لأُشبع نفسي بها.

"يا عروس نفسي المعبود، انني على مثالك اشتهي ان اجلد واصلب. اشتهي ان القى في الزيت المحمس على مثال يوحنا الحبيب، وان أُطحن بأسنان الوحوش منا طُحن القديس اغناطيوس الانطاكي لأكون خبزاً لائقا بالله. اشتهي ان اقدّم عنقي لسيف الجلاد نظير القديستين اغنيس وسيسيليا. اشتهي ان أُحرق بنار متقدة كما احرقت جان دارك شفتاي ترددان اسم يسوع!

"يا يسوع فؤادي افتح كتاب الحياة الدائمة: فان كل ما ترى فيه من اعمال القديسين، اشتهي لو كنت انا عملتها كلها في سبيل حبك"[1]

فعندما يملأ حب يسوع قلباً كما كان قلب تريزيا، هل يبقى فيه محل يتسع لحب آخر من الخلائق كلها مهما عظمت وحسُنت. ولكي نصل الى مثل هـ١١ الحب المتأجج، علينا بالصلاة، وعلى الاخص بالصلاة العقلية، وبالمناولات الخشوعية، وبالعبادة البنوية لأُمِّ الطهارة والمحبة سيدتنا والدة الاله الدائمة النقاوة والبرارة.

✷
✷ ✷

ثاوطوكيون لوالدة الاله

ان جبرائيل قد انذهل من بهاء بتوليتك وفائق لمعان طهارتكِ. فهتف نحوك قائلاً: يا والدة الاله، ايما مديح واجب اقدّم لك او بماذا اسميكِ انني انذهل واتحير! ولكن كما أُمرتّ اهتف اليكِ: افرحي يا ممتلئة نعمة.

[1] في كتاب حياتها : صفحة ٢٥٣ – ٢٥٧

الشابة بوتامينا

كانت بوتامينا شابة رائعة الجمال، وكانت من بنات الاسكندرية المسيحيات في الاجبال الاولى للنصرانية. وكانت ذات تقوى رائعة وحرص شديد على طهارتها.

الا انها كانت مملوكة لرجل وثني، فكانت تخدمه بإخلاص وأمانة، وكان هذا معجباً بحسن سلوكها. وما لبث ان شغف بها فأخذ يعمل على اغوائها بكل اساليب الوعد. فلم ينل منها مأرباً، بل بقيت معتصمة بمحافظتها على نقاوة قلبها وطهارة جسدها.

فلما اعيته الحيل شكاها الى والي المدينة بكونها مسيحية. فتهددها هذا بان يطرحها في برميل من الزفت المحمي ان هي اصرّت على عنادها. فلم تهب ولم تجزع بل قبلَت بنفس هادئة مطمئنة تلك الميتة الفظيعة دفاعاً عن ايمانها وطهارتها.

وتولّى جلاد يدعى باسيليدوس تلك المهمة الجائرة. فتوسلت اليه لكي لا يعريها من ثيابها، بل يطرحها كما هي حرصا على حشمتها. فسمع هذا الجلاد لها وبالغ في احترامها. فالتفتت اليه وقالت له وهي تحترق وتتألم: اني اعدك بان اصلي الى الله لكي يهبك خلاص نفسك. وماتت وطارت نفسها النقية الى الاخدار العلوية.

ولم تمضِ ايام قلائل على استشهادها، حتى آمن باسيليدوس بالمسيح، واعترف جهاراً به، ومات شهيداً في سبيله.

مدام دي لافالبير

لما تابت مدام دي لافالبير محظية الملك لويس الرابع عشر دخلت دير الكرمليات وترهبت، وقامت تكفر بالصلاة وانواع الاماتات عن ماضي حياتها وذنوبها. وانطرحت امام رئيستها وقالت لها: يا امي، اني اسأت استعمال ارادتي وحريتي. فها انا اضعها بين يديك لكي لا ارجع فاستردها ابداً اليّ.

وقضت خمساً وثلاثين سنة في الكرمل، وكانت مثال التقوى والطاعة والأمانة.

انوفريوس الناسك

كان انوفريوس من النساك المتوحدين، وكان قد ذاع صيته في الاسكندرية وسائر بلاد مصر البحرية حتى كان الناس يتحدثون باعجاب عن اماتاته وطهارته وقداسته.

فاعترضت يوماً احدى النساء المستهترات على هذا الثناء وقالت: انا كفيلة بان اغويه واسقطه. لان مثل هؤلاء النساك لا يحفظون طهارتهم الا بهربهم من النساء. الا انهم يسقطون امام اول امرأة تغويهم. ولسوف آتيكم بالخبر اليقين.

واختارت يوماً بارداً ماطراً، وحملت معها كل زينتها، واخفتها في حقيبة لها، وتردَّت ثياب النساء المتعبدات، وقصدت الى صومعة الناسك في البرية عند المساء.

فوقفت عند بابه تحت المطر المنهمر واخذت تبكي وتتوسل اليه لكي يقبلها عنده في تلك الليلة، ويقيها البرد والامطار، ويحميها من الوحوش التي لا بد ان تفترسها في تلك البرية. فرثى الناسك لحالها ورقّ لها، وقام فترك لها مسكنه، وذهب هو فقضى الليل في مغارة باردة بعيداً عنها.

فلما كان الصباح اتى ليراها فاذا به امامه امرأة بارعة الجمال، وعليها من الحلي والزسنة ما يبهر الابصار. واندفعت تتملقه وتغويه. فنظر اليها بانذهال. ولكنه ما لبث ان فرّ من امامها، وهرع الى نار كانت قد اوقدتها هناك وطرح رجله فيها رجله فيها حتى احترقت وصار الدهن يسيل منها.

فارتاعت المرأة، وندمت على ما اتته من الخبث والدهاء، واخذت تتوسل اليه لكي يصفح عنها. فطرحت زينتها ووعدته بان تتوب الى الله توبة صادقة، ورجته ان يرسلها الى احد الاديار لتقضي حياتها في التكفير عن آثامها.

وهكذا كان. فان تلك المرأة الساقطة تابت وصارت واحدة من الكثيرات من المجدليات القديسات.

الفصل الحادي عشر
في فضيلة التواضع

١. بيانها: ان فضيلة التواضع هي عدل وهي قناعة. فهي عدل لانها تحمل الانسان على ان يقدر نفسه على قدر نفسه. وقي قناعة لانها تكبح جماح الميول البشرية الى حب الرفع والعظمة والزهور والخيلاء.

فالتواضع المسيحي هو فضيلة سماوية فائقة الطبيعة تجعلنا نعرف ذاتنا ونقدر نفسنا على قدر نفسنا. ولاجل هذه المعرفة الحقة وهذا التقدير الصادق نرغب في عدم الترفع ةالظهور، بل في طلب الاذلال والتحقير.

ان التواضع هو فضيلة سماوية، لذلك لم تعرفها الديانات الوثنية، لانها لم تفهنها، بل كانت تؤله الكبرياء ظنا منها بانه يعلي المرء فوق مستواه، فيسبغ عليه شيئا من العظمة يرفعه فوق ما هو عليه من صغر وحقارة. اما التواضع المسيحي فهو مؤسس على معرفة المء قدر نفسه وقدر الهه، فيتصاغر امامه، ويغترف بفضل الله تعالى عليه، وذله نظرا لاساءاته وذنوبه، وبافتقاره الدائم الى نعمه تعالى ومعونته في كل اعمال حياته. وبذلك العظمة الحقة لانها قائمة على الحق: "من وضع نفسه ارتفع"[١].

فالتواضع هو فضيلة مسيحية حقة لان مبداء الذي تقوم عليه هو اولا طبيعة الله وعظمته وقدرته واحسانه وتسامحه، وثانيا طبيعة الانسان الخليقة الصغيرة الحقيرة الآئمة المفتقرة الى رحمة الله ومعونته وتسامحه. ولقد عرف اليهود هذه الفضيلة وقدسوها، بل قد تفرد بعضهم بها فسما الى درجة فائقة من القداسة ومن العظمة، نظير موسى النبي ويوحنا المعمدان ويوسف البتول، وعل الاخص العذراء مريم الفائقة القداسة، وعي القائلة: "ها انا امة للرب"[٢] وايضا "لانه نظر الى حقارة امته"[٣].

ولقد تتجلى هذه الفضيلة بكل بهائها وجمالها، لانها بهية جميلة، بل من ابهى الفضائل واعذبها على عين كل من رآها، تتجلى في حياة السيد المسيح رب الفضائل كلها ومكملها ومتممها. فهي ليست ذلا بل شرف، لانه لا اشرف من الحق، وما اذلنا لنفسنا الا لنقر بحقارتنا وآثامنا، ونطلب من الله المعونة والغفران في اعمالنا وفي كل اطوار حياتنا. ولقد عرف القديس برنردوس فضيلة التواضع بقوله: التواضع فضيلة اذا ما عرف بها الانسان حقا مقدار نفسه احتقر نفسه. لاننا من نفسنا لا صلاح لنا، انما صلاحنا من الله. اما اساءاتنا فهي منا ولنا. فكيف يحق لمن كان مذنبا او مجرما ان يتعظم ويتسامى، سواء كان امام الناس، او امام نفسه، و على الاخص امام الله؟ بل عليه ان يحتقر نفسه ويذلها امام الرب ويقر ان "للملك الهور،الله الواحد الذي لا يموت ولا يرى، الكرامة والمجد الى دهر الدهور"[٤]. وان يهتف ايضا مع الملائكة ويقول: "آمين. البركة والمجد والحكمة والشكر والكرامة والقوة والقدرة لالهنا الى دهر الدهور. آمين"[٥].

---

[١] لوقا ١٤:١١
[٢] لوقا ١:٣٨
[٣] لوقا ١:٤٨
[٤] تيموتاوس الأولى ١:١٧
[٥] رؤيا ٧:١٢

والمعلمون الروحيون يسمون التواضع، الحق. لانه يعطي الله مقامه السامي الاعلى، ويجعل الانسان في مكامه الحقيقي الحقير الادنى. وهذا ما دعا الرب يسوع الى ممارسة اسمى دراجات التواضع لانه كن يمثل البشرية الضعيفة الحقيرة ويحمل اوزارها كلها.

هكذا تذلل موسى امام الرب لما عبد بنو اسرائيل عجل الذهب، وقال: "والآن ان غفرت خطيئتهم والا فامحني من كتابك الذي كتبته"[١].

هكذا تذلل داود امام الرب لما اتاه النبي ناتان ويقول له ما اوحاه اليه الرب، ان: "انا اكون له ابا وهو يكون لي ابنا. واذا اثم أؤدبه بقضيب الناس وبضربات بني البشر. واما رحمتي فلا تنزع عنه... بل يكون بيتك وملكك ثابتين الى الدهر امام وجهك، وعرشك يكون راسخا الى الابد". فدخل الملك داود وجلس امام الرب وقال: "من انا ايها الرب الاله وما بيتي حتى بلغت بي الى ههنا"[٢].

وهكذا تذلك استير وكانت ملكة عظيمة الشأن: "وأن استير الملكة ايضا التجأت الى الرب خوفا من الخطر المشرف، فخلعت ثياب الملك ولبست ثيابا للحزن والبكاء. وعوض الاطياب المختلفة ألقت على رأسها رمادا وزبلا وذللت جسدها بالصوم. وجميع المواضيع التي كانت تفرع فيها من قبل ملأيها من نتاف شعر رأسها. وكانت تتضرع الى الرب اله اسرائيل قائلة : "ايها الرب الذي هو وحده ملكنا وأعني انا المنقطعة التي ليس لها معين سوال..."[٣].

هكذا تذلل الانبياء والشهداء وجميع القدسين: "اجابهم يوحنا وقال: انا اعمد بالماء، ولكن بينكم من لستم تعرفونه. هو الذي يأتي بعدي وقد جعل قبلي الذي انا لا استحق ان أحل سير حذائه"[٤].

لما دنت الساعة السعيدة الاخيرة لرحيل تريزيا الطفل يسوع الى الاخصان الابوية السماوية ونظرت الى امها الرئيسة الواقفة امام سريرها وقالت لها: "يا امي ارجوك ان تهيئيني لاموت موتا صالحا". فاجاتها رئيستها: "يا بنيتي لا تخشي فانت على اتم الاستعداد للمثول امام عرش الله، لانك طول حياتك قد عرفت ما معنى التواضع". فاجابت تريزيا بسذاجة وقالت: "نعم انا اشعر بانني لم ارغب في حياتي الا فيما هو حق. نعم لقد عرفت ما معنى التواضع القلب"[٥].

فالانسان ضعيف في جسده، وضعيف في عقله وارداته، ضعيف في نفسه وروحياته. يولد في الخطيئة الاصلية، ويعيش في الخطيئة الفعلية، ويشعر على الدوامفي ميول منحرفة تدفعه الى الشر والى الشوات الرديئة. لذلك يجدر به بان لا يترفع ولا يتباهى ولا يزهر بنفسه، ولا يتعاظم لا امام الله، ولا امام غيره، ولا امام نفسه، وخليق به ان يصبر على الآلام والمعاكسات والاذلال وانواع الاضطهاد كعقاب يستحقه، وان لا يحتقر غيره، بل يعذره ويصفح عنه، كما يريد ان يصفح الرب عنه هو ذاته وينسى ذنوبه.

وفي هذا يقول الكاتب الروحي السيد اوليبه "علينا في حال المرض والاضطهاد والتحقير والهوان، ان نتحالف مع الله ضد ذواتنا، وان نقول: اننا نستحق ذلك بل اكثر منه ايضا، وانه يحق لله ان يستخدم كل خليقة لكي يعاقبنا

[١] خروج ٣٢:٢٣
[٢] الملوك الثاني ٨:١٤-١٨
[٣] استير ١٤:١-٣
[٤] يوحنا ١: ٢٦و٢٧
[٥] في كتاب حياتها فصل ١٢ ص٣

بواسطتها، واننا نسجد لمراحمه بكل يستخدم كل خليقة لكي يعاقبنا بواشطتها، واننا نسجد لمراحمه بكل رضى عالمين انه في يوم غضبه سيكون اشد من الآن في معاملته لنا"[1].

هذه هي المبادىء الاساسية التي عليها تنشأ فضية التواضع السيحية: حقارة الانسان وخطيئته، وعظمة الله وحنانه ورحمته. "من الذي يميزك يا هذا واي شيء لك لم تنله. فان كنت قد نلته فلماذا تفتخر كانك لم تنله"[2].

٢. درجات فضيلة التواضع._ لقد افاض الكتبة الروحيون في الكلام عن فضيلة التواضع واجادوا في وصفها وشرحها واظهار جمالها ومنافعها، وبينوا باسهاب طرقها ودرجاتها . ولما كانت هذه الفضيلة الجميلة اساسا وحصنا لكثير من الفضائل واخواتها، نظير الصبر والطاعة والرحمة والوداعة، فانهم بحثوا كثيرا في ميزاتها، وذهب كل مذهبا في تعداد وتمييز درجاتها،على حسب ما ابتغاه او ما رآه من غرضه ومن طريقته فيها. فكاسيانس جعل درجات التواضع عشرة. والقديس بندكتوس، ابو الرهبان الغربيين، قسمها الى اثنتي عشرة، لانه اتخذ التواضع اساسا لما بين الله والراهب من العلاقات الروحية. فالراهب هو انسان، وانسان خاطئ، ثم يصير بالتبني ابنا للعلي. لذلك جمع القديس بندكتوس بين التواضع والطاعة والصبر والحشمة، وجعلها كلها تحت اسم واحد وسماها:التواضع.

اما القديس اغناطيوس دي لويولا فيقول ان للتواضع درجات ثلاثا: الاولى: اذلال النفس. _ الثانية: التجرد عن كل رغبة ارضية الى حد ان يصبح سيان عند الانسان ان يكون غنيا او فقيرا، مكرما او محتقرا، سيان عنده الحياة الطويلة او القصيرة. لان رغبيه الوحيدة هي تمجيد الله الى اقصى حد ممكن في ما اعطي من حياة._ الثالثة وهي الاكمل: ان يعتنق المرء الفقر باختياره حبا ليسوع الفقير، وان يحب الهوان والعار حبا ليسوع المذلل المهان، وان يرغب في احتقار الناس له، ونبذهم اياه، واستصغارهم لشأنه، واعتبارهم انه احمق معتوه شارد العقل تشبها بيسوع الذي احتقره اليهود وازدروه وهزئوا به البسوه ثوب الحمقى المعتوهين. وهذا منتهى التواضع ومنتهى الحب وركن القداسة.

السيد اولييه في كلامه عن درجات التواضع فيجعلها ايضا ثلاثا، ولكنه يخصها بالنفوس التقية الحارة فيقول:

الاولى: ان يعرف الانسان حقارته ونقائصه وذنوبه ودناءته، ويرضى بها، ويتذلل امام الله بسببها، ويفرح لكونها تظهر بجلاء عظمة وقداسته وجوده ورحمته. لانه لا يكفي الانسان ان يعرف مساوئه ليكون بذلك متواضعا، بل يجب ان يرضى بها، وان يحتقر نفسه امام الله لاجلها. لان من الناس من يدفعهم حب الظهور والزهو الى التبجح بذنوبهم ليكون لهم السبق فيها على غيرهم، وهذا هو نوع من الكبرياء الجنوني الاحمق. ومنهم من يعرفها ولكن يعمل على سترها والتظاهر بما يناقضها رغبة في المجد والثناء الكاذب.

والدرجة الثانية: ان يرغب الانسان في ان يعرف الناس حقارته وقلة شأنه. فيكون قد نال ماتستحقه ذنوبه من اطراح الناس له واستخفافهم بامره. لان منهم من لا يكتفون بالتظاهر بما ليس فيهم من حسنات وفضائل ومؤهلات، بل يحزنون ويضطربون ويغضبون اذ تنكشف امام الناس بعض عيوبهم ونقائصهم. اما النفوس التقية المتواضعة فانها تهرب من اكرام الناس لها، ولا تحزن لاحتقارهم لها، ولا تغضب لا طراحهم لشأنها.

اما الدرجة الثالثة: فتقوم بان لا يرغب الانسان فقط في ان يعرف الناس حقارته ودناءته، بل يريد ايضا ان يعاملوه كما يستحق باذلالهم له ، وباحتقارهم لعقله و لفضيلته ولأهليته . لان العدم لا يستحق الاكرام ، و لا بد للمجرم

[1] التعليم المسيحي-الجزء الأول- القراءة١٨
[2] كورنتوس الأولى ٤:٧

من العقاب . و بهذا الشعور نقبل من يد الله ما يسمح به من معاكسات و اضطهادات و الآم ومضايقات ، قصاصا" لما تستحقه ذنوبنا و آثامنا . فيرضى الله عنا ، و يغفرها لنا ، و تنتصر فضيلة التواضع في قلوبنا فتجملنا و تكملنا و ترفعنا و تقدسنا: "من رفع نفسه اتضع و من و ضع نفسه ارتفع"[١]. –"تواضعوا امام الرب فيرفعكم"[٢].

٣. **جمال التواضع و فوائده**.– اذا نظرنا الى التواضع في ذاته نراه اقل شانا" من الفضائل الالهية التي انما غايتها المباشرة هو الله. والتواضع اقل شأنا" ايضا" في كنهه و طبيعته من الكثير من الفضائل الادبية ، نظير الفطنة و العبادة و العدل و الطاعة ،لان عملها أعم و أجل من عمله.

و اما اذا نظرنا الى ما يقدمه للفضائل كلها من الخدم الجليلة نراه مفتاح الكنوز السماوية ، و اساس جميع الفضائل المسيحية .

فان الله يحب الانسان المتواضع ، لانه لا يسلبه مجده تعالى ، و يعطف عليه ، و يفيض عليه نعمه و غزير مواهبه. و هو تعالى يعلم ان الانسان المتواضع لا يزهو بما يجود به عليه من مكارمه كأنها منه ، و لا يتعالى بها و يعجب بوجودها كان مرجعها اليه.

لذلك يسبغ عليه من هباته ما يجعله ينو تحت حملها و يطلب الاكتفاء بما ناله منها . هذا ما يعمله بطرس الرسول في رسالته الاولى :"و كذلك انتم ايها الشبان اخضعوا للكهنة ، و تسربلوا بالتواضع بعضكم نحو بعض ؛ فان الله يقاوم المتكبرين و يؤتى المتواضعين نعمة"[٣]. و يقول الاباء القديسون : ان التواضع هو جلاب النعم.

و فوق هذا فان التواضع هو أساس الفضائل جميعها ، لانها منه تنال غذاءها و قوتها . ان الفضيلة التي لا يدعمها التواضع تكون كالبيت المبني على الرمل لا يلبث ، ان يسقط . اما المؤسسة على التواضع فهي قوية ثابتة لا تهاب الزوابع ، ولا تخشى الصدمات.

فكما ان الكبرياء هي المانع الاكبر عن قبول الايمان ،كذلك التواضع هو الوسيلة الفضلى لاخضاع عقلنا و قلبنا لأنوار الايمان و حرارته ، فيثبت فينا و يكيف حياتنا :" اعترف لك يا أبت رب السماوات و الارض لانك اخفيت هذه عن الحكماء و العقلاء و كشفتها للاطفال"[٤]. فالانسان المتواضع يقبل حقائق الايمان بسذاجة قلب و صفاء نية ، بلا تردد و لا اعتراض . و اذا ما تأصل فيه الايمان فيقويه و يزيده تواضعا"و فضيلة.

التواضع هو ايضاً اساس الرجاء . لان المتكبر يتكل على نفسه فيسقط . اما المتواضع فانه يتكل على الله و يرجو من جوده و عطفه ، نعمه في الحياة و في الممات ، و ملكوته في الابدية السعيدة التي ليس لها فناء.

التواضع هو اساس المحبة. ان المحبة تتنافى مع الكبرياء، لان المتكبر ان يحب، هو خال من العاطفة، ما خلا محبة ذاته وانانيته. واذا ما تظاهر بمحبة قربية فليس الا طمعا بمال يرجوه منه او جاه يصل اليه بواسطة. اما الانسان المتواضع فمحبة صادقة لانها مجردة.

وهكذا قل عن سائر الفضائل :

فان الانسان المتواضع لا يأنف من استشارة غيره في اعماله، بل بستأنس برأي قريبه، وبذلك يكون فظا حكيما.

---

[١] لوقا ١٨:١٤
[٢] يعقوب ٢:١٠
[٣] بطرس الأولى ٥:٥
[٤] متى ١١:٢٥

الانسان المتواضع يحترم ويوقره، ويعلى شأنه، ويقديس حقوقه، فهو خير من قام بواجبات فضيلة العدل.

الانسان المتواضع قوي بما يسبغ الله عليه من قوة، لانه لا يتكل على نفسه بل على الله. والرب لا يخيب المتكلين عليه. لذلك كان المتوضع الشجاع الحقيقي.

الانسان الكتواضع يبقى عفيفا، لا الدنس غالبا ما يكون عقاب الكبرياء.

الانسان الكتواضع يكون صبورا، فهو حليم مع قريبة، شفوق عليه، يعذر هفواته ويحتمل نقائصه، وهو يصبر على ما يحل به من الشدائد لانه يعتبرها عقابا لخطاياه. فهو متقشف صبور.

فالتواضع هو حقا اساس الفضائل كلها ينشطها ويغنيها ويقويها. وما اجمل ما كتب في ذلك القديس اغسطينوس فيلسوف النصرانية الاكبر في تعليقه على كلام الرب: "من وضع نفسه ارتفع"، قال: "اتريد ان ترتفع؟ اذاً فاتضع. اتطلب ان تشيد قصرا يناطح السحاب؟ فأسسه على التواضع. وبقدر ما تريده عاليا شامخا يجب ان تجعل أسسه غائرة في الارض عميقة". فالمتواضع مللك. وللتواضع ملك الدنيا. فهو يلين القلوب ويسحرها ويربحها للرب.

٤ التواضع في العمل ._ ان المبتدئين في الحياة الروحية يمارسون التواضع بمقاومة ما يثور فيهم من الميل الى الكبرياء. فانهم يعيدون المجد لله فيما يجدون فيهم من حسنات ومؤهلات ومزايا روحية وادبية وجسدية، فلا يزهون بصفاتهم ولا يستعلون بآرائهم وافكارهم: "لا لنا يا رب، لا لنا، لكن لاسمك أعط المجد"[١]. ويعترفون بأخطائهم ونقائضهم وذنوبهم: "لاني عارف بآثامي وخطاياي امامي في كل حين"[٢]. ولا يلجأون الى اطراء صفاتهم وفضائلهم، ولا يصنعون برهم بفخفخة امام الناس دعاية لهم ولاسمهم ليأخذوا منهم مجدهم، ولا يترفعون على غيرهم، ولا ينتقدون رؤساءهم، ولا يعصون اوامر مدبريهم ومرشديهم. بل يعترفون بان الله هو مصدر كل خير فيهم، وان الشر هو منهم ومن ضعفهم ومن قلة فضيلتهم. ويحترمون قريبهم، ويعظمون افضاله، ويكرمون فضائله، ويقرون له بالسبق الى المكارم،ويصنعون برهم بالتستر لوجه الله وطلبا لمرضاته، ويوقرون رؤساءهم، ويقديسون اوامرهم وارشاداتهم، ويقبلون بشكر ما يفتقدهم به الرب من زرايا ومحن، لانهم واثقون من انها عقاب لهم على ذنوبهم. هكذا تكون حياتهم حياة مسيحية متواضعة.

اما المتقدمون في الكمال المسيحي فانهم يذهبون الى اكثر من ذلك. فيتخذون السيد المسيح مثلا لهم في ممارسة افعال التواضع، كما يتخذونه دائما مثلا اعلى لهم في سائر الفضائل المسيحية [٣]الالهية والادبية معا.

لقد دعا الرب جميع الاجيال للتشبه بوداعته وتواضعه: "تعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب". ولقد كانت فضيلة التواضع حقا ميزة حياته، وشعاره الاكبر في كل اعماله:

فانه بتجسده حجب عن الناس انوار لاهوتية وضياء مجده: "ليكن فيكم من الافكار والاخلاق ما هو في المسيح يسوع الذي اذ هو في صورة الله لم يكن يعتد مساواته لله اختلاسا، لكنه اخلى ذاته آخذا صورة عبد صائرا في شبه البشر وموجودا كبشر في الهيئة. فوضع نفسه وصار يطيع حتى الموت موت الصليب. فلذلك رفعه الله ووهبه اسما يفوق كل اسما لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة مما في السماوات وعلى الارض وتحت الارض".

---

[١] مزمور ١٠٤:١

[٢] مزمور ٥٠:٥

[٣] فيلبي ٢:٥-١٠

وفي حياته الخفية ستر الرب يسوع حتى غناه وقدرته وعلمه وسائر مؤهلاته ليس فقط كاله بل ايضا كانسان: ولد في مغارة، واضجع في مذود، وختن كسائر الاولاد، وهرب الى مصر من وجه انسان، وعاش في الناصرة نسيا منسيا من الناس، وخضع لأمه وليوسف، وهو الذي كان قد كونهما، وابدعهما، وزينهما بكل ما كان فيهما من جمال وكمال، وعرف بين الناس نجارا بسيطا وابن نجار.

وفي حياته العلنية كان ايضا مثلا مكملا للتواضع حتى انه استطاع ان يدعو الناس، حتى اعداءه، ليتشبهوا به. لقد اعلن مرارا انه ابن الله، وانه مساو للآب، ومع ذلك عاش مع الناس اقل من الناس. عمل عجائب باهرة حيرت العقول وشعلت بنار حبه القلوب، ولكنه كان يتوارى امام الامجاد، ويهرب من الحفاوات. واختار رسله من عامة الناس، وكان يؤثر مخالطة المساكين والضعفاء والفقراء والخطأة والصغار فيبشرهم بالانجيل، ويشفي مرضاهم، ويغفر ذنوبهم، ويلاطف اولادهم، ويشبع في البراري جموعهم. وكان تعليمه بسيطا يفهمه الكبير والصغير وابن القرية وابنة الشعب. ولما اختطفوه وارادوا ان يجعلوه ملكا افلت من بين ايديهم وتوارى عنهم.

ولقد كان متواضعا ليس في افعاله فحسب، بل ايضا في افكاره وفي عواطفه وفي صميم قلبه. فلم يكن يحكم على احد بل يترك الحكم للآب[١]. ولم يكن يتكلم من عنده، بل ما كان يسمعه من الآب به يتكلم[٢]. ولم يكن تعليمه له بل للآب الذي ارسله[٣]. ولم يكن يفتخر باعماله المجيدة بل ينسبها كلها الى ابيهه السماوي[٤]. ولم يكن يطلب مجده بل مجد الآب الذي ارسله[٥]. ولم يكن يسعى ليتسلط ويخدمه الناس، بل انما جاء ليخدم ويبذل نفسه عن البشرية جمعاء[٦]. وفي العشاء السري قام ولبس ثياب الخدم واخذ يغسل ارجل تلاميذه وينشفها بيديه.

الا انه تجاوز كل حدود التواضع فيآالامه. فلقد حمل ذنوبنا برضاه وقام يكفر عنها بالآلام والخزي والعار، وهو رب المجد. وبهذا منتهى التواضع. وخانه يهوذا فلم يوبخه بل عاتبه بلطف: يا صاح ؟ألهذا جئت؟_ أهانه الخدم وضربوه ولطموه وهزئوا به. وقالوا عنه انه معتوه احمق، فصمت ولم يتذمر ولم يتململ ولم يرد على قباحاتهم جوابا._ انكر الشعب ورؤساؤه حسناته وفضائله وعجائبه وحنانه وقدرته وحسن نواياه، وحكم عليه بيلاطس بالموت مسايرة للحسد وخوفا من اللوم، وصلبوه بين اللصوص كأكبر الجناة، وهو هو الذي اقام العازر ووحيد ارملة نائين من الاموات، ومات على الخشبة عريانا مخذولا منكسرا امام اعدائه ، مهملا من اصدقائه ومن تلاميذه ، حتى صدق فيه قول النبي داود جده: "انا دودة، لا انسان، عار عند البشر ورذالة في الشعب"[٧]. ورغم ذلك كله لبث خاضعا صابرا متواضعا، طالبا الغفران لمن صلبوه: "يا ابت اغفر لهم"[٨]. وفي هذا قال بطرس الرسول: "لان المسيح ايضا تألم لاجلنا وابقى لكم قدوة لتقتفوا آثاره. الذي لم يصنع خطيئة ولم يوجد في فمه مكر. وكان يشتم ولا يرد الشتم. وكان يتألم ولا يهدد"[٩].

فالمسيح من يوم ان تجسد لاجلنا، وحمل خطايانا، رضي بهذه الآلام، وتواضع هذا التواضع العميق، لان الخطيئة التي حملها كانت تقضي بذلك. فهل يحق لبشر بعد هذا ان يتذمر او يتكبر.

---

[١] يوحنا ٨:١٥
[٢] يوحنا ١٤:١٠
[٣] يوحنا ٧:١٦
[٤] يوحنا ٥:٣٠
[٥] يوحنا ٨:٥٠-٤:١٧
[٦] متى ٢٠:٢٨
[٧] مزمور ٢١:٧
[٨] لوقا ٢٣:٣٤
[٩] بطرس الأولى ٢:٢١-٢٣

وماذا نقول في حياة الرب يسوع في القربان. ما هذا التلاشي، وما هذا التحجب وراء اعراض حقيرة مادية. اليس هو صانع الارض والسماء، ومزين الدنيا بالبهاء. اليس هو مفيض كل صلاح وكل فضيلة وجمال. فما باله يخفي عن الدنيا مجده وقدرته ورحمته. وفوق هذا فانه لا يكتفي بحجب لاهوته وضياء مجده، بل ايضا على نسيان اصدقائه وبنية له، وعلى نكران المسيحيين لجميله، وعلى اهانتهم له في سر محبته. ومع ذلك فهو يهتف دائما نحونا من اعماق خلوته: "تعالوا الي، ياجميع المتعبين والثقلين وانا اريحكم. واحملوا نيري عليكم وتعلموا مني أني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لأنفسكم"[1].

فهل من مثال اعظم من هذا المثال ليحملنا على التواضع؟ الكبرياء بدأت فاهلكت الدنيا ودهورت البشرية الى اسفل دركات السقوط والنحطاط. فجاء الرب وخلص العالم بتواضعه وآلامه، واوصانا ان نقتفي أثره في أمر نجاحنا وخلاصنا.

ولكن كيف نمارس نحن التواضع على مثال الرب؟_ ان الحاة لهي ملأي بالمناسبات المختلفة التي يمكننا ان نمارس التواضع فيها، سواء كان امام الله، او امام قريبنا، او امام نفسنا.

نتواضع امام الله اولا بممارستنا روح العبادة نحوه تعالى.فنعترف امامه بشكر وارتياح ورضى اننا عدم، واننا خطأة. ونغتبط لكونه هو الكائن، وهو القدوس، وهو الخالق، وهو الغفور، ونعبده، ونسبحه، ونسجد له من اعماق قلوبنا، ونستغفره، ونتصاغر امامه، ونتلذذ بحقارتنا لتظهر عزته وجبروته. وكلما خطئنا من جديد نعود اليه متذلين طالبين مراحمه. لان الاستغفار هو التواضع، والتوسل هو التواضع. وكثيرا ما يسمح الرب بسقوطنا ليزيدنا توسلا وتواضعا، كما تقول القديسة تريزيا الكبيرة الافيلية[2].

نتواضع ايضا امام الله بممارستنا روح الشكر ومعرفة الجميل.لان من شكر تواضع. فالشكر هو الاقرار بجميل المحسن، والجميل هو عز ورفعة. ولما كان كل ما فينا من خير قد أتانا من الله فشكرنا له تعالى يجب ان يكون له حد. والشكر كما قلنا هو تواضع، وهو يذكرنا بحنان الباري وباحتياجنا الدائم الى نعمه. والشكر حقا هو مزيج من الحب ومن التواضع ومن الخضوع ومن التوسل ومن الثناء. وما احلى ما قال الشاعر :

لك الحمد حمدا تستلذ به ذكرى وان كنت لا احصي ثناء ولا شكرا
لك الحمد حدا طيبا يملأ السما واقطارها والارض والبر والبحرا
لك الحمد مقرونا بشكرك دائما لك الحمد في الاولى لك الحمد في الاخرى

نتواضع امام قريبنا، بنبتهج لرؤيتنا ما افاض الله عليه من محاسن ومواهب ونعم سماوية وخيرات ارضية، ونفرح له ، ونطلب له المزيد، ونعترف امام الله بانه يستحق الخير اكثرا منا، ونشكره تعالى على ما اعطاه، ولا نحزن لانه اختاره لاعمال مجيدة وتركنا، ودعاه الى المناصب واهملنا. ونفرح له طالما يتمجد الله بعمله، ونكرمه ونعلي شأنه: "ليبادر بعضكم بعضا بالاكرام"[3].

ونتواضع امام قريبنا في افكارنا وفي اعمالنا بان نعذر حتى في باطننا نقائصه، ونغض الطرف عن زلاته. الا اذا دعانا واجب الرئاسة او الادارة او الارشاد الى تنبيهه او الى توبيخه. وتواضع الفكر معناه ايضا بان نقر في دواخلنا اننا لولا نعمة الله

[1] متى ١١:٢٨و٢٩
[2] Histoire de st. Thérèse, T. 2, p. 229.
[3] رومية ١٢:١٠

لكنا اشقى الناس حالا، واكثرهم اثما، واقلهم دراية ومروءة وعقلا وادبا وفضلا وفضيلة. وهذا ما حمل القديسين على ان يعتبروا ذاتهم اول الخطأ: "ومن اصدق ما قال والجدير بكل قبول ان المسيح يسوع انما حاء الى العالم ليخلص الخطأة الذين اولهم انا"[١]. هكذا كتب بولس الى ابنه تيموثاوس، وهكذا كان يعتقد. وهذا هو اعتقاد رجال الله الاتقياء اجمعين. وهم في ذلك على صواب : اولا لانهم يعرفون بصدق واخلاص نقائصهم وذنوبهم، وتقصيرهم في حسن استعمال النعم السماوية المعطاة لهم. وثانيا لانهم يعرفون ان لاحق لهم في الحكم على قريبهم : " لا تدينوا لئلا تدانوا "[٢]. ولانهم يعرفوا ايضا ان ما يرونه ظاهرا من سوء عمل القريب ربما له عذر فيه. فهم يجهلون نياته، ولا يقدرون ان يزنوا مقدار النعم المعطاة له بالنسبة لما أتوا هم من نعم ومن انوار .ولايمكنهم تقدير الاوضاع الخصومية التي وجد فيها، ولا الوقوف على الظروف والعوامل النفسية والجسدية والداخلية والخارجية التي تعرض لها، ثم انهم يجهلون مقدار فضيلته، وكمية حسناته، ودرجة استحقاقاته امام العلي. أما كانت المجدلية انقى واشرف من سمعان الفريسي؟ اما كان العشار ابر من ذاك الفريسي الشديد المحافظة على ظواهر وصايا الناموس؟ اما كنت المرأة التي أخذت في زنى اقل اثما من اولئك المتسترين بلباس وهو الشرف والبرارة ، الذين تألبوا عليها يشكونها؟ اما كان اللص وهو على الخشبة اكثر فضلا من رؤساء الكهنة الطلقاء؟ لذلك حق لبولس الرسول ان يقول ما قال؛ ولقد كان مخلصا في كلامه. وحق للناس الاتقياء المتواضعين ان ينسجوا عللى منواله. لان التواضع هو العدل والصدق والاخلاص والحق. " من انت حتى تدين عبد غيرك؛ انه لمولاه يثبت او يسقط "[٣].

نتواضع امام انفسنا.ان الله يريد ان نعرف ما فينا من خير وحسنات ومؤهلات، وان نعرف لنفسنا بها، لكي نشكره عليها، لانه هو مصدرها وواهبها. ولقد قالت القديسة تريزيا الكبيرة الافيلية في هذا المعنى : " ان الواجب يقضي على النفوس التي وصلت الى درجة الاتحاد الكامل مع الله تعالى ان تقدر هذه النعمة تقديرا ساميا، وان تذكر دائما ما وهبها الله من نعم، وان تحذر ان تنكر هذه المواهب الالهية بداعي التواضع. اليس ان ذكر النعم يزيد في عاطفة المحبة نحو المنعم؟ وكيف يمكن المرء ان يتكلم عن الخيرات التي يقتنيها ويوزع حوله منها ان كان يجهل وجودها "[٤]. ولكن ينبغي ان لانتناسى ايضا حقارتنا وضعفنا ونقائصنا، وما يمتزج في اعمالنا من المارب الذاتية والمطامع الخصوصية، ينبغي بالاكثر ان ننسى ذنوبنا لنتواضع دائما امام العزة الالهية. هكذا يتواضع القديس بولس رسول الامم الذي مع انه " اختطف الى السماء الثالثة وسمع كلمات سرية لايحل لانسان ان ينطق بها "[٥] ، الا انه يقول عن ذاته :" واخر الكل تراءى (اعني الرب يسوع) لي انا ايضا كانه للسقط لاني انا اصغر الرسل ولست اهلا لان اسمى رسولا لاني اضطهدت الكنيسة الله. لكن بنعمة الله صرت على ما انا عليه "[٦].

وهكذا نروض انفسنا على دوام التواضع في افكارنا، وفي عواطفنا، وايضا في مظاهرنا الخارجية وفي سائر اعمالنا.

اما تواضع الفكر فاننا نمارسه بجذورنا اولا من الاتكال على نفسنا، ومن اعتدادنا بقوتنا وفضيلتنا وصلاحنا؛ ثم باستسلامنا لارشادات الرب وايحاءاته، عالمين ومقرين بان لاصلاح لنا الا بنعمته ومعونته، ولا ثبات لفضيلتنا الا بجوده وفضله. وبذلك لا نعظم مؤهلاتنا فوق ماهي عليه؛ ولا نتباهى بما ليس فينا. وفي هذا يقول القديس بولس الرسول: " واني

---

[١] تيموتاوس الأولى ١:١٥
[٢] متى ٧:١
[٣] رومية ١٤:٤
[٤] النص نفسه مذكور في كتاب القديسة تريزيا الطفل يسوع،فصل ١٢
[٥] كورنتوس الثانية ١٢:٤
[٦] كورنتوس الولى ١٥:٨-١٠

بالنعمة المعطاة لي اوصي كل من فيكم ان لا يسمو بعقله فوق ما ينبغي بل ان يتعقل تعقل الحكمة على مقدار ما قسم الله لكل واحد من الايمان "[١].

وقال احدهم يوما للقديسة تريزيا الافيلية، وكان قد اعجب كثيرا بما تفعله من الاعمال المجيدة : " حذار يا امي الرئيسة من ان تستلمي للزهو والمجد الباطل. فاجابته لفورها ال: المجد الاطل وكيف ان اقبل به. انني بالاحرى اطلب من الرب ان يعينني لكي لا اقطع رجائي من خلاصي انا الخاطئة المسكينة "[٢].

وتواضع الفكر يقوم ايضا بان نهرب من الظهور ونتوارى امام اعجاب الناس بنا؛ وبان نحاذر ان نعمل ما يستجلب الانتظار طمعا في الصيت والشهرة وثناء التقدير. بل يكون رائدنا مجرد عمل الخير وتمجيد الله وخدمة نفسنا في روحياتها، وخدمة قريبنا. والا فاننا لا نكرز بالمسيح، بل بذواتنا وكان القديس منصور دي بول يحذر كهنة جمعيته من ذلك ويقول لهم : " ماذا يفعل، يا ترى، من تعاطى الوعظ ليكرز بنفسه طمعا في تصفيق الناس له، وثنائهم عليه، واعجابهم بصفاته، وتحدثهم عنه ! انه يقع في خطيئة انتهاك القدسيات. نعم انه ينتهك القدسيات. لان من استخدم كلام الله والاشياء المقدسة الالهية ليحصل منها على شرف وجاه، ينتهك بلا ريب القدسيات"[٣].

وتواضع الفكر معناه ايضا اخضاع العقل لارشادات الكنيسة، ولرأي الكنيسة، ولوجهة رنظر الكنيسة، عالمين ان الحبر الروماني ودوائره العالية، وان بطريركنا واساقفتنا لهم انوار السماوية غير انوارنا، وان الرب يسدد خطواتهم في ارشادهم لنا، وفي شق الطريق لمسيرنا، حتى في الامور الثقافية والاجتماعية والوطنية التي تتعرض لنا في حياتنا.

وتواضع الفكر يحملنا ايضا على احترام رأي غيرنا، وان خالف به رأينا، وعللاهوتية مثبتة. لان لكل انسان حرية الرأي والعقيدة في الامور المباحة.

اما تواضعنا في عواطفنا فمعناه اننا نرضى بما قسم الله لنا من رزق ومن مال ومن شرف ومن وظيفة ومن مكانة اجتماعية. ولكن هذا يتنافى مع حقنا في السعي والاجتهاد للحصول على حالة افضل ونجاح اوفر، اذا كان في ذلك تمجيد الله وخدمته وحسن القيام بواجباتنا. هذا شأن كل التجار والصناع والفنانين والادباء والمخترعين، ورؤساء ومديري الجمعيات الدينية والادبية والثقافية والاجتماعية. وهذا شأن كل مصلحي الرهبانيات الكاثوليكية، نظير القديسة تريويا الافيلية والقديس يوحنا الصليبي وغيرهم. ولكن مع السعي والاجتهاد والفلاح والنجاح يبقى الانسان متواضعا، ويلبث في سلام ورضى وطمأنينة وقناعة، واضعا امره وعمله بين يدي الرب مدبره ومعينه وموفق اعماله.

التواضع في العواطف معناه ايضا ان يرغب الانسان في ان يبقى في الدنيا نسيا منسيا، وان يختار له بين الوظائف المعروضة عليه ما كان حقيرا؛ وان يسدل سترا على ما من شأنه ان يجلب له حب الناس وثناءهم وتقديرهم واعجابهم؛ بل كل رغبته في ان لا احد يأتي بذكره.

ويقول صاحب الكتاب الرائع البديع "الحرب الروحية" : "انه يجب علينا ان نتذلل في افكارنا وعواطفنا امام الله، وامام قريبنا، وامام انفسنا، لانه لا شيء فينا مما هو لنا يستحق الاعتبار والتمجيد. وان ما فينا من خير يتلاشى امام عظم ما فينا من شر. وكم نستسلم حتى في عمل الخير والصلاح لأفكارا الزهو والطمع، او لعواطف اغتباط المرء المعجب

---

[١] رومية ١٢:٣

[٢] Histoire de st. Thérèse, T. 2, p. 229

[٣] Maynard: Vertus et Doctrine de St. Vincent de Paul, p. 214

بنفسه،المرتاح الى نجاحه في عمله، ناسين ان الفضل الحقيقي يعود الى الله والى معونة نعمته. كيف نتباهى وقد صممنا مرارا اذاننا عن اجابة ما يدعونا الله اليه من عمل الخير! وكم تظهر حقارتنا اذ نقيس انفسنا بمقياس الرسل والشهداء واباء الكنيسة زمعلميها ومؤسسي رهبانياتها؛ اذ نقيس انفسنا بمقياس القديسين العظام اثناسيوس وباسليوس والذهبي الفم واغسطينوس وايرونموس واغناطيوس دي لويولا وتريزيا الافيلية وسواهم؛ اذ نقيس انفسنا بمقياس يسوع المسيح، بمقياس العزة الالهية"[١].

ولقد كتب في هذا المعنى القديس منصور دي بول الى الكهنة جمعيته، قال : " يجب علينا الا نلقي بنظرنا الى ما نعمله من الخير في سبيل قريبنا، بل بالاحرى ان نطيل النظر الى المساوئ التي تصدر عنا، لان ذلك مما يحفظ فضيلة التواضع في قلوبنا. ان موهبة اعادة النفوس الى التوبة وغير ذلك من المزايا والمؤهلات الخارجية لم يهبها الله لنا لاجلنا بل لاجل قريبنا. فنحن وكلاء عليها وحمألون لها. بل يمكن مع وجودها فينا ان نهلك نفوسنا.لذلك وجب على من يستخدمه الله ليعمل بواسطته اعمالا عظيمة ان لا يتباهى بذلك ولا يزهو به ولا يتلذذ به كانه منه وله. بل عليه ان يتواضع امام العلي ويعترف بانه انما هو الة حقيرة يستعملها الرب في تدبيره الالهي "[٢].

اما تواضعنا في مظاهرنا الخارجية فانه يكون مراة التواضع الداخلي الذي يكون فينا. وهذا التواضع الخارجي يساعد بدوره عواطف التواضع الداخلي وينشطه. وهكذا يكون التواضع عمل الروح القدس وعمل الجسد معا.

فالتواضع الخارجي يكون اولا في وضاعة اللباس وحشمته؛ وفي بساطة المسكن وقلته. فان التأنق في الثياب وفي الاثاث، وكل ما هو تبرج وفخامة يعرض للزهو والخيلاء. ولذلك فالمتواضعون من الرهبان والراهبات يرغبون الثياب الخلقة والمخادع الفقرية والالة البسيطة والخدمة المتواضعة.

التواضع الخارجي يكون في هيئتنا ومشيتنا ونظرنا؛ فلا يفوح من هذا كله سوى عبير الوداعة والمسالمة والعاطفة الطيبة البعيدة عن الترفع والتبجح والعظمة واحتقار الناس.

التواضع الخارجي يكون بتوقيرنا لغيرنا، واعطائه المقام الاول علينا، وخدمته بما يمكن من جهودنا ومساعينا، ولا سيما من كان فقيرا او صغيرا او قاصرا واحتاج الى معونتنا ومساعدتنا. " ان عادة التواضع الخارجي المسبب عن عاطفة صادقة قلبية تحفض لشخص الانسان هيئة لطف ووداعة دائمة. وما ذلك سوى مزيج من التؤدة والرصانة والحلم، مما يفيض على الهيئة كلها جمالا فتانا وتناسبا كاملا وسحرا حلالا، يعبر عنه بكلمة واحدة رائعة هي الاحتشام. فيبدو هذا الاحتشامفي النظر، وفي الصوت، وفي الضحك، وفي كل حركة واشارة من الانسان. ولا ابعد عن الاحتشام الحقيقي من اندفاع المرء الى ظهور. ولقد قال الرسول : " ليظهر حلمكم امام الناس فان الرب قريب"[٣]. هذا هو السر فيما يبدو من الروعة والقدسية في الهيئة الوضيعة. فان الله قريب من هذه النفس؛ وهي لا تنسى ذلك، بل تعيش في حضرته، وتعمل تحت نظره، وتشغل بمساعدة ملائكته"[٤].

التواضع الخارجي يظهلر على الاخص في كلامنا وفي حديثنا. فنمسك مثلا عن الكلام لنترك الدور لغيرنا؛ ولا نفيض في ذكر اعمالنا ووصف مواقفنا وسرد تاريخ حياتنا؛ ولا نستعرض اشغالنا ووظائفنا وموافقنا، وما نجح من مساعينا،

---

[١] Le Combat Spirtuel, ch. 34

[٢] Maynard: Vertus et Doctrine de St. Vincent de Paul, p.218

[٣] فليبي ٤:٥

[٤] Mgr. Gay: Vie et Vertus chretiennes, T. 1, p. 357

وما بهر من خطبنا، وما انتشر من كتاباتنا؛ ولا نشيد بذكر اقربئنا ومعارفنا؛ ولا نذم امام الناس انفسنا لنظفر بمديحهم لنا وثنائهم على امجادنا. ان بعض القديسين تظاهروا بالحمق طلبا لاحتقار الناس لهم، " فيجب ان نعجب بهم ولكن من غير ان نقتفي اثرهم، يقول القديس فرنسيس السالسي، لانه لا بد أن كان لهم اسباب حملتهم على ما اتوه من شذوذ وافراط في اعمالهم. فلا يحق لغيرهم ان يأخذوا ذلك منهم"[1].

فالتواضع اذا هو فضيلة عملية جليلة النفع، كثيرة الاجور، ترافق الانسان في كل اطواره، وفي كل دقائق وتفاصيل حياته، وتمكنه من حسن النجاح في اموره، وتفيض عليه سحرا وتنشر عنه عرفا يبقى طويلا من بعده.

حادث تاريخي

تواضع القديس ارسانيوس

كان ارسانيوس من اشرف روما. وكان شديد التقوى، عالي الثقافة، كثير الادب. فاختاره الامبراطور ثاردوسيس في اواخر القرن الرابع ليكون استاذا ومربيا لولديه اركاديوس وارنوديرس. ووصل الى اعللى مراتب الدولة، ولقب بابي القياصرة، واصبح من اغنى اغنياء دهره.

الا ان نفسه الكبيرة كانت تعاف دائما تلك المباهج الزائلة التي كانت مسراتها ممزوجة على الدوام بشيء من الاكدار والنقصان. فلما صار ابن اربعين سنة، هجر العالم وافراحه واعياده وامواله، وهرب خلسة الى صعيد مصر، وطلب من رهبان تلك الصحارى ان يقبلوه فيما بينهم ويرشده في طرق العبادة والاتلاء.

وانهم رعم تكتمة عرفوه؛ فاستعظموا شأنه، وتهيئوا مقامه، واخذوا يتساءلون من منهم يمكنه ان يكون مرشدا لهذا الاستاذ الكبير والعالم الخطير.

فقادوه الى واحد منهم كان قد طعن في السن. وكان ناسكا مطيا مجربا. فدخلو عليه في عشته، ودخل ارسانيوس وراءهم، وبقي واقفا على الباب متلأدبا. فاعلموه بامره فسكت ولم يلتف اليه.

وحان وقت الغذاء فقام الناسك وقدم لضيوفه خبزا ناشفا وتمرا مجففا. ولم يدع ارسابيوس للاكل، بل تركه واقفا على الباب كما كان، وتناسى شأنه. وبعد برهة اخذ ذلك الناسك رغيفا ورماه لارسانيوس وقال له : كل اذا كان لك رغبة في الاكل. فأكب ارسانيوس على الارض واخذالرغيف وقام يأكله وهو واقف في مكانه.

فلما رأى الناسك المحنك منه ذلك التواضع العميق قال لجلسائه : ان هذا الرجل سوف يصل الى شأو بعيد في القداسة. وهكذا كان. لان ارسانيوس ما عتم ان صار من ائمة النساك وقادة الرهبان وكبار القديسين. ولما سالوه بعد الحادث الرغيف ماذا خالج فكره من الافكار لما رماه الناسك العجوز له، اجاب بكل بساطة : اعتبرت نفسي كلبا من الكلاب لا يأنف من أكل ما يرمون به اليه.

تواضع مسيحي!

[1] Introdution à la vie dévote, 3, p, ch. 5.

الفصل الثاني عشر
في فضيلة الوداعة

ان الرب يسوع بقوله : " تعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب"[١]. قد جمع بين التواضع والوداعة لانهما فضيلتان شقيقتان متعانقتان مكملتان الواحدة للاخرى.

بيانها .– الوداعة هي فضيلة مسيحية فائقة الطبيعة تقف في وجه الغضب، وتلطف من شوراته، وتحلم امام نقائض القريب واساءاته، وتعامله باللين رغم غلطته واثقاله.

والوداعة لاتوجد الا فيمن ملك ناصية امور نفسه بالقناعة. وتسلح بالشجاعة، وكان محبا جوداً كريما . فالوداعة هي مجموعة طيبة من الفضائل المسيحية، واثمارها غزيرة شهية. فهي بعيدة عن الرثاء، فلا تضمر الحقد والعداوة، وتتظاهر بالمسالة والموافقة والمسامحة. وهي ليست ضعفا في الاخلاق وجبانة امام مصاعب الحياة. بل هي فضيلة داخلية يلزم لصاحبها كثير من الشجاعة، وامياله وثوراتها. خصوصا وان اطباع البشر متباينة، ومشاربهم مختلفة ، و ثقافاتهم منوعة ، فاحتكاكهم ببعضهم يدعو بطبيعته الى المضايقة و النفور و الانفعالات النفسية ، و الثورات الداخلية القوية ، فالوداعة تلطف جماع النفس و تهدىء ثورات الغضب لاجل الله و محبة الله ، و تبدل العنف باللين ، و انفجار الطبيعة بالحلم و التوءدة .

ثمارها .– اما ثمارها فكثيرة و منافعها عظيمة ، لانها في ذاتها مجموعة فضائل سامية ، و لانها من الوسائل الكبرى لنشر السلام في الدنيا . يقول المسيو اوليبه : ان الوداعة لاتوجد الا في النفوس النقية التي لم تعرف الخطيئة المميتة . فان سكنى السيد المسيح فيها مدة طويلة قد طبع فيها طابعه الخاص به ، اعني الصبر العطوف و المسامحة الناشئة عن المحبة .

فثمرة الوداعة كما قلنا هي السلام ، السلام مع الله ،السلام مع القريب السلام مع ذاتنا .

يكون الوديع في سلام مع الله لانه يكون على استعداد كامل دائم لقبول ما تسمح به عنايته الالهية من خير أو شر، ويكون راضياً بما يناله من ضيق أو سعة. وهكذا يعيش ناعم البال رغم شدائده، ويتمتع بسلام القلب حتى في مضايقه. ويشعر أن الله راضٍ عنه وساكن في قلبه. وا أحلى ما قال الرسول في هذا: " لأننا نعلم أن الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير" [٢].

ويكون الانسان الوديع في سلام مع قريبه لأنه يقابل نقائصه ومطامعه وأثقاله وجهله وثوراته حتى اسائاته أيضاً بحلمٍ وهدوء وعطف ومسامحة: " وعبد الرب يجب عليه أن لا يشاجر بل يكون ذا رفق نحو الجميع صبوراً مؤدباً بوداعة المخالفين عسى أن يؤتيه الله التوبة لمعرفة الحق"[٣]. فلا يبقى من داعٍ للخصام، بل تنتصر المحبة المسيحية ويسود السلام: "طوبى للودعاء فانهم يرثون الأرض"[٤].

---

[١] متى ١١:٢٩
[٢] رومية ٨:٢٨
[٣] تيموتاوس الثانية ٢:٢٥
[٤] متى ٥:٤

ويكون الانسان الوديع بسلام مع ذاته لأنه يكون قد وطّن النفس على الصبر والتواضع، والرضى بالشدائد للتكفير عن الخطايا والتسليم لارادة المولى بقبول ومحبة. عند ذاك لا يبقى محل للغضب. فلا يغضب لما يأتيه من المحن، ولا يثور لما يصادفه من الشدائد، ولا يحزن لنقائصه وغلطاته وهفواته، ولا يغتم حتى لخطاياه. بل يتواضع ويندم ويجدد ثقته بالله، ويصلي،ويستغفر ، ويعود إلى السر في عمل الخير، وإلى حسن مواظبته على واجباته بكل طمأنينة وسلام. ولا يفعل ما يفعله بعضهم فيغضب لأنه غضب، ويحزن لأنه استسلم للحزن، ويثور على نفسه لأنه خضع لنزعات قلبه.

والمثل الأعلى للوداعة هو السيد المسيح.- فان الوداعة هي شارته الكبرى. و لقد سبق الأنبياء و بشروا به انه سوف يكون ملكا و ديعا:" لكي يتم ما قيل باشعيا النبي القائل:هوذا فتاي الذي اخترته، حبيبي الذي سررت به نفسي.أحلّ روحي عليه فيخبر الأمم بالحكم.لا يماري و لا يصيح و لا يسمع احد صوته في الشوارع.قصبة مرضوضة لا يكسر و كتانا مدخنا لا يطفيء حتى يخرج الحكم الى الغلبة، و على اسمه تتوكل الأمم"[١].

و لقد حقق هو تلك النبوءة ،لأنه ظهر في كل اطوار حياته مثالا رائعا لأروع و أجمل و أكمل ما في الوداعة من معان سامية.

ووصف هو نفسه بانه وديع و متواضع القلب؟. وهو يدعو المتعبين و المثقلين و الحزان و المضايقيين الى نيره الطيب لكي يجدوا راحة لأنفسهم و طمأنينة لقلوبهم و سلاما لحياتهم[٢].

يكفينا أن نقرأ بضع صفحات في الانجيل لتتجلى أمامنا باكمل بهاء وداعة المسيح.ما اجمل حقا وداعته مع تلاميذه، و حلمه عليهم,و صبره على نقائصهم و جهلهم و مطامعهم و قصر نظرهم و غلاظة قلوبهم، و هو ملك الملوك و هم السوقة العبيد[٣].

و ما اعذب و داعته مع الأولاد واحتضانه لهم، وملاطفتهم، ومنحهم بركته، و دفاعه عنهم ضدّ ما بدا من المضايقة عند تلاميذه لجلبتهم ، و دعوته الناس لكي يتشبهوا بهم : "حينئذ قدم اليه صبيان ليضع يديه عليهم و يصلي . فزجرهم التلاميذ . فقال لهم يسوع : دعوا الصبيان و لا تمنعوهم ان ياتوا الي لان لمثل هؤلاء ملكوت السماوات . ووضع يديه عليهم "[٤].

و ما احن وداعته مع الخطأة ، و قبوله لهم ، و تحدثه اليهم ، و اقتناصه لقلوبهم . ان مواقفه الخالدة مع السامرية،و مع المرأة الزانية،و مع المخلع،و مع اللص ،لهي أروع ما جاء عن الوداعة في تاريخ الدنيا:"لم آتِ لأدعو صديقين بل خطأة الى التوبة"[٥].

و ما أبدع وداعته مع الجماهير الملتفة حوله و هي تزحمه و تضايقه."فلما خرج يسوع أبصر جمعا كثيرا فتحنن عليهم لأنهم كانوا كخرفان لا راعي لها و طفق يعلمهم أسياء كثيرة"[٦].

ألم يزجر تلاميذه لما غضبوا لعدم قبول السامريين و قال لهم: "إن ابن البشر لم يأت ليهلك نفوس الناس بل ليخلصها"[٧].

---

[١] اشعيا ٤٢:١-٤
[٢] متى ١٢:١٧
[٣] متى ١١:٢٩
[٤] متى ١٩:١٣-١٥
[٥] مرقس ٢:١٧
[٦] مرقس ٦:٣٤
[٧] لوقا ٩:٥٦

و ما اكرم و داعته مع المرضى،و كم تحمّل من لجاجتهم،و من أثقالهم،و من مضايقتهم له، و من اعتراضهم له في طريقه.

و لقد فاقت و داعته كل حدّ في الامه:مع يهوذا "ياصاحب لاي شيء جئت"[١]. و مع العبد ملكس،ومع الخادم الذي لطمه على خدّه،و مع بطرس الذي أنكره،و مع يهوذا الثائرين عليه:"يارب اغفر لهم"[٢].

لذلك حقّله أن يوصي تلاميذه و المؤمنين به ان يكونوا و ديعين على نثاله:

"انا انا فاقول لكم:أحبوا أعدائكم،و احسنوا الى من يبغضكم،و صلّوا لأجل من ينعتكم و يضطهدكم"[٣].

"اما انا فاقول لكم: لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الأخر.و من اراد ان يخاصمك و يأخذ ثوبك فخلّ له رداءك أيضا"[٤].

"كونوا حكماء كالحيات وودعاء كالحمام "[٥].

فالمسيحي الحقيقي يتأمل في حياة السيد المسيح ، و يسمع اقواله ووصاياه و يسعى لكي يتشبه به و يسير بحسب تعاليمه . فيتجنب الخصام ، و ثورات الغضب ، و انواع الشتائم ، و قوارص الكلام ، و يتحلى بالبشاشة في معاملته مع الناس . فالوداعة هي قناصة القلوب ، و جلابة النعم ، واصل الخير العميم على الارض .

"طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض " [٦].

(حادث تاريخي)

وداعة القديس منصور دي بول

كان القديس منصور دي بول قد اصبح علما عظيما في المملكة الفرنسية على عهد الملك لويس الثالث عشر . و كان قد اسس جمعيات المرسلين اللاعازرين و راهبات المحبة ، و انشا الملاجىء و المستشفيات و رفع مستوى الدروس اللاهوتية ، و اضحى رجل المملكة و الكنيسة الاكبر في بلاد فرنسا .

و كان الملك قد وكل اليه انتخاب الاساقفة لكرسي الابرشيات و تعيين كبار موظفي الكنائس و المعابد . فصار الكثيرون يطمعون بعطفه لكي ينالهم شيء من انظاره و تقديره ، لكنه كان رجلا قديسا متجردا منزها عن كل اغراض الدنيا و مطامع الارض . و لم يكن يدعو الى شرف الاسقفية الا من تحقق اهليته الدينية و العلمية و الارادية معا بقطع النظر عن اسمه و شهرة عائلته ، او عن نفوذه و ثروته . لذلك كثر اعداؤه و مبغضوه .

ففي ذات يوم بينما كان راكبا فرسا و سائرا في طريقه اذ ادركه واحد من اولئك الطماعين في الدنيا ، الناقمين عليه ، و اخذ يكيل له الشتائم بلا حياء و لا حساب . و مما قال له : ان كل ما يحل بفرنسا من المصائب انما هو نتيجة جهله و غروره و مطامعه .

---

[١] متى ٢٦:٥٠
[٢] لوقا ٢٣:٣٤
[٣] متى ٥:٤٤
[٤] متى ٥:٣٩و٤٠
[٥] متى ١٠:١٦
[٦] متى ٤:٥

فما كان من منصور الا ان نزل عن فرسه و ركع امام شاتمه و قال له بمنتهى الحلم و الوداعة : نعم يا اخي ، الحق معك . انا سبب مصائب فرنسا . يا ليت الملك يعرف ضعفي و جهلي و مسكنتي و يطرحني فابقى في الدنيا نسيا منسيا . و يا ليتك تحسن الي و تساعدني على ذلك .

فذهل الرجل من هذ الوداعة و هذا التواضع ، فهجم عليه يقبل يده و يستفز منه .

الباب الثاني
في الفضائل الالهية

تمهيد

ان الفضائل الالهية ثلاث : الايمان و الرجاء و المحبة . فالقديس بولس في رسالته الاولى الى اهل كورنثوس يتكلم باسهاب عن المحبة و يسمو الى حد الابداع في كلامه عن هذه الفضيلة الالهية التي انما هي الظاهرة الكبرى لتجلي الالوهة ، و الشعار الاعظم للديانة المسيحية[١] . ثم بعد ذلك يقول: "والذي يثبت الان هو الايمان و الرجاء و المحبة ، هذه الثلاثة و اعظمهن المحبة" [٢]. و في رسالته الى اهل تسالونيكي يعود مرتين الى ذكر هذه الفضائل الالهية الثلاث فيقول في الفصل الاول : "متذكرين عمل ايمانكم و تعب محبتكم و صبر رجائكم بربنا يسوع المسيح "[٣]. و ايضا في نهاية الرسالة: "اما نحن اهل النهار فنصبح لابسين درع الايمان و المحبة و خوذة رجاء الخلاص"[٤]. فكلام القديس بولس واضح فيما يختص بهذه الفضائل الالهية ، و عليه سارت الكنيسة المقدسة في تعليمها .

وتدعى هذه الفضائل الثلاث الهية لان غايتها هو الله . فهي اكبر الوسائل لاتحادنا به تعالى ، فنسمو فوق ما نحن ، و الى اعلى من مطالب طبيعتنا ، و يتبدل الانسان البشري فيصير انسانا سماويا ، و هكا نقترب من الالوهة ، و نتحد بها بواسطة سيدنا يسوع المسيح .

فالايمان يقربنا من الله ، و يجعلنا نتحد به تعالى اتحادا روحيا وثيقا ، لاننا بالايمان نعرفه تعالى كما شاء ان يتجلى لنا ، و نؤمن بكلامه لانه الصدق الاسمى ، و نقبل بلا تردد ايحاءاته ، و نعد نفسنا للتمتع في السماء الى الابد برؤيته حسب وعده ، و هكذا يشاطر فكرنا فكره ، و علمنا علمه ، فتتحد روحنا بروحه ، و عقلنا الضعيف بحكمته الازلية و كلمته .

و بالرجاء نصعد ايضا اليه ، و نصبو الى التمتع بنعيمه ، و نعلل امالنا بان سوف ينيلنا ما وعدنا به من ملكوته ، لانه رحيم و جواد و صادق ، و لانه خلقنا و احبنا و خلصنا و لا يزال شغوفا بنا ، عطوفا علينا ، رائيا لضعفنا ، مساعدا لنا في جهاداتنا ، الى ان نحط رحالنا امام عرشه و نسعد مدى الابدية برؤيته .

اما بالمحبة فان قلبنا يذوب في نار حبه ، لاننا نرى فيه كل الخير و كل البهاء و الجمال و الكمال ، فنحبه بكل جوارحنا و عواطفنا ، حتى نصير معه بالمحبة واحدا ، و هكذا يكون اتحادنا به وثيقا على الارض ، ريثما نتحد به بالمحبة في السماء الى الابد .

فبحق سميت هذه الفضائل فضائل الهية لان الله هو محورها و غايتها الاولى و القصوى . و ها نحن اخذون بالكلام بايجاز عن كل واحدة منها .

---

[١] كورنتوس الأولى ١٣:١-٨
[٢] كورنتوس الأولى ١٣:١٣
[٣] تسالونيقي الأولى ١:٣
[٤] تسالونيقي الأولى ٥:٨

الفصل الأول

في فضيلة الإيمان

بيانها– الإيمان هو فضيلة فائقة الطبيعة تحمل ذهننا، تحت تأثير إرادتنا الحرة والمعونة النعمة الإلاهية، على قبول وتصديق الحقائق التي أوحاها الله لنا، لأنه هو الحق الأزلي الذي لا يمكن أن يغلط، ولا يمكن أن يضللنا.

فعمل هذه الفضيلة إذا هو عمل روحي عقلي، لأنه عمل قبول وتصديق لحقيقة عقلية. كما أن للإرادة أيضا فيه حظا وافرا. لأن الحقيقة المعروضة على العقل ليست في ذاتها وجوهرها من الوضوح والظهور مما يجعل العقل يقبلها بلا تردد ولا ارتباك. لذلك كان لا بد للإرادة من أن تنزل هي أيضا إلى الميدان وتعمل عملها، وتحمل الذهن أولا على بحث الأسباب الموجبة لقبول تلك الحقيقة وتصديقها. فإذا ما مجد العقل تلك الأسباب كافية منطقية، وارتاح إلى صوابيتها، عادت الإرادة الكره عليه وأمرته أن يصدق تلك الحقيقة ويقبلها، فيؤمن العقل حينئذ بها. فالإيمان هو نتيجة فعل العقل وفعل الإرادة معا.

ولما كانت الحقائق المعروضة على عقلنا لتصديقها وقبولها والإيمان بها هي الهية سماوية تفوق مداركنا وتسمو على قوى طبيعتنا كان لا بد لنا من النعمة الإلهية لتضيء عقلنا وتشدد إرادتنا، فتمكننا من ممارسة أفعال الإيمان، ويكون لنا من ذلك أجور سماوية غزيرة.

والإيمان يشمل الحقائق كلها التي أوحاها تعالى للبشر، سواء تلك التي لا يستطيع المرء بأنواره الطبيعية أن يدركها، نظير حقيقة الثالوث الأقدس مثلا، أو سر التجسد الإلهي، أو تلك التي يستطيع المرء بأنواره الطبيعية أن يدركها بقوة عقله ومنطقه، وهو بالفعل قد أدركها، ولكنه يزيد بواسطة الوحي. معرفة بها وإدراكا لكيفيتها، نظير وجود الله، وإبداعه للعالم، ومكافأته للخير، ومجازاته للشر.

ومعظم الحقائق التي أوحاها الله قد جمعتها بالكنيسة المقدسة في قانون الإيمان، وهي ترجع كلها إلى الله والى السيد المسيح. فالله هو الكائن الواحد الأزلي المثلث الأقانيم، القادر على كل شئ، خالق ورب الكل. والمسيح يسوع الابن الحبيب، الاقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، الذي تجسد في أحشاء العذراء مريم، وافتدانا، وأسس كنيسته وسلحها بسلطانه، ووضع بين يديها كنوز نعمة وإسراره ليكمل رسالته وتقود البشرية بمعونة الروح القدس إلى الملكوت الأبدي الذي استحقه المسيح لها بآلامه. هذه هي المجموعة الكبرى للحقائق الإلهية التي أوحاها الله والتي أمرنا أن نؤمن بها ونصدقها ونسير في حياتنا على ضوئها، وإن كنا لا ندرك كنهها وجوهرها، فيقودنا الإيمان بها والعمل بمقتضاها إلى الحياة الأبدية:(وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفونك أنت الإله الحقيقي وحدك والذي أرسلته يسوع المسيح).[1]

منافع الإيمان– الإيمان هو حقا أساس حياتنا المسيحية، وهو مقدسها ومكيفها ومنشطها ومعزيها. لأننا بالإيمان نعلم ما هو الله، وما هي قدرته وسلطانه ورحمته حنانه، ولأي شئ خلقنا وما يريد منا وكيف أحبنا، وبماذا وعدنا. فهو النور الذي به نستضيء في حياتنا وفيما نصبو إليه تلطف شدائدنا، وبه الأجور الدائمة التي تغنينا وتضفر للسماء أكاليلنا.

[1] يوحنا، ٣: ١٧

فالإيمان هو نور لعقولنا لأن به نستمد من الله المعارف الحقة الصحيحة الصادقة، فيمتزج فكرنا بفكره، وروحنا بروحه، وحياتنا بحياته، فنعرفه كما هو، ونفهم كيفيته وكيفية مخلوقاته على ما قدر تستطيع طبيعتنا البشرية الضعيفة أن تفهم كنهه وطبيعته وعمله. إلا أن معرفتنا له بالإيمان تكون صحيحة، منزهة عن الضلال، بعيدة عن ترهات الفلسفات السخيفة السقيمة الباطلة. (بالإيمان يصبح نور الله نورنا، وحكمته حكمتنا، وعلمه علمنا، وروحه روحنا، وحياته حياتنا).[٢]

بالإيمان يتميز الإنسان المسيحي عن الفيلسوف الطبيعي. فإن علم الفلسفة ناقص لاعتماده فقط على المنطق العقلي والنور الطبيعي. أما العلم الصادر عن الإيمان فهو كامل لأن الله هو مصدره، والله هو رب كل فلسفة، ومصدر كل علم وينبوع الأنوار كلها، أنتم أبناء النور، يقول لنا المسيح. وإذ نرى العقل البشري يتخبط في دائرة ضيقة مظلمة، ويسير على ممر الأجيال من شكوك إلى شكوك، ومن ظلمات إلى ظلمات، إذ نرى جموع الفلاسفة يسعون بكل قواهم ليصلوا إلى النور ، ليظفروا بالحقيقة فلا ينال المقدم منها النزر اليسير منها، إذ نراهم وكل منهم ينبذ ما وصل إليه غيره من أنوار، ويقبح طريقته وينكر عليه تعليمه، نرى المسيحي يسير بطمأنينة في بحر فائض الأنوار، فلا يتردد، ولا يخالج فكرة شك، ويعرف بجلاء حقائق سامية رائعة بديعة الهية، فيرتاح عقله إليها، وينعم بطمأنينة بها، ويسير بسلام وفرح على ضوئها. يعرف أن الله موجود، وأنه روح أزلي سرمدي، لا حد لقدرته، ولا حصر لحكمته، وأنه هو الذي أبدع الإنسان وسائر الكائنات، وأنه واحد في طبيعته، مثلث في أقانيمه، وأن حكمته الأزلية هي بهذا المقدار سامية حتى أنها تؤلف اقنوما ثانيا، هو الكلمة، وأن محبته هي بهذا المقدار فائضة حتى انه يصدر مها أقنوم ثالث هو الروح القدس، الروح المعزي، الروح المقدس للنفوس، الروح الموزع النعم والمفيض النور، وان الأقنوم الثاني تجسد في أحشاء بتول، ونزل على الأرض وتردد بين الناس وعلمهم حقيقة الأسرار الإلهية، ورفعهم إلى الإلوهية، وافتداهم بدمهم الأطهر، وترك لهم أسرار سبعة مقدسة محيية لنفوسهم، وسكن على الدوام في القربان فيما بينهم، في كنائسهم، وفي قلوبهم وجعل في الكنيسة التي أسسها سلطانا إلهيا، وعصمها عن أغلاط الفلاسفة، ونزهها عن أضاليل العقل البشري الضعيف الساقط المتحزب الطماع المتكبر، وفتح أبواب الملكوت لجميع الأمم والشعوب، أعني لكل من يريد أن يعبد الله بإيمان وتقوى ومحبة.

هذه هي خلاصة الحقائق السامية السماوية الحقة، وعلى ضوئها يسير الأدب المسيحي ويسمو على كل أدب فلسفي طبيعي، لأنه يستمد أنواره من الحكمة الأزلية السامية الإلهية.

أما الفلسفة الطبيعية فهي ناقصة، والعلوم البشرية فقيرة بائسة فلا تشبع العقول ولا تروي القلوب. ولقد كتب في ذلك الشاعر الفرنسي الكبير فرانسوا كوبيه قال: [١]إن العالم الكيماوي، وفي كل مرق تحليلات معملة، لا يستطيع أن يجد الدواء الواقي من الشكوك والأحزان).

(وأن ما يرسله القمر من الأنوار مدة صيف كامل، وهو ما نقدر أن نحصره في قنديل من قناديل أديسون الكهربائية، لا يتوصل إلى تبديد ظلمات قضية واحدة من القضايا التي تشغل النفوس البشرية الحائرة).

(ما هو قدر الاختراعات العلمية كلها التي بفاخر مجتمعنا العصري بها، والتي هيهات أن يصل إلى القلب البشري أثرها، أمام الكلمات التي فاه بها المسيح منذ ألف وتسع مئة سنة، على مسمع بعض البؤساء من سكان الجليل: أن أصبر

[٢] mgr gay: vie et vertus ghretiwnnes,t,I,p.150
[١] cfr g. hoornaert,s j: apropos de jevangile,226.

على آلامك برضى، وأقبل على الموت بعاطفة الرجاء. هذا هو السر العظيم الذي نزل وحيه علينا من قمة الجلجلة. ونحن أحوج إليه لأجل إسعادنا من الاستيلين والفوتوغراف).

فهل من تعليم يا ترى، أسمى ن تعليم يسوع من الجليل، وهل من أدب أرفع في القلوب من الأدب الذي يدعو إليه هذا المعلم الإلهي؟(طوبى للمساكين بالروح، طوبى للحزان، طوبى للودعاء، طوبى للجياع والعطاش إلى البر، طوبى للرحماء، طوبى لأنقياء القلوب). فالقداسة التي يدعو إليها يسوع هي قداسة القلب، وقداسة النية، هي القداسة السماوية المترفعة عن المطامع الأرضية وعن المصالح السخيفة الذاتية. هي القداسة الصحيحة الروحية، وليس القداسة المادية الجسدية الظاهرة التي تعنى فقط بالعيون التي ترى بالآذان التي تسمع. هي القداسة التي تضع محبة الله على رأس أعمالها ، وتحب القريب محبة لله، وتعطف عليه لأجل الله، وتحسن إليه لوجه الله. هي القداسة التي تجعل السيد المسيح مثالها، وتعاليمه دستورا لحياتها. هي القداسة التي تعتمد على نعمة الله في عملها، فيصبح هذا العمل سماويا أبديا.

الإيمان هو قوة لإرادتنا، هو خير مشجع لنا في مضايق هذه الحياة وشدائدها. لأننا بالإيمان نعرف أن المسيح سار في طريق الشدائد قلبنا، وأنه يدعونا إلى اللحاق به، وأنه يعطينا القوة لنسير في إثره، وانه يعدنا بالسعادة الدائمة ويمنحنا إياها إذا حفظنا وصاياه كنا آمنين في طاعته. بالإيمان نعرف (أن ضيقنا الحالي الخفيف ينشئ لنا ثقل مجد أبديا لا حد لسموه)[1].

بالإيمان نعرف مع بولس السادس (إن آلام هذا الدهر لا تقاس بالمجد المزمع أن يتجلى فينا).[2] وهكذا نتقوى ونتشجع، لا بل نصل إلى حد أننا(نفتخر أيضا بالشدائد لعلمنا بأن الشدة تنشئ الصبر، والصبر ينشئ الامتحان، الامتحان الرجاء، الرجاء لا يخزي لأن محبة الله قد أفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي أعطي لنا)[3]. وما أبدع ما كتبه بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين عن أيمان الآباء والأنبياء والشهداء: (بالايمان نفهم أن الدهور أتقنت بكلمة الله حتى أن المنظورات صنعت من غير المنظورات ... انه يضيق بي الوقت لو أخبرت عن جدعون... والأنبياء الذين بالايمان قهروا المماليك قهروا المماليك وعملوا البر ونالوا المواعد وسدوا أفواه الأسود وأطفئوا حدة النار ونجوا من حد السيف تقووا من ضعف وصاروا أداء في القتال وكسروا معسكرات الأجانب واسترجعت نساء أمواتهن بالقيامة وعذب آخرون بتوتير الأعضاء والضرب ولم يرغبوا في النجاة ليحصلوا على قيامة أفضل)[4]. فاليمان هو القوة الصادقة لنا عندما توشك أن تخور عزائمنا أمام زوابع الحياة وشدائدها.

وما ابلغ ما كتب الروائي الفرنسي الشهير بول بورجه إذ قال: (ما هو قدر هذه العلوم وما هو نفع هذا الدخان عندما يصل الإنسان إلى نقطة توجيه الحياة ويضطر أن يتخذ له قرارا وطريقا. ما هي قيمتها عندما يحتاج القلب في محنته إلى معونة علوية، إلى حقيقة ثابتة يستطيع أن يتمسك بها ويثبت عليها)[5].

وقال الفيلسوف جوفوا:(كيف يمكن الإنسان أن يعيش بسلام إذا كان لا يعرف من أين أتى، وما هو مصيره، وما هي الطريق التي يلتزم أن يسير عليها).

---

[1] ٢ كور ٤: ١٧.
[2] رومية ٨: ١٨.
[3] رومية ٥: ٥٣.
[4] عبرانيين ١١: ٣و٣٣.
[5] poul bour get:l, etape:p.343.

"أعترف لك يا أبت رب السماوات والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للأطفال... تعالوا إلي يا جميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم"[٦].

"السلام استودعكم. سلامي أعطيكم"[٧].

الإيمان هو التعزية الصحيحة الكبرى لقلوبنا عند حلول المصائب وهجوم الشدائد والنوائب. فحين يخطف الموت من بين أيدينا شخصا عزيزا علينا، ولدا محبوبا، أو أما حنونا، أو أبا سيدا سندا، أو صديقا مخلصا، فالإيمان وحده يمكنه أن يعزينا، ويطفئ أجيج نيران قلوبنا، ويبدد السحب المظلمة المتجمعة في آفاقنا وآمالنا. لأنه هو وحده يستطيع أن يسمعنا صوته عند اشتداد العاصفة ويقول لنا:(لا تحزنوا كما يحزن باقي الناس الذين لا رجاء لهم... من يسمع كلامي ويؤمن به فله الحياة الأبدية) وأن الدنيا هي الدنيا هي دار شقاء وفناء، وأن الأبدية هي حقا دار النعيم والبقاء، وأن الذين يموتون بالرب، لا يزالون متحدين بالمسيح مع الأحياء، وعائشين معنا وهم في النعيم، وإننا بصلاتنا لأجل راحة نفوسهم، وبطلبنا شفاعتهم، نسجل إلى الأبد إتحادنا معهم وقربنا إليهم.

الإيمان هو أيضا ينبوع فائض للكثير من الأجور السماوية. أولا لأن فعل الأيمان هو فعل سام له أجره واستحقاقاته. فيه نخضع لصوت الله عقلنا وإرادتنا ومداركنا وأنوار علومنا. وحينما تعصف حولنا زوابع الإلحاد بالكتابات الكفرية المنوعة، والخطابة اللادينية، وأنواع المظاهرات العلمانية المعادية للمبادئ القويمة الإلهية، فإن تمسكنا بإيماننا يكون عنوان فضلنا وسبب أجورنا.

والإيمان أيضا إذا كيفنا به أعمالنا، وجعلناه أساس حياتنا، فأصبح الدافع الحقيقي لأفعالنا، فإن كل حركة وسكنة من حياتنا تصبح ذات صبغة سماوية، ونستحق عليها النعم على الأرض والأجور في السعادة الأبدية. فبدل أن يكون درسنا مثلا، أو شغلنا، أو أكلنا، أو شربنا، لأجل غاية بشرية، يصبح الأيمان لأجل الله، وعملا بإرادة الله، ومطابقا لتعليم الله، وبذلك يكون تمجيدا الله، ومستحقا لرضى الله ولملكوت الله. وفي هذا المعنى يقول بولي الرسول:(فإذا أكلتم أو شربتم، أو عملتم شيئا فأعملوا كل شئ لمجد الله)[١].

كيف نمارس فضيلة الإيمان_ إن الإيمان هو نعمة وموهبة من الله، وهو أيضا فعل بشري صادر عن القوى العقلية بملء علمها وحريتها. لذلك كان لابد له من الصلاة التي تستمد له النعمة العلوية فيعمل وينمو ويتقوى، وكان لا بد له أيضا من الجهود الشخصية لكي يكون عمله صادقا ومستحقا للأجور السماوية.

وأعمال فضيلة الإيمان هي أنواع مختلفة ودرجات متعددة على حسب استعداد وكمال كل فئة من المؤمنين المسيحيين.

فالمبتدئون في الحياة الروحية يثبتون إيمانهم أولا بإسداء آيات الشكر لله على نعمة الإيمان التي أنعم بها عليهم، عالمين أن الإيمان هو أساس سائر النعم: (فشكرا لله على موهبته التي لا توصف)[٢]. وشكرهم هذا يزداد حرارة وخشوعا إذ يلقون بأنظارهم إلى ما حولهم ويرون أن هذه الموهبة العظيمة قد حرم منها الكثيرون من ذات مواطنهم العائشين بينهم.

---

[٦] متى ١١: ٢٥و٢٨.
[٧] يوحنا ١٤: ٢٧.
[١] ١ كورنيش ١٠: ١٨.
[٢] ٢ كورنيش ٩: ١٥.

وترتفع نفوسهم إلى الله بالصلاة لكي يديم عليهم النعمة ويزيدها في قلوبهم:(يارب زدنا إيمانا)[٣].وهكذا يرددون فعل الإيمان ما أمكنهم.

ثانيا: أنهم يقوون إيمانهم بمطالعة الكتب العلمية والتقوية والتاريخية والدفاعية التي من شأنها أن تزيدهم معرفة بالله، وبحقيقة إيحاءاته، وبجمال تعاليمه. أن تيار الكفر قد طغى على البشرية، فكثرت المؤلفات الإلحادية التي تهاجم قلوب وعقول المؤمنين لتنتزع منها نور الإيمان وتعزية الإيمان، وتزرع بدلا منها الشك والفساد والحريات المستهترة، إن الكاتب الكبير (بالمس) (balmes) يقول : (لا ينكر علي أحد تمسكي الشديد بالعقائد المسيحية الصحيحة. ورغم ذلك فإني كلما قرأت كتابا من الكتب الممنوعة أشعر بعوز جديد إلى قراءة الإنجيل وكتاب الإقتداء بالمسيح ومؤلفات لويس الغرناطي. فإلى أي المهالك تتعرض تلك الشبيبة الحمقى التي تجسر على قراءة كل شئ من غير أن تحتاط لنفسها بما يقوي معارفها ويغذي خبراتها. أن مجرد إفتكاري بذلك يملأني خوفا وأسفا).

فالواجب والمنطق معا يقضيان بأن نطالع الكتب التي تثبتنا في إيماننا، وتعلمنا الفلسفة الحقة المسيحية التي هي ثمرة التعاليم الصادقة الإلهية الأبدية. فكم وكم من الكتب والصور، ومن أفلام السينما، ومن المجلات، ومن المحاضرات التي تهاجم المبادئ الإلهية مهاجمة علنية لتهدم صرح المدينة الصحيحة الثابتة الهنيئة. وكم نرى حولنا من الوسائل الجهنمية التي تعمل بكل قواها لدك أسوار الدين المسيحي المقدس، تحت ستار العلم والحرية والتساهل والاشتراكية الكاذبة.

ثالثا: يصون المبتدئون بالحياة الروحية إيمانهم من الضعف والفتور بمقاومتهم ما يثور في عقولهم من روح الكبرياء العلمي والتمرد على التعاليم الإلهية بداعي الحرية العقلية والمقدرة المنطقية. لأنهم يعلمون أن العقل البشري هو لا شئ بإزاء العقل الإلهي والحكمة الأزلية، وأن الفلسفة الطبيعية الصادقة، فلسفة أرسطو وأفلاطون، هي سراج ضئيل إمام شمس الفلسفة الإلهية. ولذلك يتأكد لديهم أن الله قد تكلم بفم أنبيائه ورسله وكنيسته يبادرون إلى إخضاع عقولهم وقلوبهم وأعمالهم وكل دقائق حياتهم لتعاليم الرب وأحكام الرب.

(في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. كل به كون وبغيره لم يكون شئ مما كون. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس).[١]

أما التجارب ضد الإيمان فهي إما تكون عامة وما أن تكون خاصة. أما العامة فهي التي لاتتناول قضية معينة من قضايا الإيمان، بل تهاجم الإيمان كله، كقول أحدهم مثلا: إن الوحي لا وجود له، أو أن كل ما لا يرى هو وهم، أو أن كل ما لا يفهمه العقل فهو مردود. وغير ذلك من الأراجيف التي يظنها أصحابها مبادئ ثابتة ويتمسكون بها ظنا منهم أنها تعليهم فوق سواهم، ناسين وهمهم أن الفلسفة الطبيعية هي أرضية، وأن الإيمان هو الفلسفة السامية السماوية.

أما التجارب الخاصة فهي لا تتناول بالاعتراض والشك قضية معينة من قضايا الإيمان، نظير سر التجسد مثلا، أو سر الفداء، أو سر القربان، أو بتولية مريم العذراء، أو أبدية جهنم.

فأمام التجارب العامة يجب علينا أن نردد في أذهاننا أن إيماننا هو مؤسس على كلام الله، وأنه لا شك لدينا في أن الله كلمنا، وأنه جلت حكمته وقدرته، لم يترك وسيلة إلا استخدمها ليوصل تعاليمه ووصاياه إلى أذهاننا، فأوحى لنا كلامه بواسطة الأنبياء، وعلى الأخص ابنه الكلمة التأنس، وأن لدينا على ذلك أدلة واضحة أكيدة لا تقبل الشك ولا

---

[٣] لوقا ١٧: ٥.

[١] يوحنا ١: ١-٤.

يمكن أن يتسرب إليها الريب، كالمعجزات العظيمة التي أثبتها التاريخ الصحيح الثابت، وأن عقولا عظيمة أسمى من عقلنا، وأكثر علما، وأحد فهما، قد بحثت في قضايا الإيمان وبينتها وشرحتها، وثبتت حقيقتها، وآمنت بها.

وبعد أن نقنع أنفسنا بمثل هذه المبادئ الأساسية يجب أن نلجأ بتواضع وخشوع إلى الصلاة، لأن الإيمان هو فضيلة إلهية فائقة الطبيعة، وأن نهتف نحو الرب:(أنا أومن يارب فأعن ضعف إيماني).[1]

أما إذا هاجمتنا التجارب ضد قضية معينة من قضايا الإيمان فيجب أن نستسلم للشك في حقيقتها، بل نبقي على إيماننا بها ريثما نسأل من هو أعلم منا عن معناها وصحتها وثبوتها، أو ريثما نبحث نحن بذاتنا عنها إذا كان في استطاعتنا وفي متناولنا أن نفعل ذلك. ويجب أيضا أن لا نغفل عن الصلاة، طالبين إلى الرب أن ينير أذهاننا ويقوي قلوبنا لكي لا نذهب ضحية ضعف نظرنا وكبرياء عقلنا. وعلينا أن لا ننسى أن من المصاعب ما لا نستطيع أن نذلله ألا بعد دروس خصيصة طويلة شاقة. وهذا كثيرا ما يكون فوق متناول حتى بعض الطبقة المثقفة الراقية. لأن إيضاح بعض الحقائق يتطلب علوما عميقة في التاريخ والجغرافيا وعلم النفس والمنطق، وتطورات الشعوب، وفلسفة الأجيال، وتيارات الأفكار في مختلف البلدان. فالحكمة تقضي بأن لا نقبل الشك في قضية من القضايا التي تعلمها الكنيسة المقدسة ريثما تمكننا الظروف_ إن هي مكنتنا من استقصاء بيانها وشرحها فهمها، أو الوصول إلى هذه النتيجة أنها لا تتنافى مع ما يقبله العقل السليم المجرد عن الهوى.

أما المتقدمون في الحياة الروحية فإنهم لا يكتفون بان يؤمنوا بما أوحاه الله وتعلمه الكنيسة المقدسة، بل أنهم يعيشون في حياتهم بمقتضى إيمانهم، وبروح إيمانهم:(البار بالإيمان يحيا)[2]. فهم يجعلون السيد المسيح محور حياتهم، وقبلة أعمالهم. يقرؤن الإنجيل بإمعان وتواضع ومحبة ويقتبسون منه التعاليم السديدة والطرق الصحيحة التي تكفل لهم حياة مسيحية مطابقة لمعتقدهم وإيمانهم. وهكذا ينظرون إلى أمور الحياة بنظر الإيمان، ويحكمون على الدنيا وأهلها وتقلباتها وما فيها من حياة وموت، وسعادة وشقاء، وفقر وغنى، وأفراح وأتراح، بروح الإيمان، وتعليم السيد المسيح ورسله كنيسته.

أما الكاملون من المسيحيين فأن حياتهم وأفكارهم وأقوالهم وأفعالهم تكون مشربة بروح (موهبة العلم) التي يفضيها الروح القدس في قلوبهم، فلا يحكمون على أمر من أمور الحياة مهما كان كبيرا أو صغيرا إلا بموجب ما له من علاقة بالله تعالى، ولا يرون في القريب ألا صورة الله، ولا تبدو لهم في كل ما يشاهدون من الخلائق حولهم إلا قدرة الله وحكمته ومحبته وحنانه: (السماوات تذيع مجد الله والفلك يخبر بأعمال يديه)[3]. فالشمس والقمر وسائر النجوم تبدي بهاءه وقدرته، والسحب تمطر رحمته،والأزاهر تفوح بعرف جماله، والشعوب تترنم بحكمته، وجماهير القديسين الذين لمعوا على الأرض بكل فضيلة وكل بطولة يتلألئون بأنوار نعمه ونعيمه، (فموهبة العلم) تحمل النفوس التقية على أن ترى الله في كل شئ، وأن تسمعه في كل وجود، فبي الزهرة الصغيرة المعلقة على ضفاف الغدير، وفي الدوحة العظيمة المظللة بأغصانها الجموع وإليها تأوي أسراب العصافير، وفي حبة الرمل المنسية على شواطئ البحور، وفي الجبل الأشم الشامخ الذي يناطح السحاب وعلى قممه تسبح النسور، وفي الطفل الرضيع النائم بهناء على صدر أمه، وفي الخطيب الخطير الذي يهز الجماهير بفصاحة بيانه. نعم أن الله يبدو لهم في كل شئ، في كل حركة وفي كل سكنة، فيرونه بأعين قلوبهم، ويطربون لجماله، ويسبحون عظمته وقدرته وحنانه ورحمته وجماله وبهائه ويباركونه في الحياة، ويباركونه في الممات مدى الدهور والآباد.

---

[1] مرقس٩: ٢٣.
[2] رومية ١: ١٧.
[3] مزمور١: ١٨.

حادث تاريخي

إيمان الأب دي راتسبون

كان دي راتسبون قد بلغ سن الشباب وهو يهودي. وكان معروفا في الأوساط التجارية بفرنسا. وكان شابا مستقيما ومثقفا ثقافة عالية وخطب لنفسه عروسا من بنات جنسه ومن طبقته. وراح يعلل الآمال بمستقبل باسم وحياة هنيئة.
وقبل زواجه ترك فرنسا وذهب يريد زيارة البلاد الفلسطينية بقصد العبادة والتجارة والسياحة معا. فمر في الطريق بروما ونزل عند أناس من أصحابه التجار مما كانوا يتعاملون معه في أشغاله وتجارته. فاستقبلوه على الرحب والسعة، وكانوا من خيرة العائلات الإيطالية الكاثوليكية الطيبة.

وكانت لتلك العائلة ابنة شابة كثيرة التدين، جميلة التهذيب فأخذت على نفسها خدمة هذا الشاب والعناية به.ورأت منه أخلاقا حلوة آدابا عالية، فأسفت أسفا شديدا لما علمت أنه يهودي. فأخذت تباحثه بلطف في أمور الدين فتارة تمازحه، وأخرى تناظره بجد وتجادله. وكان هو يصغي إليها بلطف، ولكن بشئ كثير من الريبة المستملحة والتهكم الظريف. ونزل يوما عند إرادتها فقبل منها أيقونة صغيرة للبتول العجائية وعلقها في طيات ثيابه. وراحت الابنة تصوم وتصلي وتتوسل إلى البتول لكي تهدي هذا الشاب الطيب المهذب المستقيم إلى الإيمان المسيحي القديم.

وما هي أيام قلائل حتى دخل دي راتسبون يوما إحدى الكنائس الرومانية على سبيل الفرجة، وأخذ يطوف في أنحائها وينظر إلى بدائعها. فوصل إلى هيكل البتول ووقف يتأمل في التمثال المنصوب فوقه وكان تمام الشبه بالصورة المطبوعة على الأيقونة التي يحملها. وما هي لحظة وإذا بذلك التمثال يتحرك والبتول تنزل على عرشها، وتقترب منه، وتبسم له. وينتشر حولها نور ساطع يملأ كل ما حوله ضياء وبهاء.

فانطرح على الأرض مذهولا مذعورا. وشعر كأن كل جوارحه قد تغيرت وتبدلت، وكأنه قد صار إنسانا ثانيا، وشعر بقوة لا تعاند تجتذب عقله وقلبه إلى الديانة المسيحية. فآمن ووعد البتول مريم بأن تنتصر، ويعتنق ديانة أبنه الحبيب.

وقام لساعته وذهب إلى بيت صديقه وباح لهم بسره وعزمه. فظنوه في بداية الأمر يمازح ويضحك. ولكنه أكد لهم ذلك، وقص عليهم ما حدث له وما رأى، وكيف رمقته البتول بعينها وظهرت له. فطربوا لذلك وهنئوا وكانت الشابة غبنتهم أكثر الجميع غبطة وحماسة وتهليلا. وما لبث أن أتم ما وعد الله والبتول به. فتعلم أمور الدين المسيحي وأعتمد وأصبح مسيحيا مؤمنا.

وكتب إلى خطيبته فأعلمها بما جرى وطلب غليها أن توافقه على ما عمل وتتبعه. لكنها رفضت ن فتركا بعضهما.

فلما صفا له الجور وتحرر من قيود الخطوبة والزواج دخل أحد الأديار، وتعلم الدروس اللاهوتية، وصار كاهنا. ثم أسس رهبانية للرجال وأخرى للنساء لأجل العناية بالأحداث ولا سيما اليهود منهم.

أما النسائية فهي رهبانية راهبات صهيون les dames de sion ولهن دير ومدرسة في مدينة القدس في المقام الذي قدم فيه الوالي بيلاطس يسوع مكللا بالشوك ومخضبا بالدم لجموع اليهود الصاخبين وقال لهم : هوذا الرجل: ecce homo.

ورهبانية الرجال تدعى رهبانية مار بطرس ولهم أيضا دير عظيم ومدرسة للأيتام على شرفة عالية من ضواحي القدس.

عظمة الخالق

(ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت).[1]

أن عظمة الخالق تتجلى في كل ذرة، وفي كل ظاهرة، وفي كل موجود من هذا الكون. غلا تظهر بنوع أروع، نقف أمامه حيارى وقد أخذتنا الدهشة الانذهال أمام النجوم والكواكب التي تتلألأ فوق رؤوسنا، مما نراه بأعيننا في سماء صافية، ومما لا نراه بالمناظرات العظيمة المعلقة في قباب المراصد الفلكية.

أن الإنسان لا يستطيع أن يرى بالعين المجردة أكثر من ستة ألاف نجم إذا كان جو الليل غاية في الصفاء. أما في رحاب الفضاء فغن علم الفلك يقول بوجود ملايين من المجموعات الكونية التي هي على شاكلة مجموعتنا الشمسية، بل تفوقها عظمة بشموسها وكواكبها وسيارتها ونظام دورانها.

إن الضوء يسير بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ومع ذلك فإنه يوجد مجموعات شمسية تبعد عنا ٣٠ ألف سنة ضوئية تقريبا.

حدثنا الرحالة موريس ماركي[1]، أنه صعد إلى المرصد القائم على جبل ولسون في كاليفورنيا، قال: وجدت في هذا المرصد أكبر منظار في العالم وأنك لترى من أنبوبة هذا المنظار الجبار ألف مليون نجم. وكان يرافقني في مشاهدتي أحد علماء المرصد. فحرك الأنبوب الكبير الذي يحمل المرآة العظيمة فرأيت سديما هائلا يشبه مجموعتنا الشمسية، وقد صدر عن شمسه ضوء منذ مليون سنة، وهو لا يزال يقطع الفضاء ولم يصل بعد إلى أرضنا رغم سرعة الضوء الهائلة.

وفي الفضاء سدم لا تحصى على شاكلة هذا السديم، بل قل ملايين من الأكوان، وأكثرها أضخم من كوننا، ومنها ما يسير بسرعة ألاف ميل في الثانية، ويبلغ قطرها مئتي مليون ميل بل أكثر، أي أن قطرها يفوق بعد الشمس عن الأرض ضعفين ويزيد.

وأدار الأنبوب مرة أخرى فإذا في زجاجته ضوء طائفة جميلة من الدقائق الصغيرة تتلألأ كأنها مئات من حجارة ماس منشورة على بساط من المخمل الأسود. فقال العالم الفلكي: هذا عنقود النجم الكبير وهو يبعد عنا ثلاثين ألف سنة ضوئية تقريبا.

وفي المرصد خمسة أو ستة من العلماء ينفقون حياتهم كلها في دراسة الشمس. ويظهر أن البقع التي على سطحها تزيد وتنقص وتذهب وتعود بانتظام فتحدث في حو الأرض اضطرابات كهربائية مغنطيسية عنيفة فتضطرب أمواج الراديو وأسلاك البرق وتؤثر في حالة الجو . ولقد يتمكن العلماء في المستقبل القريب من معرفة حالة الجو فبل وقوعها بكثير، من دراسة نشاط البقع الشمسية.

---

[1] مزمور ١٠٣.

[1] مجلة (المختار) عدد أيلول ١٩٤٧/ص٥-٩.

وأدار العالم المنظار فرأيت خوخة عظيمة ذهبية كدت ألمسها بيدي. فقال: هذه هي الزهرة أقرب الكواكب السيارة إلى الأرض، وجوها يشبه جوها، وربما شاعت فيها الحياة كما في الأرض.

ثم نظرت فرأيت أروع المشاهد: رأيت زحل، زحل البرتقالية اللون مع حلقاتها الثلاث المحيطة بها، وهي كالعروس المزينة السابحة في الفضاء تزهو بحسنها ولمعانها وأسوارها وحلاها.

ثم قلت للعالم رفيقي: هل لي أن أرى (يد الجوزاء)؟ فضبط المنظار ووجد النجم فإذا هو مليون شمس في شمس واحدة، أو هو غبار من الشموس، ففهمت إذ ذاك ما قاله العالم جينز: إن عدد النجوم يساوي عدد الرمال التي على شاطئ البحور.

فلما هبطت من قمة الجبل بدت في المدينة أصغر شأنا وأقل وقعا في النفس. وأحسست أن مركبات التزام ودور السينما والمباني الشاهقة ليست سوى ألعاب أطفال. وشعرت بالضعة تملأ نفسي من بعد نظري إلى تلك الإجرام الهائلة الهادرة في رحاب الفضاء وهي تنطق بعظمة رب السماء.

(السماوات تذيع مجد الله، والفلك يخبر بأعمال يديه).

الفصل الثاني
في فضيلة الرجاء

١.بيانها: الرجاء هو فضيلة إلهية بها نصبو إلى التمتع بالله لكونه هو تعالى سعادتنا الكاملة، مع الأمل الوطيد بان نحظى بهذه السعادة الأبدية وبأن ننال النعم الكافية التي توصلنا إليها، وذلك اعتمادا منا على حنان الله وقدرته تعالى ومواعيده الإلهية.

فالرجاء المسيحي هو حقا فضيلة إلهية، لأننا به نريد الله ونرغب في التمتع به في ملكوته، ونأمل من رحمته ما وعدنا به من النعم لنصل إلى هذه الغاية الشريفة الفائقة الطبيعية التي دعانا إليها.

إن الرجاء هو من الأميال النفسية، وهو أيضا عاطفة إنسانية، لأننا به نصبوا إلى ما نراه خيرا لنا، ونرغب في الحصول عليه، ونقتحم ما يعترضنا من المصاعب طمعا بالوصول إليه، مع الأمل بأننا سوف نفوز به. وهذه العاطفة وهذه الرغبة هي تدفعه في مختلف الاتجاهات في حياته، سواء كان ملكا جالسا على عرشه، أو لاحا مكبا على محراثه.فإن ما يؤمله الإنسان من الخير، أو ما يظنه الخير،يحمله على بذل كل ما لديه من فكر وقوة وصحة ووقت في سبيل الوصول إليه، فيتجشم لأجله المصاعب، ويتحمل الشدائد، ويجاهد ويخاطر ويسهر ويسافر ، غير مبال بما يناله من تعب أو نصب ليصل إلى ما يطمع بالحصول عليه، والتمتع به.

والرجاء المسيحي يحمل على مثل هذا بعينه. لأن الإنسان المسيحي الحقيقي يعلم بالإيمان أن خيره الأسمى هو الله، وأن سعادته القصوى الحقة هي التمتع به في ملكوته. لذلك فهو ينكر كل شئ من نعيم هذه الدنيا، ويعاف كل سعادة زمنية، في سبيل الحصول على السعادة الإلهية الأبدية. وإذ يرى المصاعب تعترضه في طريقه، وقواه الذاتية دون أن تمكنه من الوصول إلى ما يشتهيه، يعمد إلى الصلاة، ويتوسل إلى الله الذي دعاه إلى هذه السعادة السماوية ووعده بها لا يبخل عليه بما يقوده ويوصله إليها. فقوام الرجاء المسيحي هذا هو الأمل، الأمل بالنعيم السماوي وبالوسائل الإلهية الفائقة الطبيعية التي تمكن من الوصول إليه.

كيف تقدس فضيلة الرجاء نفوسنا. أن فضيلة الرجاء تقدس نفوسنا بأنواع ثلاث:

أولا: بأن تنزهنا عن الأرضيات، وتجعلنا ننظر الله ونصبوا إلى السماوات.

ثانيا: بأن تحملنا علة أن نبتهل إليه تعالى بحرارة ومحبة وثقة لكي يجود علينا بالنعيم الأبدي في الحياة الأخرى، وبالنعم التي توصل إليه في هذه الحياة الدنيا.

ثالثا: بأن تدعونا إلى ممارسة الفضائل المسيحية رغبوا منا في الحصول على سعادة الملكوت الأبدية.

أن الإنسان ميال بطبيعته إلى السعادة، وهو مدفوع بفطرته إلى طلبها. لذلك يجد في إثرها، ويظل يغذي آماله في الحصول عليها مهما كلفة الأمر للظفر بها من مشقة وعناء، وطول الوقت، وبعد مسافة، وأسهار وأسفار. ولما كانت الدنيا هي التي تبدو أمام عينيه بنعيمها وخيراتها، وملذاتها وجاهها كريائها، فإن طبيعته الضعيفة تندفع نحوها اندفاعا، أملا منها بالظفر بها والتمتع بغبطتها. وهنا يبدأ الصراع في قلب الإنسان مابين طلبه لسعادة السماء وطلب سعادة الأرض. فتتنزل فضيلة الرجاء إلى الميدان وتعمل عملها، فتريه على ضوء الإيمان أنه شتان ما بين السعادتين، وان سعادة السماء هي

الصحيحة الدائمة الأبدية، وأن سعادة الأرض هي الحقيرة الوقتية الزائلة، وأن الله وحده هو الذي يمكنه أن يشبع نفوسنا ويروي غليل قلوبنا. وما أصدق ما قال في ذلك إمام فلاسفة النصرانية القديس أغسطينوس: (أنك أيها الرب الإله خلقت قلوبنا لأجلك، لذلك هي تبقى حائرة إلى أن ترتاح بك). أما خيرات الدنيا فإنها مهما كثرت ومهما كملت تبقى ناقصة، ولا يمكنها أن تشبع نهم قلوبنا. ولذتها ممزوجة أبغ بشئ من المرارة، وهي إن دامت يوما فلا تدوم كل يوم. من هو الإنسان الذي يستطيع أن يقول أنه سعد في هذه الدنيا، وأنه شبع حقا من نعيمها. وما أوقع في النفس ما كتبته في ذلك القديس يوحنا الدمشقي إذ يقول(أي نعيم في الدنيا يستمر خالصا من الحزن، أو أي مجد يثبت على الأرض من غي تحول. جميع ما فوقها أوهى من ظل، جميعه اخدع من منام. وما هي ألا لحظة واحدة حتى تصبح هذه الموجودات في قبضة الموت).[1]

وقد قال الشاعر:

لكـــل شـــيء إذا مـــا تم نقصـــان فـــلا يغـــر بطيـــب العـــيش إنســـان

هـــي الأمـــور كمـــا شـــاهدتها دول مـــن ســـه زمـــن ســـاءته أزمـــان

وهـــذه الـــدنيا لاتبقـــى علـــى أحـــد ولا يـــدوم علـــى حـــال لهـــا شـــأن

فالرجاء المسيحي يزدري الإنسان الأرضيات ويصبو إلى السماويات، ويتوق إلى الإتحاد بالرب إلى الأبد، وبذلك يتقدم في الفضيلة والنعمة ويتقدس.

أن الفضيلة الرجاء تقدس أيضا نفوسنا لأنها تحملنا على الصلاة الحارة وعلى الابتهال المواصل إلى الرب لكي يمنحنا النعم التي توصلنا إلى ملكوته والتمتع به. فيسارع الرب معونتنا، ويفيض نعمه على قلوبنا، فتنتعش أفئدتنا وتتقدس نفوسنا.

وهذا ما جعل الكتاب المقدس يدعونا إلى لرجاء بمراحم الله ومعوناته في كل صفحة من صفحاته:

(أنظروا إلى الأجيال القديمة وتأملوا هل توكل إلى الرب فخزي، أو يثبت مخافته فخذل، أو دعاه فأهمل. فإن الرب رءوف رحيم يغفر الخطايا ويخلص في يوم الضيق)[1].

والإنجيل يفيض بكلام الرب اليسوع داعيا البشرية جمعاء إلى الرجاء: (الحق أقول لكم أن كل ما تسألون الأب باسمي يعطيكم)[2]. وأيضا: (أي إنسان منكم يسأله أبنه خبزا فيعطيه حجرا، أو إذا سأله سمكة يعطيه حية، فإذا كنتم أنتم ألأشرار تعرفون أن تمنحوا العطايا الصالحة لأبنائكم فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله)[3].

---

[1] من صلوات الجناز.
[1] سيراخ ٢: ١١و١٢.
[2] يوحنا١٦: ٢٨.
[3] متى ٧: ٩-١١.

أن رجاءنا بالله وبتصديق مواعيده وبفائق قدرته يسره تعالى أيما سرور، ويبعثه على إفاضة أنواره وهباته علينا بلا حساب. أليس أنه هكذا عمل مع الأعمى في أريحا، ومع البرص العشرة، ومع نازفة الدم، ومع رئيس المجمع، ومع قائد بالمئة، وغيرهم وغيرهم.

الرجاء يقدس أيضا نفوسنا لأنه يحملنا على مباشرة أعمال كثيرة في سبيل الحصول على سعادة الملكوت. لان رغبتنا في الله وفي التمتع به مدى الأبدية تجعلنا نبذل الجهود الصادقة في هذا السبيل مدى الحياة، ونقتحم المصاعب الشديدة، طمعا في الوصول إلى هذه السعادة الخالدة. لأننا أذا ما عرفنا بالإيمان عظم النعيم الذي وعدنا الرب به، ومقداره ودوامه، لا نتردد في بذل كل غال ورخيص في سبيل الحصول عليه. فال الرب:(يشبه ملكوت السماوات رجلا تاجرا يطلب لألي حسنة، فوجد لؤلؤة كثيرة الثمن فمضى وباع كل ماله واشتراها)[٤]. وهكذا لا يكون المسيحي في طلب الآخرة أقل جرأة إقداما وجهودا من أولئك الذين في سبيل خيرات أرضية وسعادة وهمية زمنية لا يهابون المصاعب، ولا يهربون أمام المشقات والأخطار والاسهار، والأسفار، سعيا وراء مال أو جاه أو وظيفة أو علم أو عشق أو صحة.(وكل من يجاهد يمسك نفسه عن كل شيء. أما أولئك فينالوا إكليلا يفنى، وأما نحن فإكليلا لا يفنى)[١].

كيف يمارسون المسيحيون فضيلة الرجاء_ أننا نثبت قلوبنا في الرجاء ونقوي نفوسنا فيه بتألمنا بمواعيد الرب، وبما كتبه الرسل والآباء القديسون عنه. فما أبدع ما قاله بولس الرسول: (إذا كان الله معنا فمن علينا، الذي يشفق على أبنه بل أسلمه عن جميعنا كيف لا يهبنا أيضا معه في كل شي. من يشكو مختاري الله ، الله هو المبرر. فمن يقضي علينا، المسيح هو الذي مات بل قام أيضا وهو عن يمين الله وهو يشفع أيضا فينا. فمن يفصلنا عن محبة المسيح، أشدة أم ضيق أم جوع أم عري أم خطر اضطهاد أم سيف)[٢].

وما ادعى إلى الرجاء ما قاله الرب في ليلة مبارحته هذه الدنيا:(لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي أيضا. إن في بيت أبي منازل كثيرة وإلا ألقت لكم فإني منطلق لأعد لكم مكان آتي وآخذكم لتكونوا أنتم حيث أكون أنا... فكل ما تسألوني ألآب لتكونوا أنتم حيث أكون أنا ... فكل ما تسألون الأب باسمي فأنا أفعله ليتمجد الأب في الابن.. كما أحبني الأب كذلك أنا أحببتكم ... سميتكم أحبائي لأني أعلمتكم بكل ما سمعت من أبي... الحق الحق أقول لكم إن كل ما تسألون الأب باسمي يعطيكموه)[٣].

إلا أن الله لا يريد أن يخلصنا وأن يوصلنا إلى سعادة الملكوت بدوننا وبدون جهودنا وعملنا: (فإنا نحن عاملون مع الله[٤]. لا ريب في أن الله هو أصل كل خير، وأنه هو المفيض لكل نعمة، وإننا بدونه لا نقدر أن نعمل شيئا. ولكن لا بد لنا من مشاركته في عمل خلاصنا بمحض إرادتنا وتمام حريتنا وصدق جهودنا. وفي هذا قال بولس الرسول:

(لكني بنعمة الله صرت على ما أنا عليه. ونعمته التي في لم تكن باطلة بل تعبت أكثر من جميعهم. ولكن لا أن بل نعمة الله معي)[٥].

---

[٤] متى ١٣: ٤٥-٤٧.
[١] ١ كور ٩: ٢٥.
[٢] رومية ٨: ٣١-٣٥.
[٣] يوحنا ١: ١٤-٣و ١٥،١٣: ٩و١٥: ٢٣.
[٤] ١ كورنيش ٣: ٩.
[٥] ١ كورنيش ١٥: ١٠.

وأيضا(ربما أنا معاونون نسألكم أن لا يكون قبولكم نعمة الله في الباطل ... بل نظهر في كل شئ أنفسنا كخدام الله في الصبر الكثير والمضايق والضرورات والمشقات)[٦].

وكتب أيضا إلى تلميذة تيموتاوس:(أحتمل المشقات كجندي صالح للمسيح يسوع)[٧].

والقديس بطرس يعلم بوضوح تام ويقول:(أيها الأخوة اجتهدوا بالأحرى أن تجعلوا دعوتكم وانتخابكم ثابتين بالأعمال الصالحة)[١].

لأجل ذلك فإن المبتدئين من الحياة الروحية يمارسون فضيلة الرجاء أولا بحذرهم من الطمع برحمة الله ومن اليأس أيضا من رحمته تعالى.

فالطمع برحمة الله يحمل بعض الناس على الاتكال على مراحم الله اتكالا أثيما. فإنهم يهملون حفظ الوصايا، ويذهبون وراء الدنيا، وينسون واجبات العبادة، ويقولون أن الله رحيم غفور، فيصفح عنهم ولا يهلكهم. أو أنهم يتكلون على قوتهم وتقواهم فيتعرضون للمخاطر، ولا يكترثون لها، وينسون أن من تعرض للخطر وقع فيه، أليس هذا كلام الرب: (أسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة)[٢]، والرسول بولس يوصي أيضا: أعملوا لخلاصكم بخوف ورعدة)[٣].

أما اليأس من رحمة أللّه فهو مرض في النفوس الموسوسة والقلوب الضعيفة التي أما لكثرة سقوطها من الخطايا، أو لأجل شدة واستمرار تجاربها، أو بسماح من الباري لأجل افتقادها وتبريرها، أو بسبب الإرشادات الضيقة التي تسمعها، تضطرب وتتبلبل وتقطع رجاءها من خلاصها. ومنهلا من ترمي حينئذ سلاحها، وتستسلم لأهوائها، وتنغمس في معاصيها ظنا منها أنها تسكت بذلك صوت ضميرها الذي يعذبها. فاليأس هو أخطر تجربة يهاجمنا الشيطان بها ليهدم أساس الحياة الروحية في نفوسنا. فعلينا أن نطالع الأناجيل المقدسة ورسائل القديس بولس وكتب المعلمين الروحيين، فهي تنعش فينا روح التقوى والنشاط والرجاء: (كونوا أنتم أيضا متسعين)، يقول القديس بولس[٤]. فبعد أن يكون المبتدئون في الحياة الروحية قد أخذوا حذرهم من هذه النقائض، وتحرروا من شرها، فلكي يقووا فيهم فضيلة الرجاء ويتقدسوا بها، لا بد لهم من أن يمرنوا ذواتهم بواسطة التأمل والصلاة على الزهد بالدنيا وكبح جماحهم عن السعي وراء خيراتها ونعيمها، لكي تصبوا قلوبهم إلى السعادة السماوية والخيرات الأبدية : (إذن إن كنتم قد قمتم مع المسيح جالس عن يمين الله. أفطنوا لما هو فرق لا لما هو على الأرض)[٥].

أما المعتقدون في الحياة الروحية فإنهم يمارسون ليس أفعال الرجاء فحسب بل تكون لهم بالله ثقة بنوية يغذونها في قلوبهم يتأملهم على مواعظ ومواعيد وأفعال السيد المسيح. فيون أن يسوع تألم ومات على خشبة لكي يفتدينا وينال لنا من أبيه السماوي غفران خطايانا، ويفتح أبواب الملكوت أمامنا، وأنه ترك لنا جسده ودمه قوتا وهناء لنفوسنا وقلوبنا، وأنه هو رأسنا ورئيسنا وأخونا وصديقنا، وأننا بنعمته التي وعدنا بها ننتصر على أعداء خلاصنا، وأن محبته التي أحبنا بها لا حد لها.(وكذلك الروح أيضا يعضد ضعفنا. فإنا لا نعلم ماذا يصلي نصلي كما ينبغي. ولكن الروح نفسه يشفع بأنات لا

---

[٦] ٢ كورنيش ٦: ١و٤.
[٧] ٢ تيمو تاوس ٢: ٣.
[١] ٢ بطرس ١: ١٠.
[٢] مرقس ١٤: ٣٨.
[٣] فيلبي ٢: ١٢.
[٤] ٢ كورنيش ٦: ١٣.
[٥] كولسي ٣: ١و٢.

توصف... ونحن نعلم أن الذين يحبون الله كل شئ يعاونهم للخير... فإن الذين سبق فعرفهم سبق فحدد أن يكونوا مشابهين لصورة غبنه حتى يكون بكرا ما بين أخوة كثيرين)[1]. لأجل ذلك فإننا نرجو معونة الله ونعمه وتحقيق مواعيده بعاطفة بنوية وقلب مطمئن مهما اشتدت وطأة المعاكسات، وثارت في وجهنا زوابع الشدائد. لأننا نعلم أن الله هو معنا، يرثي لضعفنا، ويشد إزرنا، ويصر بانتصارنا على الشدائد، لأننا نعلم أن الله هو معنا، يرثي لضعفنا، ويشد إزرنا، ويسر بانتصارنا على شدائدنا، ويحفظ لنا في السماوات كنوزنا وأجورنا. فهل من باعث لنا على الثقة بالله أقوى من كلام الرب في الإنجيل:(أي إنسان منكم يسأله أبنه خبزا فيعطيه حجرا)[2].

والقديس منصور دي بول كان يقول لرهبانه: (حينما تثور الأرض كلها علينا لتهلكنا فلا يمكن أن ينالنا منها ألا ما يسمح به الله الذي وضعنا عليه اتكالا). وكان إذا ما أصابهم ضرا حلت بهم مصيبة يقول أيضا: أن كل ما يفعله الله، يفعله لأجل الخير خيرنا الأكبر، لذلك يجب أن نضع فيه ثقتنا كلها موقنين بأن هذه المصيبة ستكون لخيرنا لأن الله هو الذي سمح بها)[3].

وهذه الثقة البنوية بالله تحمل النفوس التقية على استمرار اعتصامهم بالله حتى في أيام النجاح والتوفيق وإقبال الدنيا عليها بأنواع الخير والمسرات. لأنها تعلم أن السرور غرور، وأنه أشد خطرا عليها من شدائدها. لأن الراحة والطمأنينة تبعث مرارا على الفتور في العبادة، وعلى نسيان الخيرات الأبدية، وعلى الزهو والكبرياء والاعتداد بالنفس. وما أحق ما قال في هذا المعنى المنسنيور دولست:(عندما تبسم الدنيا لآمالنا الأرضية ورغائنا الزمنية يصعب علينا أن نفلت من عناق المسرات إذ تأتينا وتحل في بيتنا وقلبنا، يصعب علينا أن نقول أن للسعادة المرفرفة فوق رؤوسنا:(أنك لا تكفيني ولا تشبعيني)[4].

فالنفوس التقية لا تنسى أن أفراح هذه الدنيا غرور، وأنها تعيقنا في صعودنا إلى العلى. (باطل الأباطيل كل شئ باطل)[5] ما خلا عبادة الله وخدمته. وكتاب الافتداء بالمسيح يقول : الإقامة بدون يسوع هي جحيم شديدة، والسكنى مع يسوع هي نعيم لذيذ)[6].

والمسيحي التقي الحقيقي لا يحزن ولا ييأس من نقائضه، ولا من هفواته، حتى ولا من ذنوبه، لأنها تكون له سبب تواضع وندامة وثقة أعظم بمراحم الله وحنانه.

(ماذا تظنون؟ إذا كان أحد له مئة خروف، فضل واحد منها، أفلا يترك التسعة والتسعين في الجبال، ويمضي في طلب الضال؟ فإذا وجده، الحق أقول لكم، إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تصل. هكذا ليس من مشيئة أبي الذي الذي في السماوات أن يهلك أحد من هؤلاء الصغار)[1].

(حينئذ دنا إليه بطرس وقال له: يا رب كم مرة يخطأ إلى أخي فأغفر له، إلى سبع مرات؟ فقال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات)[2].

---

[1] رومية ٨ : ٢٦-٢٩.
[2] متى ٧: ٩.
[3] Maynard:vie et doctrine.
[4] mgr. dmhulst: careme 1892.
[5] الجامعة١: ١.
[6] الاقتداء بالمسيح:س٢،ف٨،ع٢.
[1] متى ١٨: ١٢-١٤.
[2] متى ١٨، ٢١و٢٢.

(أقول لكم أنه يكون في السماء فرح بخاطئ واحد يتوب أكثر مما يكون بتسعة وتسعون صديقا لا يحتاجون إلى التوبة)[٣].

وفي هذا المعنى كتب القديس منصور دي بول يقول لرهبانه:(إنكم تذكرون لي نقائصكم، فهل يخلو يا ترى أحد من النقائض في هذه الدنيا؟ أما الشيء المهم فهو أن نعرفها وأن نرضى بما لا تسببه لنا من الإذلال، كما تصنعون أنتم. إنما علينا أن لا نقف أمامها لنتأمل بها إلا لنزداد ثقة بالله بسببها، فنكون حينئذ قد بنينا على الصخر، فلا نخاف من الزوابع)[٤].

أخيرا إن رجاءنا بالله وثقتنا بمراحمه تحملنا على الصلاة الحارة اليومية في طلب الميتة الصالحة: (يا قديسة مريم، يا والدة الله، صلي لأجلنا نحن الخطاة الآن وفي ساعة موتنا). وكم مرة يطلب الكاهن كل يوم من أجله ومن أجل الشعب قائلا:(نهاية حياتنا مسيحية سلامية بلا وجع ويغير خزي، وجوابا حسنا لدى المنير الرهيب من الرب نسأل).

فالصلاة هي مجلبة النعم.: ولا يمكن أن نبتهل إليها إلى الله، ولا سيما بشفاعة ابنه الحبيب ووالدته الطاهرة وملائكته وقديسيه، إلا ويمنحنا بجود ومحبة ما نطلبه، وعلى الأخص هذه النعمة العظيمة، نعمة الخلاص الأبدي والتمتع به في ملكوته على حسب إرادته ودعوته.

حوادث تاريخية

طوبيا البار[٥]

إن سيرة البار وأبنه طوبيا الصغير لهي من أروع الحوادث التاريخية التي تحملنا على الثقة بالله وبرحمته وبصدق مواعيده.

لقد دعي طوبيا بالبار لصالحه وتقواه وتمسكه بشريعة الرب إلهه. كان من الجليل، من مملكة إسرائيل المعادية لمملكة أورشليم. ولما كان الكثيرون من مواطنيه يعبدون عجول الذهب التي أقامها ياربعام وخلفاءه لهم منعا لذهابهم إلى هيكل سليمان، كان طوبيا يتخلف عنهم ويذهب يعبد الله في أورشليم .

ولما سبى الملك شلمنآسر وملك ابنه سنحاريب مكانه. فقام هذا يضطهد اليهود ويذلهم ويقتلهم ويمنع دفنهم لكي تأكل الوحوش أجسامهم. أما طوبيا فكان يطوف كل يوم على مواطنيه وأبناء عشيرته يعزيهم ويؤاسي كل واحد منهم ويساعد الفقير من أمواله على قدر وسعه. فيطعم الجياع ويكسو العراة ويدفن الموتى والقتلى مخاطرا بحياته في سبيل إيمانه.

ورغم هذا كله، أو لأجل هذا، امتحنه الرب ببلوى شديدة. فأفقده بصره.(وإنما إذن الرب أن تعرض له هذه التجربة لتكون لمن بعده قدوة صبره كأيوب الصديق. فإنه إذا كان لا ينفك عن تقوى الله منذ صغره وحافظا لوصاياه، لم يكن يتذمر على الله لما ناله من بلوى العمى. ولكنه ثبت في خوف الله شاكرا له طول أيام حياته. وكما كان القديس أيوب يعيره الملوك كان أنسباء هذا وذووه يسخرون من عيشته قائلين: أين رجاؤك الذي من أجله كنت تبذل الصدقات

---

[٣] لوقا ١٥: ٧.

[٤] Maynard: via et doctrine.

[٥] راجع سفر طوبيا.

وتدفن الموتى. فيزجرهم طوبيا قائلا: لا تتكلموا كذا فإنما نحن بنو القديسين، وإننا ننتظر تلك الحياة التي يهبها الله للذين لا يصرفون إيمانهم عنه أبدا).

ولم يخز الله رجاء طوبيا، فإنه تعالى أرسل ملاكه فرافق أبنه الصغير في الطريق، وسهل له الزواج من سارة بنت رعوئيل وأعاده إلى والديه سالما.وأفاض الخيرات عليه وعلى والده، وأعاد إليه بصره بعد أن بقي أعمى أربع سنوات، ووهبه اثنتين وأربعين ستة حياة من بعد تلك المحنة، وأراه بني حفدته. (وإذا بلغ من تقوى الله غاية حسنة انتقل بسلام).

إن الرجاء بالله لا يخيب

رجاء القديسة تريزيا الطفل اليسوع

تقول القديسة تريزيا الطفل اليسوع في سيرة حياتها

لقد ترتفع نفسي إلى الله بعاطفة الثقة والمحبة، ليس لأنها تنزهت عن الخطيئة المميتة. لأني أشعر في دواخلي باني لو تراكمت فوق رأسي أحمال ثقال من أنواع الخطايا والمآثم، لا أفقد شيئا من ثقتي بالله تعالى ورجائي. بل أقوم وأذهب بقلب منكسر تائب وأرتمي بين يدي يسوع المخلص. لأني أعلم أنه يحب الابن الشاطر. ولقد سمعت ما قاله للمجدلية القديسة، وللمرأة الخاطئة وللسامرية. كلا ثم كلا أنه لا يمكن أن يخاف قلبي لأني أعلم علم اليقين أن هذه المعاصي كلها، مهما تعددت، فإنها تتلاشى كما تتبخر نقطة من الماء في أتون مضطرم...

(آه يا أمي الرئيسة لو أن النفوس الضعيفة الناقصة، كما هي نفسي، تشعر بما أشعر أنا فلقد يستحيل عليها أن تستسلم للقنوط، ولا يمكن أن تخاف أنه يعسر عليها الوصول إلى قمة جبل الحب الإلهي، لعلمها أن يسوع لا يطلب أعمالا فائقة، ل مجد الاتكال عليه والشكر لآلائه).[1]

[1] سيرة حياتها فصل ١١.

الفصل الثالث

في فضيلة المحبة

هي أسمى الفضائل كلها، وأعظمهن مقاما، وأشرفهن عاطفة، وأعذبهن غبطة. ويقول إلى ذلك بولس الرسول:(الذي يثبت الآن هو الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة وأعظمهن المحبة).[٢] وذلك لأن الله محبة)،[٣] ولأن (الحب هو أقوى من الموت).[٤]

فالمحبة هي فضيلة إلهية تجعلنا نحب الله فوق كل شئ محبا له تعالى لأجل جميل صفاه وكمالاته.

الحب هو الاندفاع النفس نحو ما تراه خيرا لها وملائما لأميالها. فهو أساس حياة الإنسان في هذه الدنيا، كما أنه محور الغبطة الإلهية.

والحب في الإنسان، أنواع منوعة.فهو حسي إذا وجد الإنسان هوى نفسه نحو الشئ. مادي محسوس من غير أن يكون له في هذا الهوى عمل إرادة أو رضى. وهذا ما نراه كل يوم في الدنيا من حب الإنسان للإنسان لمجرد النظر إليه، أو سماع رنَّة صوته، من غير أن يكون العقل أو الإرادة شأن في ميله أو رغبته.

ويكون الحب عقلياً أدبياً إذا ما كان الاندفاع نحو الخير المرغوب فيه مؤسساً على العقل الذي يرى ويحكم بحسن هذا الشيء الذي يستحق أن نرغب فيه ونميل إليه. ولا شيء يحول دون أن يكون الحب حسيّاً وعقلياً معاً، وذلك إذا اقترن الميل الطبيعي الفطري بالمنطق العقلي.

ويكون الحب روحياً سماويّاً فائق الطبيعة عندما يكون الإيمان المسيحي مسبّباً إليه. هكذا يكون شأن المسيحي الذي يحب الله لأنه يعرف بالإيمان أنه كلي الكمال، وأنه أحبنا ويحبنا على الدوام، وأنه أعطانا ابنه الوحيد لكي يخلصنا، وأنه أوصانا بمحبة قريبنا حبّاً له تعالى؛ فهذا الحب الناشئ عن الإيمان، والكيّف بالنعمة الإلهية هو الحب المسيحي السماوي الفائق الطبيعة، وهو الذي كُتبت له الأجور السماوية في الحياة الأبدية.

فموضوع الحب المسيحي هو الله أولاً، وهو القريب أيضاً لأجل الله ومحبةً الله. فنحبه تعالى لأجل كمالاته التي لا حد لها؛ ومن هذه الكمالات محبته الفائقة لنا، وعطفه علينا، وجوده معنا. ونحب القريب أيضاً لأجل صفاته ومؤهلاته وأمواله ومحاسنه، ولا لأجل قرابته لنا أو مصلحته معنا، ولا لأجل ما نجد فيه من منفعة ذاتية أو من تحقيق منافع بشرية زمنية، بل لأجل أنه صنيعة الله وخليقته، وابن العلي بالتبني، وأخو المسيح يسوع بالفداء، وهيكل الروح القدس بالنعمة. فالحب المسيحي هو حقاً حبٌّ سماويّ، حبٌّ روحيّ، حبٌّ عقليّ، مجرّدٌ عن المادة والحس والمنفعة والعاطفة.

وسنتكلم عن كل من المحبة نحو الله ومن المحبة نحو القريب في البحثين التاليين.

---

[٢] ١ كور ١٣: ١٣.
[٣] ١ يوحنا ٤: ١٦.
[٤] نشيد ٨: ٦.

البحث الأول

في محبة الله

١. بيانها: إن الموضوع المحبة المسيحية هو الله، وهو الذي يجب علينا أن نحبه فوق كل شيء، وأن نفضله على كل شيء، وأن لا نرغب في شيء سواه إلاّ بإذنه ولأجله.

ولكن لماذا يجب علينا أن نحب الله فوق كل شيء؟ ما هو السبب المنطقي الحقيق لذلك؟ هل يا ترى لأنه هو أمرنا بمحبته؟ أنه لو لم يأمرنا بها، هل كان يسوغ لنا نحب شيئاً سواه أكثر منه؟ هل كان يحقُّ لنا أن نفضّل ذاتنا عليه، أو أن نحبّ خيراً أو لذة أو خليقة مهما كانت سامية أكثر منه؟ إن السبب الأكبر الذي يحملنا على محبة الله، ويلزمنا بذلك إلزاماً، هو كمال الله وجمال الله وبهاء الله.

إن الكمال في كل شيء يسحر العقل ويثير الإعجاب. كمال النفس، وكمال الجسد، وكمال العقل، وكمال الأدب. فلما كان الله هو الكامل الأكبر، "يكونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل"[١]: كامل في جماله، كامل في قدرته، كامل في حنانه، كان لا بد له من أن يستهوي القلوب فتتعشقة. لأن لا جمال يعادل جماله، وليست صفاتُ وكمالاتُ كلِّ ما نراه ونسمع به في هذه الدنيا إلاّ ظلاً ضئيلاً لصفاته وكمالاته. لذلك وجب أن يكون هو الموضوع الأول لمحبتنا ولتفضيلنا إياه على كل ما سواه.

لأجل هذا قال الله: "أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك"[١]. أعني أحبب، أيها الإنسان، ربك وإلهك بكل قواك العقلية والجسدية، ولا ترغب بخليقة سواه في حياتك وفي كل مطلب من مطالبك.

إلاّ أن الحب الذي يطلب منا نحو الله ليس هو الحب العاطفي الحسي الذي نشعر أحياناً بعذوبته، وغالباً ما ينكرنا ويهجر قلوبنا، ويتركنا في صحراء قاحلة لا ندى ينعشها، ولا عاطفة تحلّيها. إنما الحب الحقيقي هو الحب المنطقي، الحب العملي، الحب الصادر عن العقل والإرادة، الحب المؤسس على الإيمان المسيحي، الحب الذي يحملنا على خدمة الله وحفظ وصاياه مهما تقلّبت علينا ظروف الزمان والمكان، ومهما انتابنا من عذوبة أو يبوسة، ومهما أصابنا من نجاح أو إخفاق.

ويشرح القديس فرنسيس السالي هذا التعليم بقوله: "إن محبتنا لله يجب أن تسمو فينا على محبة كل ما هو سواه. ويجب أن تكّيف أميالنا. إن الله يريد منا أن يفوق حبنا له كل حب فينا لسواه. وأن يكون هذا الحب مخلصاً عطوفاً، وأن يأخذ بمجامع قلبنا، وأن يمتلك علينا مشاعر نفسنا. يجب أن يكون هذا الحب عامّاً فيشمل كل قوانا. وأن يكون سامياً فيملأ عقلنا، وأن يكون كامل الثبات فيلزمنا للقيام به أن نبذل كل ما فينا من جهود وقوى". ثم يختم القديس بهذه الصلاة البديعة: "أنا لك يا إلهي. ويجب عليّ أن لا أكون إلا لك وحدك. نفسي هي لك ويلزمها أن لا تحيا إلاّ لأجلك. إرادتي هي لك والواجب يقضي أن لا تحب شيئاً وأن لا ترغب في شيء إلاّ لأجلك. أن حبي لنفسي هو ملك لك ويلزم أن لا يصبوا إلاَّ إليك. نعم إنه لَفَض عليَّ أن أحبك لأنك أنت سبب وجودي ومنك خرجت. واجب عليّ أن أحبك لأنك

[١] متى، ٥: ٤٨.
[١] تثنية، ٦: ٥.

أنت غايتي وراحتي، ومنك أتيت. واجب عليّ أن أحبك أكثر من حبي لكياني، لأن كياني نفسخ لا قوام له إلاّ بك. واجب عليّ أن أحبك أكثر من حبي لذاتي لأن كل ما فيَّ هو ملك لك، ولأن حياتي هي منك"[٢].

فموضوع المحبة إذاً هو الله، الله فوق كل شيء، وكل شيء لجل الله. ولكن لما كان عقلنا ضعيفاً لفهم كمالاتِه تعالى، وقلبنا فاتراً لشغف بجماله، وحواسنا الجسدية تغالب قوانا العقلية فيعسر علينا مراراً أن نتذوق حلاوة بدائِعه، فإنَّ نَظَرنا إلى حنانه نحونا، وتأمّلنا بإحساسنا إلينا يغذّي حبّنا له ويُثبّت تعلقنا به. فنحبه لجل إحسانِه ورحمته وتعطفه وتنازله. إلاّ أن هذه الصفات الإلهية التي نجد فيها منفعتنا يجب أن لا تكون الباعث الأكبر لنا على حبنا له وتفضيلنا إياه على ما سواه. بل علينا أن نملأ عقلنا من كمالاته، وقلبنا من بديع صفاته لكي لا ننعم إلا به، ونزدري كل ما سواه لأجله. وليس في هذا شيء من الغرابة. أَليس أنه يهوى من يجودون بأموالهم أو بأتعابهم أو بأوقاتهم في سبيل المسكن والفقير والبائس واليتيم، ولو لم ينلنا نحن من هؤلاء شيئاً لمنفعتنا ومصلحتنا؟

ولكن هل يكون الشكر على الإحسان يا ترى محبة كاملة خالصة منزهة عن الغاية؟ – نعم، ولا: فإذا كان شكرنا ناشئاً عن فرحنا بالإحسان تكون محبتنا ناقصة. أما إذا كان الشكر ثمرة الفرح بجود الله وحنانه ورحمته وقدرته فالشكر يكون حقّاً محبة كاملة.

إن عاطفة الشكر تحمل عادة على المحبة الكاملة لأنها عاطفة شريفة سامية، ولا تنبت إلاّ في القلوب الكبيرة المؤسسة على التواضع وعلى العاطفة الصادقة المخلصة. لذلك نرى الكتاب المقدس والآباء القديسين لا يفتأون يذكّروننا بمراحم الله وإحساناته نحونا ليُذكوا فينا عاطفة الشكر والمحبة نحو هذا المحسن الأكبر والجوّاد العظم. ولقد بلغت بعض النفوس التقية ذروة كمال المحبة بتأملها الدائم بإحسانات الله نحو البشرية ونحوها، وبكل ما فعله الرب يسوع في سبيلنا بتجسده وصليبه وقربانه وسائر الأسرار التي رسمها لجل تقديسنا وتشريفنا وإسعادنا.

وما أبدع ما جاء في كتاب الاقتداء بالمسيح[١] في موضوع تعلق النفس بالرب يسوع:

" يا نفسي استريحي دائماً في الرب فوق كل شيء وفي كل شيء لأنه هو راحة القديسين الحقيقية. هبني يا يسوع المحبوب في الغاية أن أستريح فيك فوق كل خليقة: فوق كل عاطفة وجمال، فوق كل مجد وكرامة، فوق كل فرح وبهجة، فوق كل صيت ومديح، فوق كل عذوبة وسوان، فوق كل رجاء وموعد، فوق كل استحقاق وبغية، فوق كل المواهب والعطايا التي تستطيع أنت أن تمنحها وتفيضها، فوق كل سرور وتهلُّل يمكن أن يدركه العقل ويشعر به. أخيراً فوق الملائكة ورؤساء الملائكة، وفوق جميع جنود السماء. فوق كل ما يرى وما لا يرى. وفوق كل ما ليس هو إياك يا إلهي".

"لأنك يا ربي وإلهي أنت وحدك الصالح فوق كل شيء. أنت وحدك العلي. أنت وحدك القدير. أنت وحدك الغني عن كل من سواك والواسع الجوّاد. أنت وحدك الكلي العذوبة والسلوان. أنت وحدك ذو الجمال والحب. أنت وحدك المتعالي في الشرف والمتسامي في العزة والجلال. وفيك مجموع الخيرات وكمالها، وهذا ما كان منذ الأزل وسكون إلى الأبد".

---

[٢] Traité de l'amour de Dieu, L, X, ch. VI.

[١] السفر٣، الفصل ٢١.

٢ كيف تقدس فضيلة المحبة نفوسنا: إن فضيلة المحبة هي أجمل الفضائل كلها وأكثرها عملاً في تقديس نفوسنا. فبها الكمال المسيحي كله، لأننا بها نمارس أفعال الفضائل كلها. هذا ما أوضحه الرب في جوابه لأحد علماء الناموس لما قام مجرباً له قائلاً: "يا معلم ماذا أعمل لأَرث الحياة الأبدية؟ فقال له: ماذا كتب في الناموس وكيف تقرأ؟ فأجاب وقال: أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك وكل ذهنك وقريبك كنفسك. فقال له بالصواب أجبت؛ اعمل هذا فتحيا"[٢]. ولقد جاء في إنجيل متّى أيضاً أن الناموس كله، أعني الوصايا كلها نقوم في محبة الله ومحبة القريب: "فسأله واحد من علماء الناموس مجرباً له: يا معلم ما أعظم الوصايا في الناموس. قال له يسوع: أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك. هذه هي الوصية العظمى والأولى. والثانية التي تشبهها: أحبب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء"[١].

والقديس بولس يقول: "فإن من أحب القريب فقد أتم الناموس. لأن هذه الوصايا: لا تزنِ لا تقتل لا تسرق لا تشهد بالزور لا تشتهِ، وما كان من الوصايا غير ذلك، إنما هي متضمنة في هذه الكلمة أن أحبب قريبك كنفسك. إن المحبة لا تصنع شرّاً بالقريب فالمحبة إذاً هي الناموس بتمامه"[٢].

وما أبدع ما كتب القديس يوحنا الحبيب، رسول المحبة، عن طبيعة ومفاعيل هذه الفضيلة الإلهية السامية: "أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً فإن المحبة من الله. فكل من يحب فهو مولود من الله وعارف به. ومن لا يحب فإنه لا يعرف الله لأن الله محبة. بهذا تتبين محبة الله لنا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لنحيا به. وإنما الحبة في هذا أننا لم نكن نحن أحببنا الله بل هو أحبنا فأرسل أبنه كفارة عن خطايانا. أيها الأحباء إن كان الله قد أحبّنا هكذا فعلينا نحن أيضاً أن نحب بعضنا بعضاً"[٣]. ثم يوضح الرسول معنى كلامه بأجلى بيان فيقول: "فلنحب الله نحن إذ قد أحبنا هو أولاً. إن قال أحد إني أحب الله وهو مبغض لأخيه فهو كاذب، لأن كم لا يحب أخاه الذي يراه كيف يستطيع أن يحب الله الذي لا يراه"[٤]. ثم أيضاً: "فهذا نعلم أنّا نحب أبناء الله بأن نكون محبين لله وعاملين بوصاياه لأن هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه. ووصاياه ليست بثقيلة"[٥]. وأيضاً: "الله محبة. فمن ثبت في المحبة فقد ثبت في الله والله فيه"[٦].

فكلام الرسول يوحنا يدور كله حول كلام السيد المسيح الذي يعلم أن محبة الله تتم في حفظ الوصايا وفي محبة القريب. وبهذا يقوم الناموس كله، كما يقول رب المجد، وبهذا قيام الفضائل كلها أيضاً.

فالمحبة هي إما الفضائل كلها وخلاصتها. فهي الأولى والأسمى والأفعل في تقديس نفوسنا.

وليس الكتاب وحده يعلمنا ذلك، بل المنطق العقلي أيضاً. أليس أنه لا شيء أفضل من الحب؟ أليس إن الله نفسه هو محبة؟ ومن شأن الحب أن يوحّد العقول والقلوب بين المتحاربين. فتصبح أفكارهم واحدة، ورغباتهم واحدة، ونزعاتهم واحدة، وإراداتهم واحدة. فمحبتنا لله تجعلنا أيضاً نتحد به فيصبح فكره فكرنا، وإرادته إرادتنا، وأحكامه نوراً لنفوسنا، وإنجيله وتعاليم كنيسته دستوراً لحياتنا وبهجة لقلوبنا وقوةً لأَعمالنا: ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك. فالمحبة هي إذن ملكة الفضائل كلها لأنه ليس من فضيلة تجعل اتحادنا بالله كاملاً نظيرها.

---

[٢] لوقا، ١٠: ٢٥ – ٢٨.
[١] متّى، ٢٢: ٣٥ – ٤٠.
[٢] رومية، ١٣: ٨ – ١٠.
[٣] ١ يوحنا، ٤: ٧ – ١١.
[٤] ١ يوحنا، ٤: ١٩.
[٥] ١ يوحنا، ٥: ٢ – ٣.
[٦] ١ يوحنا، ٤: ١٦.

ونعيد القول ثانية أن هذه المحبة ليست هي المحبة العاطفية الحسية، تلك التي تحضر وتغيب ولا قرار لها في قلوبنا. بل هي المحبة القائمة بحفظ الوصايا بأمانة وثبات وصبر وشجاعة.

وما محبة القريب الحقة سوى ثمرة محبتنا الصحيحة لله. لأن محبتنا للقريب، وخدمتنا له، ومساعدتنا لضعفه، واحترامنا لشخصه ولعائلته ولماله، لا يكون لجل صفاته أو مؤهلاته أو لأجل علاقته بنا، أو لما نجد فيه من منفعه لنا؛ بل يكون ذلك لأجل الله ومحبته له تعالى وعملاً بأوامره. وهكذا تكون محبتنا للقريب مظهراً من مظاهر محبتنا لله. فتعلو وتسمو على سائر الفضائل وتعمل أكثر منها على تقديس نفوسنا.

وهذا ما حمل بولس الرسول على كتابه ذلك الفصل الشائق في رسالته إلى أهل كورنثس، وكله فلسفة وكله شعر فياض وعاطفة رائعة، إذ يقول:

"لو كنت أنطق بالسنة الناس والملائكة ولم تكن فيّ المحبة، فإنما أنا نحاس يطنّ أو ضج يرنّ. ولو كانت أعلم جميع الأسرار والعلم كله، ولو كان لي الإيمان كله حتى انقل الجبال، ولم تكن فيّ المحبة، فلست بشيء. ولو بذلت جميع أموالي لإطعام المساكين وأسلمت جسدي لأُحرق، ولم تكن فيّ المحبة، فلا انتفع شيئاً. المحبة تتأنى وترفق. المحبة لا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ ولا تأتي قباحةً ولا تلتمس ما هو لها ولا تحتدّ ولا تظن السوء ولا تفرح بالظلم، بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء. المحبة لا تسقط أبداً"[1].

وأن ما لفضيلة الحبة من نتائج رائعة يساعدنا كثيراً على زيادة النعمة والقداسة في نفوسنا.

فالمحبة لا توحّد القلوب فقط، بل تجعل بينها شعوراً متبادلاً من التفاهم والتقارب والارتباط، بحيث أن الصديق بشعر شعوراً داخلياً بما يجول في قلب صديقه من عاطفة أو ميل أو رغبة. لذلك نرى في حياة القديسين بعضاً منهم كان يجهل العلوم البشرية ولكن يعرف إلى أحد بعيد أسرار العلوم الروحية وطريقة إرشاد النفوس إليها. هكذا كان كاهن قرية ارس القديس يوحنا ماري فياني؛ وهكذا كان الكثيرون من القديسين الرهبان والنساك. لأن محبتهم لله، وتعلّقهم به تعالى، واتحاد أفكارهم بأفكاره وعواطفهم بعواطفه قد علمتهم ما لا تستطيع الأساتذه والمدارس أن تفهمهم إياه. إن التأمل اليومي أمام الصليب لهو من أرفع أسمى الدروس الدينية والاجتماعية. "شتان ما بين حكمة الرجل العابد المستنير وبين علم الاكليريكي الفقيه المكب على الدرس والمطالعة: فإن العلم الصادر من فوق من لدن الفيض الإلهي هو أفضل من المكتسب بجهد العقل البشري"[2].

ثم أن المحبة إذ تتأصل في القلب تضاعف قواه، وتحمله على العظائم، وتجعله يستهين بالمصاعب. لأن "الحب هو قوي كالموت"[1].

ومن شأن الحب أيضاً أن يبعث في القلب نشوة غبطة وارتياح. فمحبتنا لله تنشئ فينا حتى ونحن على الأرض شعور بهجة داخلية صادقة لا يشوبها كدر أرضي. نشعر بسلام وطمأنينة لا يضاهيها نعيم في هذه الدنيا. "أنت تجعل القلب مطمئناً وتخوّله سلاماً وفرحاً جزيلاً"[2].

---

[1] ١ كورنش، ١٣: ١ – ٨.
[2] الاقتداء بالمسيح: س٣، فصل ٣١، ع٢. "الخلاق المسيحية".
[1] نشيد، ٨: ٦.
[2] الاقتداء بالمسيح: س٣، فصل ٣٤، ع١.

وهكذا يكون اتحادنا بالله بالمحبة، وما نجد فيه من قوة ونشاط وبهجة وارتياح وسلام وطمأنينة، مدعاة لكي نتفانى في خدمته، وفي تعلّقنا به. فتكون نتيجة ذلك تقدمنا في النعمة والقداسة.

٣ كيف نمارس فضيلة المحبة:– يجب قبل كل شيء أَلاّ يغرب عن بالنا أنه لا محبة على الأرض بلا تضحية. أن المحبة الآمنة المطمئنة المتنعّمة التي كلها سرور وحبور من غير أن يخالطهم ألم أو وجع لا توجد إلا في السماء. أما على الأرض فإن طبيعتنا الفاسدة وما ينتابها من المطامع والهواء، وما يثور فيها من الرغائب والشهوات، لا يمكّنها من أن تكون لله ولخدمته، ولا يحملها على أن توفي القريب حقه وما هو أيضاً فوق حقه، إلا بالتضحية وبذل الذات ونكران الشخصية. لذلك قال الرب: "من أراد أن يتبعني فلكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني"[٣]. ومن بعده قال بطرس الرسول: "وإن كنتم تتألمون وأنتم فاعلو خير فصبرتم فهذا نعمة لدى الله. ولهذا دعيتم لأن المسيح أيضاً تألم لأجلنا وأبقى لكم قدوة لتقتفوا آثاره"[٤].

وفي معنى ما تقدم قال أيضاً بولس الرسول: "والذين للمسيح صلبوا أجسادهم مع الآلام والشهوات".

والرسول يوحنا أيضاً يقول: "لا تحبوا العالم ولا ما في العالم. إن كان أحد يحب العالم فليست فيه محبة الآب. لأن كل ما في العالم هو شهوة الجسد وشهوة العين وفخر الحياة، وليس ذلك من الآب بل من العالم".

فبعد أن أثبتنا بأن التضحية يجب أن تكون أساس المحبة فلنبحث الآن في كيفية ممارسة هذه الفضيلة الإلهية السامية.

أولاً– كيف نمارس فضيلة المحبة نحو الله؟

إن المبتدئين بالحياة الروحية يقومون بواجب فضيلة محبة اله:

١– باجتنابهم أنواع الخطايا وما إليها. فيجدون كل يوم وفي كل آن عواطف الندامة على ما فرط منهم من الذنوب، مع القصد الصادق على عدم الرجوع إليها. وهكذا تتأصل المحبة في قلوبهم.

٢– بقبولهم، بعاطفة الرضى والتسليم لأحكام الرب، ما يمتحنهم به من أنواع الشدائد والأحزان، صابرين على المحنة، مستسلمين لأحكام الله في أنواع الشدة.

٣– بايقاد عاطفة الشكر في قلوبهم نحو الله المحسن إليهم. لأنهم ينظرون إلى مراحم العلي تفيض عليهم رغم مآثم ونقائصهم فتطفح قلوبهم بالشكر. ولما كان الشكر يذكي عاطفة المحبة نحو المحسن، فبشكرهم تكثر محبتهم.

أما المتقدمون في الحياة الروحية فإنهم فوق الأفعال السابقة يمارسون فضيلة المحبة على أنواع ممنوعة أيضاً. فتكون محبتهم لله محبة ارتياح وغبطة، محبة شوق ورغبة، محبة وفاق واتحاد، محبة صداقة ووفاء.

إن الظاهرة الأولى للحب الحقيقي هي ما يُمتّع به المحب من الارتياح والغبطة بحصوله على موضوع حبه. فالنفس التي اعتادت أن تنصرف إلى محبة الله تتلذذ بأن يكون الله الله، وبأن يكون الكمالَ كلَّه، والحكمة السامية كلّها، والقدرة التي لا حدّ لها، والحنان الذي ليس بعده حنان. وتفرح بهذه الكمالات الإلهية أكثر من فرحها بما هو لها. وتذوب في عاطفة السجود والعبادة والتقدير والإعجاب والفرح الداخلي الصميمي. وبذلك يصبح الله كأنه إلهها وحدها. فتتغذّى بكمالاته، وتتغنى بحنانه ورحمته. لأن غذاء القلب هو التلذذ بما أحب. وتصرخ من أعماق وجودها مع القديس فرنسيس

[٣] متّى، ١٦: ٢٤.
[٤] ١ بطرس، ٢: ٢٠ و ٢١.

السالي: "يكفيني ويكفي نعيمي أن يكون الله الله، وأن يكون حنانه لا حدّ له، وأن تكون كمالاته لا نهاية لها. وأني إن حييت وإن متُّ فسيان عندي لأن حبيبي الذي يهواه قلبي هو حي لا يموت وهو يموت وهو دوماً ظافر منصور"[١].

وهذا الحب يصبح أسىً ولوعة إذ تنظر النفس المحبّة إلى عذابات يسوع وآلامه فتذوب حزناً عليه. وربما أدّى هذا الحب بها إلى أن ترتسم جراحات يسوع على جسمها وأعضائها كما حصل للقديس فرنسيس الأسّيزي، والقديسة كاترينا السيانية، والقديسة تريزيا الافيلية، والراهبة الكرملية. ريم يسوع المصلوب.

والظاهرة الثانية للحب هي الشوق إلى أن يكون المحبوب مقدماً ومعظماً وممجداً. فالنفس التي تحب الله تتوق إلى أن ترى الدنيا بأسرها تمجده وتحبه وتعبده وتعترف بجوده وحنانه ورحمته: "باركي الرب يا جميع أعمال الرب. سبحية وارفعيه إلى الدهور".

"باركوا الرب يا ملائكة الرب. سبحوه وارفعوه إلى الدهور".

"باركي الرب أيتها السماوات. سبحية وارفعيه إلى الدهور".

"باركوا الرب يا بني البشر. سبحوا وارفعوه إلى الدهور".

"باركوا الرب يا كهنة الرب... باركوا الرب يا عبيد الرب... باركوا الرب يا أرواح ونفوس الصديقين...".

"باركوا الرب أيها القديسون والمتواضعو القلوب"[١].

والظاهرة الثالثة للحب هي الوفاء والاتحاد بين المتحابين. لا حب يوفّق بين القلوب ويوحّد عواطفها فتصبح قلباً واحداً، وعاطفة واحدة، وشعوراً واحداً. فالنفس التي تحب الله تجعل إرادتها مع إرادته تعالى واحدة. فلا ترغب إلا فيما يرغب هو تعالى فيه، ولا تبغي إلا ما يبغيه، ولا ترضى إلا بما يأمر به، ولا يطيب لها أمر في الدنيا إلا ما كان موافقاً لإرادته وأحكامه: "لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض...[٢] ليس كمشيئتي بل كمشيئتك"[٣].

وهكذا تكون النفس دائمة التنبُّه لكي تُخضع إرادتها لإرادة الله على الدوام. فتقوم بحفظ وصاياه، لا بل بممارسة المشورات الإنجيلية التي دعا إليها. وتصغي إلى إرشادات النعمة، وتكون طائعة لأحكامه في كل ما يواجهها من أمور الدنيا من حلو ومر، وسعة وضيق، وصحة ومرض، ونجاح وإخفاف، وإقبال وإدبار، وغمّ وسرور. ويصبح سيان عندها نوع الحياة التي سمح الرب بها طالما تجد في ذلك إتمام إرادته الإلهية. هكذا يتم لها السلام الداخلي والطمأنينة القلبية. "لأن الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير"[٤].

وفي ذلك يقول الخطيب الفرنسي الكبير بوسيه: "إتحاد إرادتنا مع إرادة الرب يجعلنا نرتاح في الألم ارتياحنا في السرور. فما يحسن في عين الرب يحسن في أعيننا، لأنه تعالى يعرف ما هو الحسن لنا. وهكذا نطلب ارتياحنا ليس في عمل ما يسرنا، بل فيما يريده الرب منا. ونتوسل إليه تعالى لكي نكون دائماً موضوع سروره ومرضاته، ولكي يسيّرنا في الحياة كما يتراءى له بحسب طرقه وأحكامه"[٥].

---

[١] Amour de Dieu, L, V, ch. III.
[١] دانيال، ٣: ٥٧ – ٨٧.
[٢] متّى، ٦: ١٠.
[٣] متّى، ٢٦: ٣٩.
[٤] رومية، ٨: ٢٨.
[٥] Elévations, XIIIeser.7e élévation.

والظاهرة الرابعة للحب هي الصداقة بين المتحابين وهبة نفوسهم لبعضهم. فمحبة الله تجعل هذه الصداقة حقّاً قائمة بينه تعالى وبين النفس المغرمة به. فهو يمنحها ذاته مع كنوزه وخيراته؛ وهي تتفانى في خدمته وفي بذل حياتها من أجله.

إن الله أحبّنا منذ الأزل. "إني أحببتك حبّاً أبديّاً"[١]. يقول الرب لأَسباط بني إسرائيل. وحبه تعالى كان وما زال مجرداً. بحيث أنه يحبنا ليس لأَجله، بل لأَجلنا ولأَجل سعادتنا ونعيمنا، وحبه حب كريم جواد يهب كإله بلا حساب ولا ميزان. وحبه حب مُبادئ. فهو الذي بادأنا بالحب؛ وهو الذي تنازل ودعانا إلى محبته: "يا بُنَيَّ أَعطني قلبك"[٢]. وأيضاً: "نعيمي مع بني البشر"[٣].

لذلك فإن النفس المحبة الصادقة في حبها، الصديقة لله، بحب الله حبّاً متواصلاً، بل كلل ولا ملل ولا تذمر. ولا تهاب الضيقات، ولا تتوارى أمام المشقات. بل تلبث ثابتة في حبها، راضية بسرور بكل ما يسمح تعالى أن يحلّ بها في حياتها، أمينة على خدمته وعبادته وحفظ وصاياه ومُحِبّة قريبها لأجله. وهي تكثر من أفعال المحبة وعواطف المحبة وصلوات المحبة. وتغذي عقلها بدوام الافتكار به تعالى، وقلها بالشوق إليه. وتحبه محبة منزهة مجردة ليس لأَجل كمالاته وجماله وقدرته وحنان قلبه. وهكذا تحبه ذاتها بكمالها كما يهبها هو ذاته لها.

وما أحلى ما كتبته القديسة تريزيا الكبيرة الافيلية في هذا المعنى إذ قالت: "إنني أرى أن الرب يسوع رغم سؤدده وسلطانه يسهّل عليَّ أن أعامله معاملة الصديق لصديقه. فهو ليس كأمراء الأرض وأسيادها الذين يجعلون عظمتهم في الفخفخة والظهور. نعم إنه إِله؛ ولكنه إنسان أيضاً. لذلك فهو لا يعجب لما يراه من نقائصنا. وهو يعرف أن طبيعتنا المسكينة الضعيفة معرّضة على الدوام للسقوط وللخطأ. وهو يسمح لنا أن نأتي إليه وأن نقترب منه من غير أن نحتاج إلى رئيس تشريفات يقدّمنا إليه"[٤].

---

[١] أرميا، ٣١: ٣.
[٢] أمثال، ٢٣: ٢٦.
[٣] أمثال، ٨: ٣١.
[٤] Histoire de Sainte Thérèer, t. I, p. 343.

البحث الثاني:
في محبة القريب

١.بيانها: محبة القريب معناها العطف عليه.وخدمته ومسامحة سيئاته وغضّ الطرف عن نقائصه لاجل الله ومحبة الله. وهكذا ترتبط محبة القريب بمحبة الله فتكون فضيلة الهية.

أما إذا عطفنا على القريب وخدمناه وضحينا من اوقاتنا الطبيعي اليه لا لسبب آخر، او طمعاً في كسب عطفه او ماله أو نفوذه، من غير أن يكون لله شأن في عملنا هذا، فيكون ذلك منا عاطفة انسانية أو أطماعاً زمنية بعيدة عن العوامل السماوية، لا شأن لله فيها، ولا حق لها في بركته تعالى ومكافأته. أما إذا كان الدافع لخدمتنا للقريب ومحبتنا له كونه ابناً لله وأخاً ليسوع المسيح، من غير أن نصغي إلى ما نجد فينا من ميل عاطفي إليه، أو من كراهية طبيعية نحوه، فمحبتنا له تكون إذ ذاك محبة إلهية سماوية نستحق عليها نعم العلي في الدنيا والنعيم الأبدي في الآخرة.

وقد أوضح ذلك المعلم الإلهي بقوله: "الحق أقول لكم أنكم كلما فعلتم بأحد أخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه"[١].

٢– **كيفية ممارسة المحبة الأخوية**: ان المبتدئين في الحياة الروحية يمارسون المحبة الأخوية على نوعين: نوع سلبي ونوع إيجابي: فهم يتجنبون أولاً ما ينافيها من الرذائل، وثانياً يقومون بما تأمر به الوصايا من الفضائل.

فيتجنبون الدينونة الباطلة والنميمة والافتراء وما إليها من الرذائل التي تناقض ليس فضيلة المحبة فحسب، بل فضيلة العدل أيضا.

ويقاومون ما يشعرون به من البغضاء والجفاء الطبيعي نحو هذا أو ذاك، فلا يسمحون لإرادتهم بان تصادق على ميلهم هذا الطبيعي وشعورهم البديهي الداخلي.

ويترفعون عن الكلام الذي يجرح ويضرم نيران الخصام والأحقاد.

ويلجمون لسانهم عن المزاح الذي كثيراً ما ينغص حياة القريب ويؤدي إلى المنازعات وقطع الصلات.

ويحاذرون الإساءَة إلى القريب بشهادة الزور والأخبار الملفقة التي تكون مراراً سبب أضرار خطيرة يصعب فيما بعد تلافيها وإصلاحها.

ويحرصون الحرص كلَّه على ان لا يسبّبوا شكوكاً للقريب، فيتجنبون لا ما هو محرّم فحسب، بل أيضاً ما يكون حلالاً ولكن يكون مثيراً للشكوك في نفس القريب الساذج الضعيف. فلا يتناولون اللحم مثلاً أمام الأولاد في أيام الصيام ولو كان الزفر محللاً لهم؛ ولا يستصحبون معهم غلمانهم وبناتهم إلى محافل اللهو المريبة وان كانوا هم لا يتضررون منها؛ ولا يقراون أمام السذّج كتباً ممنوعة عن هؤلاء وان سُمحَ لهم بقراءتها والقديس بولس يوصي قائلاً:" ان كان الطعام يشكك أخي فلا آكل اللحم إلى الأبد لئلا اشكك أخي"[٢]

---

[١] متى٢٥: ٤٠.
[٢] كور٨: ١٣.

أما الفضائل التي يتحلى بها المبتدئون في الحياة الروحية فيما هو من محبة القريب فهي كثيرة جميلة:

فأنهم يصبرون على نقائض القريب ولو كانت عديدة وثقيلة، لأنهم يعلمون أن لهم أيضاً نقائصهم، ويعلمون ان المرء ميال بفطرته إلى تعظيم نقائض القريب ولاسيما من كان يستثقله ويتبرمّ منه. ويذكرون قول الرب: "ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك"[١].

وهم يصفحون أيضاً عن الإهانات، ولا يضمرون الشر لاعدائهم، ويصالحون من عاداهم، لأن السيد المسيح يأمر بذلك: "فإذا قدّمت قربانك إلى المذبح وذكرت هناك ان لأخيك عليك شيئاً فدع قربانك هناك أمام المذبح وامضِ أولاً فصالح أخاك وحينئذ أئتِ وقِدّم قربانك"[٢].

والقديس بولس يحرض المسيحيين على اطراح غضبهم ويقول: "لا تغرب الشمس على غضبكم"[٣].

ولقد أكد لنا رب المجد ان الله يغفر لنا بقدر ما نكون قد غفرنا لقريبنا: "وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن أساء ألينا... وأنكم ان غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوبكم السماوي زلاتكم، وان لم تغفر للناس فأبوكم أيضاً لا يغفر لكم زلاتكم"[٤]

أما المتقدمون في الحياة الروحية فأنهم ينسجون على مثال الرب يسوع في ممارسة فضيلة المحبة.

فيذكرون أولاً ان وصية المحبة هي وصيته الخاصة به وشعاره الجديد: "أني أعطيكم وصية جديدة"[٥]. بل جعل فضيلة المحبة العلامة الفارقة التي يمتاز بها تلاميذه عن سواهم. "بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً"[٦].

ولقد قال في ذلك الخطيب الفرنسي الكبير بوسيه: "ان هذه الوصية هي جديدة لأن الرب يسوع يأمرنا بان نحب بعضنا بعضاً كما هو أحبنا. فكيف هو أحبنا، أنه بادأنا بالحب لما كنا نحن بعد لا نفكِرّ به. هو الذي أتى ألينا أولاً، وفوق ذلك فانه دائماً يغضُّ الطرف عن خياناتنا وعن نكراننا لجميله ونسياننا لمكارمهِ، أنه يحبنا لكي يقدّسنا ولكي يسعدنا. وما ذلك إلا تكرماّ منه وتفضلاً. لأنه لا مصلحة له بذلك إذ لا يحتاج إلينا في شيء". فالمحبة الأخوية هي العلامة الفارقة التي يجب ان يمتاز بها المسيحيون عن سواهم من الأمم. هذه هي وصية الرب وإرادته.

وكيف أبنا المسيح؟ لقد أَحبنا محبة مبادِئة، محبة عطوفاً، محبة جوادة.

ان الرب يسوع هو الذي بادأنا بالحب. "أما الله فيدل على محبته لنا بأنه إذ كنا خطأة ففي الأوان مات المسيح عنا"[١].

أليس أنه هكذا فعل مع السامرية، ومع المرأة الخاطئة، ومع المخلع، ومع اللص؟ أليس هو الذي بدأ فقال لنا: "تعالوا إلي يا جميع المتعبين..."[٢] فعلينا نحن الذين نحب الرب يسوع ونرغب في، ان نقتفي أثره نبادر قريبنا بالمحبة. هذا ما

---

[١] متى٧: ٣.
[٢] منى٥: ٢٣و ٢٤.
[٣] افسس٤: ٢٦.
[٤] متى ٦: ١٢- ١٥.
[٥] يوحنا ١٣: ٣- ٦.
[٦] يوحنا ١٣: ٣٥.
[١] رومية ٥: ٨.
[٢] متى ١١: ٢٨.

يفعله الذين يعودون المرضى، ويزورون الفقراء في بيوتهم، ويعزون الحِزان والمصابين، ويذهبون إلى السجون فيؤاسون المسجونين، ويبذلون المساعي الصادقة اللطيفة في إعادة البعيدين عن الله إلى واجباتهم، ويساعدون المدنفين على لقاء ربهم.

ان الرب يسوع أحبنا محبة رأفة وشفقة وحنان. أشفق على الجماهير في البرية لما رآها جائعة متعبة بعيدة عن مآخذ الطعام فاشبعها. – تحنن على الشعوب فغذّاها بتعاليم سامية إلهية محيية تركت بعيداً وراءها تعالم كل فلسفة وكل ديانة سواها.– جعل مثَله في حنانِه مَثَل الرعي الذي يترك قطيعة كله ليذهب في طلب الخروف الضال منه.

وكم مرة شفى أمراض النفس قبل ان يهب الصحة للأجسام. ليعلمنا ليس الشفقة فحسب، بل أيضاً تنظيم أفعال الرحمة والشفقة بان نهتم بنفس القريب قبل اهتمامنا بجسده، وان نتخذ الإحسان إلى جسده سبيلاً للوصول إلى قلبه ونفسه.

فعلى مثال السيد المسيح نمارس الشفقة نحو القريب في استقامه واثقاله وجعله وغباوتِه، فلا نبخل عليه بشيء من مالنا ومن وقتنا ومن قوانا ومن معارفنا ومن عاطفتنا.

ان الرب يسوع أحبنا محبة سخية جوادة. أليس انه لأجل حبنا رضي بان يتجسد ويتألم ويتعب ويشقى إلى ان قضى نظير اللصوص على خشبة: "أحبنا وبذل ذاته لأجلنا"[٣].

وعلى أثره سارت جماهير الرهبان والراهبات والمسيحيين والمسيحيات في مدارس التعليم، وفي الملاجئ والمستشفيات وسائر محطات البر والرحمة في مختلف البلدان وفي كل زمان ومكان. فان الملايين من هؤلاء الرهبان والكهنة والراهبات والمسيحيين الأتقياء والمسيحيات الغيورات يكرسون في سبيل القريب والمريض والضعيف والجاهل والبائس والفقير والأعمى واليتيم واللقيط وسواهم من المساكين، يكرسون قواهم وأوقاتهم وأموالهم وحياتهم، مضحّين بكل شيء في سبيلهم محبة للمسيح الذي أوصى بهم، وتمثلاً به إذ أنه مات لأجلهم، هذه هي الطريق الملكية التي سلكها الرب يسوع في حياته وسارت عليها جماهير أصفيائه من بعده.

أما الكاملون من المسيحيين فأنهم لا يجمعون عن بذل حياتهم عند الاقتضاء. في سبيل قريبهم. "بهذا قد عرفنا المحبة ان ذاك قد بذل نفسه من أجلنا فيجب علينا أن نبذل نفوسنا من أجل الأخوة"[١]. هذا ما يفعله المرسلون في البلاد القاصية. هذا ما فعله الكاهن القديس بطرس داميانوس لما تخصص لخدمة البرص. هذا ما فعله القديس منصور دي بول لما استسلم للأَسر لينقذ أحد المأسورين. هذا ما فعله أحد الأسرى الاشراف في سجون الثورة الفرنسية لما أتى رفيقاً له وقال: "يا أخي أنت رب عائلة وأنا أعزب. فإذا طلبوك قبلي ليعدموك فدعني أذهب بدلاً عنك فلربما عَفَوا عني فتخلص أنت باسمي، لأنهم لا يميّزون بين هذا وذاك. وهكذا تبقى أنت لعائلتك وأولادك، وأنا فلا بأس علي إذا الموت تعجَّلني".

وفضيلة المحبة هذه الكاملة حملت بعض الكهنة على أبراز "نذير العبودية" في سبيل خدمة النفوس. فأنهم يقيمون ذواتهم عبيداً للنفوس التي يخدمونها، فيتخصصون لها بكل ما في حالة العبد من التجرد عن ذاته وعن إرادته وميوله

[٣] افسس ٥: ٣.
[١] يوحنا٣: ١٦.

ومطالبه. وبذلك لا يعودون يملكون شيئاً مما لهم لا من علم، ولا من إرادة، ولا من مال، ولا من وقت، حتى لا من حق على الحياة. لان العبد هو ملك أسياده. نعم ان محبة المسيح تصل بالنفوس الكبيرة إلى مثل هذا الحد من التضحية.

ولكي ننهي هذا البحث نورد تعليقاً رائعاً للقديسة تريزيا الطفل يسوع في موضوع المحبة؛ قالت في شرح هذه الآية: "أني أعطيكم وصية جديدة ان يحب بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا..."[٢].

"وأخذت أبحث عن الكيفية التي بها أحبَّ يسوع تلاميذه، فرأيت أنه لم يحبهم لأجل ما لهم من مزايا طبيعية، فأنهم كانوا جهلة ومسوقين بمطامعهم الأرضية. ورغم ذلك فهو يدعوهم أصحابه وأخوته، ويرغب في أن يراهم معه في ملكوت أبيه. ولكي يفتح لهم هذا الملكوت يرضى بأن يموت على الصليب، ويقول: "ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يبذل نفسه عن أحبائه"[٣].

"فلما تأملت في هذا الكلام رأيت كم هي ناقصة محبتي لأخواتي وكم هي بعيدة عن محبة يسوع لهن. أنني الآن أفهم ان المحبة الحقيقية تقوم باحتمال نقائض القريب كلها، وبعدم العجب من ضعفه، وبالاغتباط بفضائله.

"في العهد القديم، لما أمر الرب شعبه بان يحب المرء أخاه كما يحب ذاته، لم يكن بعد قد تجسد ونزل على الأرض. فلما كان يعلم مقدار محبة المرء لنفسه لم يكن يستطيع أن يطلب من شعبه أكثر من هذا. ولكن لما أعطى يسوع لرسله وصية جديدة، وصيته الخاصة به، لم يكتف حينئذ بان يطلب منَّا ان نحبَّ قريبنا كما نحب نفسنا، بل أمر بان تكون محبتنا لهذا القريب كما هو يحبنا وكما سوف يحبنا إلى انقضاء الدهر".

والقديسة تريزيا تتكلم بعد ذلك عن طريقة سهلة لممارسة فضيلة المحبة فتقول:

"عندما يأتي الشيطان ويضع أمام عيني نقائض فلانة أو فلانة من أخواتي الراهبات، أسارع أنا وأبحث عن فضائلها وعن نياتها الحسنة وأقول في نفسي: إذا كنت قد رأيتها سقطت مرة، فلربما أنها انتصرت مراراً على تجاربها ونزعاتها، وهي تخفي ذلك تحت ستار التواضع. وربما ان ما أراه فيها زلة، ليس هو سوى فضيلة حقة بسبب حسن نيتها وصلاح طويتها".[١]

ويجدر بنا ان ننهي هذا الفصل ببعض ملاحظات ونصائح الروحي الأب لوجون P .Lejeune في أعمال الحب قال:

"ليس الحب العاطفي كالحب العملي. فالحب العاطفي هو سعير متأجج في القلب. أما الحب العملي فهو الحب الخارجي الذي يبدو للعيان بأعماله.

"ففي الحب العاطفي، عليك بمعاملة قلبك كما تعامل فرسك. فانك إذ تكون راكبا فرساً، وتكون صاعداً أكمة، نترك لها العنان؛ أما إذا نزلت منحدراً تشد إليك عنانك، وهكذا في الحب: فإذا اندفعت في حب الله وهو حب سام، فسِرْ ركضاً راخي العنان... ولكن حينما ينحدر قلبك إلى أسفل، إلى حب الخليقة، فعليك بالاحتراس. لأنه يجب عليك

[٢] يوحنا١٣: ٣٤.
[٣] يوحنا١٥: ١٣.
[١] في كتاب حياة، الفصل التاسع.

ان لا تسمح لقلبك بان يخوض في لجج من المشاعر والعواطف الحسية. لأن الحب الروحي يَفْسد أحياناً، كما يقول القديس بنو نتورا، فينقلب إلى حب شهواني، لاسيما مع الجنس الثاني.

"أما الحب العملي فان الله يريد منك ان تبدأ أولاً فتوجهه إلى القريب، وتخدم به قريبك أكثر من خدمتك لخالقك. لن الله يريد ان تترك أحياناً خدمته لتخدم قريبك لأجله تعالى وخدمته. مثال ذلك أنك لو كنت لا تقدر ان تحضر القداس يوم الأحد إلّا إذا تركت مريضاً هو بحاجة إليك وإلى إسعافك، فان الله يريد منك ان تترك القداس لأجل خدمة ذلك المريض:

"إني أريد رحمة لا ذبيحة". لأن الله بغنى عن عباداتنا، ولا منفعة له بضحايانا. أمَّا أعمال الرحمة والشفقة نحو القريب فهي كثيراً ما تكون نافعة له، لا بل ضرورية أيضاً".

«حوادث تاريخية»
الأب بطرس دميان رسول البُرص

ان بين جزر الساندويتش المنثورة في أواسط المحيط الهادي جزيرة تدعى مولو كاي جمعت فيها الحكومة البريطانية جماهير المرضى المصابين بداء البرص لكي تمنع بذلك من ان تسري عدوى هذا الفتاك الوبيل في الجزء العديدة الكبيرة والصغيرة التي تملأ ذلك المحيط العظيم.

ففي جزيرة مولو كاي هذه نجد خليطاً من البشر من جميع الأجناس والأديان قد جمعتهم المصيبة، وقربت بينهم البلوى. فتجاوروا على مضض، وباتوا يقضون حياتهم المرة في انتظار الموت الأليم بينما أطرافهم المبتورة تتساقط شيئاً فشيئاً.

وليس من تعزية لهذه الجماهير من المرضى سوى ما تغمرهم به الحكومة والمحسنون من أعمال الشفقة والرحمة. والمسيحيون منهم، ولاسيما الكاثوليك ينسون همومهم وآلامهم في المساعدات والخدم الدينية التي يقدمها لهم المرسلون الأوروبيون من رهبانية القلبين الأقدسين. لأن الكهنة يأتونهم من حين حاملين إليهم مع كلام التعزية رب التعزية.

ورأى أحد هؤلاء المرسلين الغيورين، وهو الأب بطرس دميان ان تلك الزيارات، وان تعددت، لا تفي بالغرض المطلوب، وان إقامة وسكنى واحد أو أكثر من المرسلين فيما بين أولئك المصابين تعود عليهم بالفائدة الكبرى، دينية وأدبية ومادية؛ وانه قد يكون لها الأثر الكبير الطيب ليس في خدمة المسيحيين فحسب، بل في ارتداد الكثيرين إلى الإيمان بالمسيح أيضاً.

ففكر هذا المرسل القديس مليّاً في الأمر، ثم عزم على التضحية بصحته وحياته في سبيل أولئك المرضى المبتلين بذاك الداء الوخيم. وكان عالماً بأنه بإقدامه على ذلك العمل لا بد له من أن يصاب هو أيضاً بداء البرص الشنيع وبموت فيه. ولكن المحبة المسيحية انتصرت فيه على المخاوف البشرية، فطلب من رؤسائه ان يسمحوا له بان يجعل مقامه الدائم في تلك الجزيرة لكي يقوم بخدمة مرضاها. فأجابوه إلى طلبه. فذهب وأقام هناك.

وكان اذ ذاك ممتلئاً صحة وشباباً وقداماً ونشاطاً. فأخذ يخدم أولئك البؤساء وبؤاسيهم ويعنى بأمورهم. وتسلم إدارة المستشفى الكبير هناك، فدبت الحياة في تلك الجزيرة. ودهش الوثنيون لتلك التضحية وتلك الفضيلة فآمن الكثيرون منهم بالمسيح. ان أعمال الرحمة المسيحية كانت ولا تزال أفصح لسان وأجلى بيان لشرح عقائد الإيمان والدعوة إلى الإيمان.

وكان ما لا بد ان يكون. فابتلي الأب دميان أيضاً بداء البرص. فتشوَّه وجهه وأخذت تتساقط أطرافه. ولكنه بقي مثابراً على عمله بلا كلل ولا ملل. فقضى السنين الطوال يخدم ويبشر ويؤاسي ويعزي ويشجع وينفق الأموال الطائلة في تخفيف الآلام عن تلك الفئة المسكينة من البشرية المتألمة إلى ان مات بداء البرص شهيد المحبة والرحمة. فدعاه التاريخ رسول البرص. وكان ذلك سنة١٩٩٨.

"ان محبة المسيح تحثنا"

الصداقة أنواع[1]

سيدة "سوريد" كانت معقدة. وكانت تنتقل من مكان إلى مكان وهي جالسة على كرسي ذي عجلات تدفعه بيديها. وكان هذا حالها منذ حداثتها حتى أربّت على الخمسين. إلا أنها رغم هذه العاهة فقد كرست أيامها الطويلة لأجل تسلية الأطفال المرضى في المستشفيات. فكانت تسأل عنهم وعن أسمائهم وأحوالهم؛ ومن غير ان تعرفهم تراسلهم وتضمن رسائلها طائفة من الأخبار التي تلذ قراءتها لهم. وكان هؤلاء يترقبون رسائلها بفارغ صبر ويقرأونها بارتياح، ويعيدون قراءتها، وينسون ما هم به من ألم وسأم.

فكانت كل صباح تأتي على عربتها الصغيرة وهي تدفعها بيديها، وتحمل إلى مقر البريد رزمة من الرسائل المختلفة تبعث بها إلى المستشفيات في مختلف انحاء البلاد.

وما أجمل أيضاً ما كانت تفعله تلك الأبنة الصبية التي كانت تذهب كلما سنحت لها الفرصة، إلى محطة السكك الحديدة، وهناك تبذل مساعدتها للسيدات المسافرات بملاحظة الأطفال والسهر على الحقائب وما شاكل، خدمة لذكرى والدتها المتوفاة التي كانت في أسفارها تلاقي مشقة وعناء مع أولادها.

الصدقة أنواع منوعة، وما أحلاها!

[1] من مجلة " المختار".

العاطفة البنوية الصادقة[٢]

دخلت حانوتاً لبيع الأزهار فوجدت غلاماً ينتقي أجمل ما يجد من الورد الأحمر. فقالت له بائعة الزهور: أرجوك ان تكتب على هذه البطاقة الاسم والعنوان حتى نرسل لك الورود حيثما تريد. فأجاب الغلام: شكراً سأحملها بنفسي. ثم أردف وقال للبائعة: بل أرجوك ان تكتبي لي على هذه البطاقة: عيد سعيد يا ماما.

وبعد برهة ركبت القطار وكان يسير بنا الهوينا في ضواحي المدينة. وبينما كنت أتطلع من النافذة وإذا بي أرى الغلام يحمل باقة الورد ويدخل مقبرة صغيرة.

ما أجمل عاطفة هذا الغلام نحو والدته الراقدة في تلك المقبرة الصغيرة فهو يذهب إلى زيارتها في مرقدها يوم عيدها ليحّي ويحيي عظامها بعاطفته نحوها.

الصدقة أنواع، وما ألذ مذاقها!

ملحق
في الصلاة

أولاً– يانها وضرورتها– الصلاة هي مناجاة الخالق. هي رفع القلب إلى الله بأفعال العبادة. وتشمل هذه الأفعال السجود لعزته الإلهية، والشكر له على نعمة العديدة ومواهبه السنية، والاستغفار من حنانه ورحمته على الذنوب الظاهرة والخفية، والطلب من فيض كنوزه ما يلزم من النعم الروحية والزمنية.

فالصلاة هي صلة بين الله والإنسان. فالله هو الخالق، هو الرب والسيد، وهو المنعم الأعظم المتفضل على مخلوقاته بضروب النعم. والإنسان هو الخليقة المسكينة الخاطئة، ولكن المحبوبة، المحتاجة إلى مراحم الله ومعونته ورحمته.

فالصلاة هي أذاً من ضروريات الحياة:

١– لأن للخالق الحق المطلق على احترام وطاعة خليقته وإكرامها له ما دامت في الوجود.

٢– لأن هذه الخليقة هي بحسب طبيعتها في أشد الاحتياج إلى النعم السماوية لكي تستطيع ان تعمل الأعمال الروحية التي تؤهلها للحياة الأبدية السعيدة الإلهية.

فلقد قال الرب: "أنا الكرمة وانتم الأغصان. من يثبت في وأنا فيه فهو يأتي بثمر كثير. لأنكم بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً"[١].

وقال القديس بولس: "لا أنَّا فينا كفاءة لأن نفتكر فكراً بأنفسنا كأنه من أنفسنا بل كفاءَتنا من الله".– وكتب أيضاً إلى أهل فيلبي يقول: "فان الله هو الذي يعمل فيكم الإرادة والعمل على حسب مرضاته".

---

[٢] "جانيت جالو" في مجلة " المختار" عدد تشرين الأول ١٩٤٧ ص٣٤.

[١] يوحنا ١٥: ٥.

٣- الصلاة هي أيضاً ضرورية للإنسان لكي يتقي التجارب ولاسيما السقوط في الخطايا. لذلك علمنا الرب يسوع في الصلاة الربية ان نبتهل إلى الآب السماوي في صلاتنا كل يوم وكل ساعة ونقول له بثقة بنوية: "ولا تدخلنا في التجارب لكن نجنا من الشرير".

٤- والصلاة هي أيضاً ضرورية للإنسان لحسن القيام بضروريات وواجبات الحياة الزمنية. ان الكتاب المقدس يطفح بمواعيد الله لشعبه بإفاضة الخيرات الأرضية عليه، إن هو حفظ وصاياه وتعبد له. وكم مرة حقق الله تلك المواعيد واستجاب صلاة وأنات الداعين إليه بكل قلوبهم في أوقات ضيقهم ومحنهم. فلقد استجاب لموسى في البرية، وليهوديت وشعبها ضد اليفانا المتكبر وجيشه، ولأَيوب في محنته، ولطوبيا في أمواله وأسفار ابنه، ولأَسير الملكة عندما كان هامان يهدد شعبها بالفناء.

وكم مرة منح الرب يسوع النعم الزمنية إجابة لصلاة ودعاء الطالبين رحمته! شفى العميان والمقعدين والمجانين، وأقام من الأموات ابنة الرئيس ولعازر أخا مريم ومرتا. بل ان توسلات الكنعانية أرغمته أرغاماً على شفاء ابنتها. وهكذا نازفة الدم أيضاً نظيرها.

الم يقل هو جلّ اسمه ويعيد القول بالحاج: "اسألوا فتعطوا، اطلبوا فتجدوا، اقرعوا فيفتح لكم"[١]. ولكي يوصل كلامه وإراداته إلى الأذهان بأجلى بيان يستعير تشبيهاً رائعاً ويقول: "أي إنسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً. أو إذا سأله سمكة يعطيه حية. فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون ان تمنحوا العطايا الصالحة لأبنائكم فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله"[٢].

وان الصلاة المثلى التي علمنا الرب ان نصليها تطلب لنا مراحم الآب السماوي النعم السماوية والأرضية معاً: "أعطنا خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا خطايانا".

فالصلاة هي ضرورية إذن لحياتنا الروحية والزمنية معاً، ولا قوام لها ألا بها. ويقول في ذلك القديس توما اللاهوتي:" ان كل ما لا يكون مؤسساً على الصلاة في آمالنا ورغائبنا تكون نتيجة الفشل. لأنه لما كان لا واجب يلزم الله الزاماً ليمنحنا ما نحن بحاجة إليه من النعم، ولما كانت النعمة من طبيعتها مجانية، فهي لا تُنال إلا بواسطة الصلاة.

"لا ريب في ان الله يعرف ما نحتاج إليه قبل ان نسأله. إلا انه تعالى يرغب في ان نعرض ذلك عليه لكي يهبنا ما نحتاج إليه. وهكذا نذكر دائماً عطفه عليما، وإحسانه إلينا، وضعفنا ومذلتنا"[٣]

والمجتمع التريدنتيني يقول في الكتاب الذي وضعه: "ان الصلاة أعطيت لنا كواسطة فعالة لننال من الله ما نريده منه. لن مواهب كثيرة لا يمكننا ان نحصل عليها إلا بواسطة معونته"[١]

ثانياً: شروط الصلاة- لكي تكون الصلاة حسنة ومقبولة لديه تعالى ومستجابة، يجب ان تتوفر فيها شروط عدة رئيسية. وهي تعود إلى قسمين: (أ) ماذا ينبغي لنا ان نطلب. (ب) كيف نطلب.

---

[١] متى٧: ٧.
[٢] متى ٧: ٩- ١١.
[٣] Sum.Theol.Ha Ha, Q.83,a.1,ad 3.
[١] Cat. Trid. P.IV, c11,3.

(أ) ***ماذا ينبغي لنا ان نطلب***: لكي تكون مقبولة يجب ان نجعل في رأس توسلاتنا وطلبنا ما يلزمنا من النعم الروحية التي توصلنا إلى غايتنا القصوى السماوية. ثم يجب ان لا نطلب من النعم الزمنية إلا ما يتفق ولا يتنافى مع هذه الغاية العليا الأبدية التي أعدها الله لنا ودعانا إليها.

ان الخيرات الزمنية لا يمكنها ان تملأ قلبنا، ولا هي تدوم لنا وليس ان تمنحنا من السعادة ما يكفينا ويريحنا ويسعدنا. إلا ان بعضها هو قوام حياتنا الزمنية وليس باستطاعتنا ان نستغني عنها. لذلك يمكننا ان نجعلها هي أيضاً موضوع صلاتنا وطلبنا وتوسلاتنا ولكن يجب ان لا ننسى ان الخيرات الزمنية يلزمها ان تبقى في المحل الثاني، وان يبقى للخيرات الروحية المقام الأول. لن غاية هذه أبدية، وغاية تلك زمنية وقتية. وشتان ما بين هذه وتلكز لذلك كثيراً ما تتنافى الخيرات الزمنية مع المواهب الروحية وتكون عائقاً كبيراً لنا في طريقنا إلى غايتنا السماوية الدائمة. فيكون طلبنا لها ضرراً لنا. فالواجب يقضي ومنفعتنا أيضاً بان لا نرغب في الزمنيات إلا بقدر ما تتناسب مع منفعتنا الروحية، لكي لا تكون الخيرات الأرضية شبباً لخسارتنا الخيرات السماوية السامية. أليس ان الكثيرين يهلكون بسبب غناهم، أو بسبب رتبهم، أو بسبب وظائفهم، أو بسبب سكناهم في المدن الكبيرة بدل الأرياف المتواضعة.

لذلك وجب على من يصلي ان يطلب أولاً ملكوت الله وبرَّه[٢]، وان يبقي إرادته خاضعة لإرادة الله وأحكام الله وتدبير الله، وان يطلب منه تعالى ان لا يمكنه إلا ما يؤول إلى خلاصه الروحي ونجاحه الأبدي.

أننا كثيراً ما نطلب من لله نعماً أرضية فينكرها تعالى علينا لعلمه بأنها سوف تكون سبب خسارة روحية لنا. وينكرها أحياناً أيضاً علينا لأنه يعرف أنها تكون سبب ضرر مادي لنا قد خفي علينا. لذلك يحسن بنا في صلاتنا ان نخضع دائماً إرادتا لإرادة الله مولانا وأبينا ومدبرنا ومرشد حياتنا. وهو إذا أنكر علينا ما نطلب خدمة لنا ولمنفعتنا، فانه لا يبخل علينا بما هو حقاً نافع لنفوسنا وأجسادنا. فيعطينا نعمة نافعة نجلها بدل منة نطلبها ونجهل ضررها. وهكذا لا يترك صلاتنا بلا فائدة نجنيها منها. أليس على هذا النحو تعامل الأم ولدها. أوَ لَيس أيضاً شتان ما بين محبة الأم لولدها ومحبة الله لبنيه وعباده!.

(ب) ***كيف ينبغي لنا ان نطلب***: ان صلاتنا، لكي تكون مقبولة وذات فائدة، يجب ان نقرنها بالتواضع الصحيح والثقة البنوية واليقظة الكافية.

أما التواضع فلقد طالما كان مزية الطالب المتوسل: لا يمكن ان ينال الطالب الوقح منالاً.

ولما كانت النعمة الإلهية مجانية كان لا بد لنا من ان نطلبها بتصاغر وتذلل. والله لا يرد صلاة من تواضع امامه: "القلب المتخشع المتواضع لا يرذله الله"[١]. هكذا استجاب الله صلاة العشار المتواضع، ورذل خطاب الفريسي المتشامخ. أما قال الرب: "من وضع نفسه ارتفع"[٢].

---

[٢] لوقا٢: ٣١.
[١] مزمور٥٠: ١٩.
[٢] لوقا١٨: ١٠.

ويقول القديس يعقوب في رسالته بكل جلاء: "ان الله يقاوم المتكبرين ويعطي للمتواضعين"[٣].

وهذا التعليم هو مبني على المنطق، لان المتكبر لا يقرّ بإحسان المحسن، ولا يعرف للمنة فضلاً ولا قيمة. لذلك تحرم صلاته من الاستجابة ويعود صفر اليدين. لكن المتواضع يستجلب عطف المحسن فتقبل صلاته ويستجاب له.

والتواضع ينشئ الثقة ويحمل الإنسان على الرجاء، والرجاء لا يخزي كما يقول بولس الرسول، لان اعتماده على رحمة الله وحنانه، وعلى استحقاقات آلام المخلص الإلهي. ان رحمة الله واسعة وتتسع أكثر للذي يعرف ذله وفقره وضعفه، ويقرّ بذلك أمام العزة الإلهية.

والكتاب المقدس لا يفتأ يذكرنا بان الله يصغي إلى صلاة من يتكل عليه. فصاحب المزامير يقول على لسان الرب: "انجّيه لأنه تعلق بي. ارقيه لأنه عرف اسمي. يدعوني فاستجيب له"[٤].

وكم يشدد علينا الرب يسوع في أنجيله لكي نضع ثقتنا كاملة فيه: "من منكم يسأل أباه خبزاً فيعطيه حجراًن أو سمكة فيعطيه حية بدل السمكة، أو إذا سأل بيضة يعطيه عقرباً. فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون ان تمنحوا العطايا الصالحة لأبنائكم فكم بالحري أبوكم من السماء يمنح الروح القدس لمن يسأله"[٥].

وفي الليلة الأخيرة التي قضاها يسوع مع رسله أوصاهم مراراً لكي يضعوا فيه ثقتهم ويصلوا ويطلبوا واعداً إياهم باستجابة طلباتهم:

"فكل ما تسألون الآب باسمي فانا افعله ليتمجد الآب في الابن. وان سألتم شيئاً باسمي فاني افعله"[١]

"الحق الحق أقول لكم ان كل ما تسألون الآب باسمي يعطيكموه. إلى الآن لم تسألوا شيئاً. أسالوا تعطوا ليكون فرحكم كاملاً"[٢].

فلا يمكن الإنسان إذن ان يقنط من رحمة الله. بل يصلي بتواضع ويرجو بثقة فينال ما يلزمه من مواهب ونعم.

وإذا كان الله يتظاهر أحياناً كمن يصمّ أذنيه عن صلاتنا وتوسلاتنا، فما ذلك منه إلا ليحملنا على الاستمرار في الصلاة، وعلى دوام اتكالنا ليه ورجائنا بمراحمه، وعلى الاستزادة من معرفة فقرنا واحتياجنا إليه. وهكذا نعرف للنعمة التي نطلبها قيمتها وقدرها. هكذا كانت صلاة المرأة الكنعانية:

"ثم خرج يسوع واتى إلى تخوم صور وصيدا. وإذا بامرأة كنعانية قد خرجت من تلك التخوم تصيح وتقول: ارحمني أيها الرب ابن داود فان ابنتي بها شيطان يعذبها جدًّا. فلم يجبها بكلمة. فدنا تلاميذه وسألوه قائلين: اصرفها فأنها تصبح في أثرنا. فأجاب وقال لهم: لم أرسل ألا إلى الخرفان الضالة آل إسرائيل. فاتت وسجدت له قائلة: أغثني يا رب. فأجاب قائلاً: ليس حسناً ان يؤخذ خبز البنين ويلقى للكلاب. فقالت: نعم يا رب فان الكلاب تأكل من الفتات الذي يسقط من موائد أربابها. حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة عظيم إيمانك، فليكن لك كما أردت. فشفيت ابنتها من تلك الساعة"[٣].

---

[٣] يعقوب٤: ٦.
[٤] مزمور ٩٠: ١٤.
[٥] لوقا ١٢: ١١.
[١] يوحنا ١٤: ١٣ و ١٦.
[٢] يوحنا ١٦: ٢٣.
[٣] متى ١٥: ٢١- ٢٨.

ومع التواضع والثقة يجب لحسن القيام بالصلاة ان يكون الإنسان منتبه الذهن وعندما يصلي وعندما يقول للرب وعندما يطلب.

ان تشتت الفكر وقت الصلاة هو أمر طبيعي. فإذا حدث عفواً وقت الصلاة، من غير قصد ولا قبول ولا رضى، فانه لا يعيق الصلاة ولا يقف حائلاً دون مفعولها، على شرط ان نكون قد احتطنا لأنفسنا لكي نبتعد عن أسباب الشتت وقت صلاتنا.

أما إذا رضينا بتشتت الذهن فلا نخلو حينئذٍ من الخطاءِ، لاسيما إذا كانت صلاتنا من الفروض المتوجبة علينا. ان الصلاة هي مخاطبة الله ومناجاته بأفعال السجود والشكر والاستغفار والطلب. فكيف نسجد سجوداً سجوداً حقيقياً ونحن لاهون ! وهل نشكر المنعم الأعظم على نعمه وآلائه ونحن غافلون عنه وعنها! وهل نستغفر ممن اسأنا إليه ونحن مشرَّدو الفكر! وهل نطلب نعمه وهباته وما نتاج إليه من أَفضاله ونحن بعيدون عنه بفكرنا وعاطفتنا ! ألا نستحق إذا ذاك ان نسمعه يوبخنا ويقول: "ان هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فبعيد مني"[1].

فلكي تكون صلاتنا مقبولة، وجب علينا ان ندفع عنا بإرادة صادقة كل تشتيت لأفكارنا وكل أسباب التشتت التي تعترضنا. وان أفضل طريقة للوصول إلى ذلك هي حصر انتباهنا أو فيما نقول من الكلام، أو في معناه، أو في مناجاة الخالق أو السيد المسيح بعواطف الإيمان أو الرجاء أو المحبة البنوية، كما يناجي الابن أباه في خلواته.

« حادث تاريخي »
القديس بناديكتوس وأخته القديسة سكولستيكا

كان القديس بناديكتوس، منشئ الطريقة الرهبانية في بلاد الغرب يقيم في ديره على رأس جبل كاسينو بالقرب من مدينة رومة. وكانت أخته سكولستيكا تقيم هي أيضاً في دير مع راهباتها في أسفل ذلك الجبل. وكان بناديكتوس ينزل كل سنة مرة إليها فيزورها ويقضي نهاره عندها ثم يودعها ويعود إلى ديره ليأتيها في السنة التي بعدها.

فجاءها مرة وكانت هي الأخيرة في حياتها. فقضيا النهار يتحدثان عن نعيم السماء وهناء الأبرار في ذلك النعيم الإلهي الأبدي. فما شعرا إلا والشمس قد مالت إلى المغيب. فقام بناديكتوس يريد ان يعود إلى ديره. فتمسكت به أخته وجعلت تتوسل إليه يطيل مكوثه لديها ويتابع حديثه السحري الذي كان قد أخذ بمجامع قلبها. لكن بناديكتوس تمسكَ بواجبات القانون الرهباني، فرفض طلبها وسار على بركة الله وتركها.

[1] متى ١٥: ٨

فجثت سكولستيكا القديسة على ركبتيها وجعلت رأسها بين يديها وأخذت تبتهل إلى الرب بدموع وحرارة وإيمان لكي يعيد إليها أخاها. وإذا بالسماء تمتلئ بالسحب، ويكفهر الجو، والرعد يقصف، الأمطار تهطل، وتثور زوبعة هوجاء هائلة فتقطع على الراهب السبل. فاضطر ان يعود من حيث أتى، ويرجع إلى أخته هرباً من الزوبعة.

فابتدرته أخته بالكلام وقالت: "توسلت إليك لتبقى معي، فرفضت طلبي. فتولت إلى الرب فسمع دعاء قلبي". فقال بناديكتوس: "ليكن اسم الرب مباركاً".

وقضيا الليل في حديث السماء. وكانت تلك الزيارة هي الأخيرة في حياة سكولستيكا لأنها ما عتمت ان ذهبت تنعم بذلك النعيم الأبدي الذي طالما بهرها في حياتها وسحرها.